الجمهـــورية الجـــزائرية الديمقـــراطية الشـــعبية

وزارة التعلــيم العـــالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيـــل:

دور صنهاجة الصحراء في التواصل الاقتصـــادي والثقـــافي

بين المغرب الإســـلامي والســـودان الغربي

من ق:2-7هـ /8-13م.

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

تخصص: العلاقات الاقتصادية والثقافية للمغرب الإسلامي بإفريقيا جنوب الصحراء

إعداد الطالب: | بإشراف الأستاذ الدكتور:

حســـين بوبيدي | إسماعيـــــل سامـــعي

لجنـــــــة المنـــــاقشة:

أعضاء اللجنــــــة	الرتبـــــــــــة	الجامعة الأصليـــــة	الصفـــــــــــة
محمد فرقـــــاني	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	رئيـــــسا
إسماعيل سامعـــــي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	مشـــرفا ومقــــررا
إبراهيم بحـــازبكير	أستاذ التعليم العالي	جامعة غردايــــة	عضوا مناقشــــا
علاوة عمــــارة	أستاذ التعليم العالي	جامعـــة الأمير عبد القادر	عضوا مناقشــــا

السنة الجامعية: 1433- 1434هـ / 2012 – 2013م

بسم الله الرّحمن الرّحيم

وصلّ اللّهم وسلّم على محمّد وعلى آله وصحبه

مقـــــــــدمـــــــــة

تعتبر دراسة العلاقات بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، من أهم الأبحاث التي تسهم في فهم مختلف التحولات التي شهدها المنطقتان في التاريخ الوسيط، ولذلك فقد حظيت باهتمام الباحثين الذين عملوا على توضيح الدوافع التي تقف وراء تنشيط هذه العلاقات، والنتائج التي ترتبت عنها، ومن ثمّ ناقشوا مختلف التحولات التي عرفتها، سواء من حيث تلمس الخلفيات التي تقف وراء الازدهار أو التراجع فيها، أو دراسة الأسباب الكامنة خلف تباين أهمية الحواضر المغربية والسودانية والطرق العابرة للصحراء (الغربية والوسطى والشرقية) في هذا التواصل من مرحلة إلى أخرى، ولكن هذه الدراسات – في الغالب – لم تبد اهتماما كبيرا بدور سكان الصحراء في هذه العلاقات تنشيطا أو تعويقا، بل اكتفت باعتبار المجال الصحراوي مجرد وعاء حامل لمختلف الأنشطة، دون أن يكون مسهما فيها إلا في فترات محدودة، غالبا ما قصرت على المرحلة الصحراوية من الدولة المرابطية، وهو ما يعد اختزالا كبيرا لدور القبائل الصحراوية، التي لا يمكن كتابة تاريخ للتواصل بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، إلا باستحضار الأدوار الهامة التي قامت بها.

ومحاولة مني لتوضيح هذا الدور، جاء اختياري لهذا الموضوع الذي عنونته بـــ:

"دور صنهاجة الصحراء في التواصل الاقتصادي والثقافي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي

(من ق2–7هـ/8–13م)"

1– دوافع الدراسة:

يعد مقال المستعرب البولوني تاديوش ليفيتسكي (Tadeusz Lewicki):

"أصول الإسلام في القبائل البربرية بالصحراء الغربية – موسى بن نصير وعبيد الله بن الحبحاب–".

"Les origines de L'Islam dans les tribus berbèrs du sahara occidental -Musa ibn Nusayr et Ubayd allah ibn Alhabhab - "

الذي درسناه ضمن النصوص الأجنبية في السنة النظرية، بمثابة نقطة الانطلاق في الاتجاه نحو اختيار العمل على صنهاجة الصحراء، وهو الموضوع الذي بدأت أشكل تصوره بالتدريج مع الدروس النظرية والمطالعات المختلفة، إلى أن اجتمعت لدي مجموعة من الدوافع حفزتني للمضي فيه، أهمها الاقتناع بالدور الكبير الذي قامت به الصحراء في تاريخ المغرب والسودان الغربي في العصر الوسيط، وهو الدور الذي يقف خلف العديد من التحولات السياسية والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية التي شهدها المنطقتين، ومن خلاله يمكننا إلقاء الضوء على العديد من نقاط الظل التي تلف بخلفيات وحيثيات التواصل بينهما، بالإضافة إلى شعوري بالأهمية الاستثنائية للمجال

الصحراوي الغربي الذي مكّن من إقامة إحدى أهم دول بلاد المغرب (دولة المرابطين)، وبالمجال السوداني الغربي الذي مثّل صورة متميزة في التفاعل التدريجي مع الإسلام على مختلف الأصعدة الثقافية والسياسية والاجتماعية.

كما أن نقص الدراسات حول تاريخ الصحراء الوسيط، يعد بذاته أحد الدوافع التي جذبتني لاختيار الموضوع، من خلال محاولة السعي لملء بعض الفراغات، والعمل على تقديم أجوبة عن بعض التساؤلات، بالاعتماد على ما توفر من المادة المصدرية و الكشوفات الأثرية، بالإضافة إلى ما تسمح به المقارنة الموضوعية والمقاربة المنهجية، وهو ما يجعل هذا البحث مساهمة متواضعة في الكتابة التاريخية حول الصحراء.

2- الدراسات الســـــابقة:

تناول بعض الباحثين هذا الموضوع ولكن من زوايا أخرى، ومثلت مؤلفاتهم المرتكز الأساسي في تبيان صورة العلاقة بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، والدور الذي أدته الصحراء و أهلها في ذلك ، فقد صدر لريمون موني (Raymond Mauny) سنة 1961 كتاب بالغ الأهمية عنونه بـــ:

لوحـــــــة جغرافية لإفريقيا الغربية في العصـــر الوسيـــط.

Tableau Gèographique de l'ouest Africain au Moyen-age.

وفي سنة 1970 أصدر جون دوفيس (Jean. Devisse) تتويجا للتنقيبات الأثرية في منطقة تغداوست:

تغداوست، بحث حـــول أودغشـــت **TEGDAOUST ,Recherches sur Aoudarost**

وكتبت صباح إبراهيم الشيخلي سنة 1984 مقالا هاما في التواصل الاقتصادي بين ضفتي الصحراء عبر المجال الصحراوي الغربي، وهو المقال الموسوم بـــ: **"النشاطات التجارية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري"**، صدر ضمن أعمال ملتقى ببغداد حول: **"تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"**، وسنة 1988 أصدرت اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا التابعة لمنظمة اليونسكو الجزء الثالث من:**تاريخ إفريقيا العام** **GENERAL HISTORY OF AFRICA** ، وكانت الطبعة الأولى لهذا العمل الضخم والهام جدا باللغة الإنجليزية، ثم صدرت له ترجمة باللغة الفرنسية سنة 1990 وباللغة العربية سنة 1997، وقد تضمن هذا الجزء مقـــالين هامين يعالجـــان قضـــايا جوهـــرية تخص هذا البحث، أولهمـــا مقـــال ليفيتسكي(T. Lewicki): **"دور الصحـــراء الكبرى وأهلها في العلاقات بين الشمال والجنوب".**

"The role of the Sahara and Saharians in relationships between north and south."

والآخر مقـــال جون دوفيس (J. Devisse):" **التجارة والطرق التجارية في غرب إفريقيا**"

"**Trade and trade route in west Africa**"

وانعقدت بطرابلس سنة، 1999 **ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطـــار الإفريقية على جــــــانبي الصحراء**، والتي تضمنت الكثير من المقـــالات المفيدة التي تقدم بعض الإضافـــات، وأقربها إلى الموضوع مقال لعز الدين عمر موسى عنوانه : " **محاولة لإعادة تقييم دور المرابطين في نشر الإسلام في البلاد السودانية**"، والذي أعاد نشره سنة 2003 ضمن كتابه: **دراسات إسلامية غرب إفريقية.**

ونشر الباحث الموريتاني الناني ولد الحسين سنة 2007كتابه: "**صحراء الملثمين دراسة لتـــاريخ موريتـــانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف ق2هـــ/8م إلى نهاية ق5هـــ/11م**"، - وهو في الأصل أطروحة دكتوراه نوقشت سنة 1999 بجامعة محمد الخامس- والذي يعد كتابا قريبا جدا من الإشكالية الجوهرية لهذه الدراسة، إلا أن إطاره الزمني يتوقف في القرن5هـ/11م، كما أن معالجته للموضوع تمت بطريقة مغايرة، إذ فصل بين علاقات صنهاجة الصحراء بالمغرب الإسلامي وعلاقاتها بالسودان الغربي، بحسب طبيعة العنوان والإشكالية الرئيسية التي يعالجها.

3- الإشكاليـــة:

الموضوع يناقش بالأساس الدور الذي قامت به صنهاجة الصحراء في الربط بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي، مع تبيان أثر التفاعلات القبلية والاقتصادية والسياسية التي شهدها المجال الصنهاجي على دور هذه المجموعة السكانية كحلقة وصل بين المنطقتين، ساهمت في النشاط الاقتصادي والتأثير الثقافي.

وبالتالي فإن الإشكالية المطروحة هي : كيف أسهمت صنهاجة الصحراء ومجالها في مختلف التفاعلات الاقتصادية والثقافية بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وكيف قادت التغيرات الطارئة على صنهاجة الصحراء إلى أنماط متعددة من الفعالية والتأثير؟ وتحت هذه الإشكالية الكبيرة تندرج مجموعة من المشكلات الجزئية يحتاج البحث إلى توضيحها من أجل الإجابة عن الإشكالية الجوهرية، وأهمها:

هل تمثل صنهاجة الصحراء قبيلة صحراوية أم مجموعة قبائل أم حلفا قبليا؟ وما هي الإمكانيات الاقتصادية المتوفرة في صحراء صنهاجة؟ وكيف أسهمت هذه الإمكانيات في تفضيل التجار للمسالك الصحراوية الغربية العابرة لمجالها على غيرها؟، وكيف انتشر الإسلام والثقافة الإسلامية بين هذه القبائل الصحراوية؟، وماهي الأوضاع الاقتصادية والثقافية لبلاد السودان الغربي أثناء الفترة المدروسة؟ وماهي أهم مسالك القوافل العابرة للمجال

الصحراوي الغربي؟ وما هو الدور الذي قامت به قبائل صنهاجة الصحراء في تيسير عبور القوافل لهذه المسالك رغم الصعوبات الكبيرة التي تكتنفها؟ وما هي أهم السلع المغربية والسودانية التي عبرتها؟ وكيف نقلت صنهاجة الصحراء ما شهدته من التحولات الثقافية من خلال علاقتها مع بلاد المغرب إلى السودان الغربي؟ وماهو الدور الذي لعبته حواضر الملثمين في الربط بين ضفتي الصحراء على المستويين الاقتصادي والثقافي؟...

4- الأهـــــــداف:

إن تحليل الإشكالية الرئيسية للبحث والمشكلات الجزئية المحيطة بها يكشف الأهداف المتوخاة من دراسة هذا الموضوع، والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

- الكشف عن الدور الذي قامت به قبائل صنهاجة الصحراء في تيسير سبل التواصل وتعزيزه بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، من خلال المساعدات التي قدمتها للقوافل المستخدمة لمختلف المسالك العابرة لمجالها.
- تبيان أهم المبادلات الاقتصادية التي تمت بين تجار بلاد المغرب والسودان الغربي من خلال المجال الصحراوي الغربي، وحواضره، وأهمية الإمكانيات الاقتصادية في مجال صنهاجة الصحراء في تنشيط المسالك الغربية.
- الكشف عن طرق انتقال المؤثرات الثقافية الإسلامية المغربية عبر صنهاجة الصحراء إلى السودان الغربي، ونقل هذه المنطقة تدريجيا من المعتقدات البدائية إلى مجال الثقافة العربية الإسلامية باعتناق الإسلام الحنيف، وهو ما انتهى إلى صبغها باللون الثقافي المغربي.
- بيان الدور المحوري الذي لعبته حواضر صنهاجة الصحراء في دمج المجتمعين السوداني والمغربي، وما تمخض عنه ذلك من تشابك المصالح الاقتصادية، والإسهام في ترسيخ الثقافة الإسلامية بالسودان الغربي.
- تقديم إضافة جديدة في سياق الدراسات الإفريقية، تخرج عن الطابع التعميمي إلى البحث المتخصص، الذي يمكنه رسم صورة واضحة للتفاعلات الاقتصادية والثقافية، وتعمل على توظيف المادة المصدرية في إطارها الزمني، بعيدا عن نقل صورة القرن 9و10هـ/15و16م إلى مراحـــل تعد بدايات تشكل التحولات خـــاصة على المستوى الثقـــافي.

5- منهـــــــج الدراسة:

تحتاج دراسة هذا الموضوع إلى توظيف عدة مناهج تفرض نفسها من أجل معالجة عمق الإشكالية التي تدور حولها الدراسة، وتتمثل في **المنهج التاريخي** الذي يسمح بتصوير الحدث بما يمكّن من ملاحظة التداخل بين مختلف المؤثرات التي أسفرت عنه، ويحتم احترام السياقات الزمنية في توظيف المادة المقدّمة، وترتيبها من الأقدم إلى

الأحدث لفهم مختلف التحولات الطارئة، و **المنهج الاستقرائي** الذي يمكن من استقصاء المادة المعرفية المتوفرة من أجل تفكيكها واستخراج المعلومات الهامة في المعالجة منها، ثم العمل على إعادة تركيب المعطيات المحصلة، بما يتيح إعادة بناء المعلومات بما يتناسب مع الخطة المتبعة في الدراسة للإجابة على الإشكالية المطروحة، و **المنهج التحليلي** الذي يعمل على استخدام آلة العقل في التعاطي مع المادة الخبرية، وفهم خلفياتها وأبعادها والعوامل المسهمة في تبلورها على الشكل الذي قدمته به المصادر، إضافة إلى **المنهج النقدي** الذي يسلط أحيانا على المادة الخبرية ذاتها، وأحيانا أخرى على بعض القراءات المنجزة حولها.

6- الصعـــــوبات:

تعد الصعوبات أحد محفزات البحث العلمي الجاد، إذ أن الدراسة التكرارية لا تضيف جديدا لحقل المعرفة الإنسانية، وقد اصطدم إنجاز هذا العمل بشح المادة المصدرية، التي تعد كتب الجغرافيا والرحلات مصدرها الأساسي، بالإضافة إلى عدم وجود توازن في هذه المادة بين فترة تاريخية وأخرى، إذ اختص القرن 5هـ/11م بمعظمها، بينما كانت المادة المقدمة عن القرنين 2-3 هـ/8-9م في أغلبها من مصادر متأخرة، ومادة القرن 4هـ/10م شحيحة لا تتجاوز إشارات بعض الكتاب مثل المهلبي وابن حوقل، وأما بعد القرن 5هـ/11م فإن إشكالية التكرار في كتابات الجغرافيين تفرض نفسها بإلحاح، فإذا كان الإدريسي والزهري وابن سعيد المغربي قد زودوني ببعض المعلومات الأصيلة، فإن الزمان غالبا ما يغيب عن المادة الخبرية لغيرهم، حيث يكتفي المتأخرون بنقل نفس المعارف السابقة، رغم الحجم الكبير من التحولات التي شهدها المجال الجغرافي المدروس، سواء ببلاد المغرب أو الجزء الغربي من الصحراء الكبرى أو السودان الغربي، الأمر الذي نلحظه بجلاء مثلا عند صاحب الاستبصار الذي نقل أغلب مادته عن البكري، وهو ما حتم عليّ التعاطي بحذر مع المصادر المتأخرة عن الفترة المدروسة، وعدم توظيف ما أدركت تطابقه مع النصوص السابقة إلا كسند للمصادر المتقدمة الأصيلة.

كما أن اختصاص الدراسة بالمجال الغربي حيث موطن صنهاجة الصحراء يطرح إشكالية المكان كذلك، إذ تتحدث المادة المصدرية أحيانا عن التواصل بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، ومسير التجار والعلماء إلى الممالك والمدن السودانية، دون تحديد الطرق المسلوكة، والمجال الذي تم العبور من خلاله، والمدينة أو المملكة السودانية التي تم السفر إليها، وتقدم الصحراء في بعضها كمجال واحد، وهو ما حتم عليّ الحذر الشديد في توظيفها، لأن المجالين الأوسط والشرقي من الصحراء كانا فاعلين أيضا في هذه العلاقات، وإذا كانت الريادة

للمجال الغربي في أغلب مراحل الفترة المدروسة، فهذا لا يسمح باستخدام جميع النصوص دون طرح احتمال تعلقها بالمجالين الآخرين.

7- المصادر والمراجع:عرض وتحليل.

أ- المصادر:

لقد بذلت جهدي في محاولة استثمار ما حصّلته من المصادر، وتعتبر كتب الجغرافيا والرحلات أهمها، إذ أمدتني بأغلب المادة المعرفية التي عالجت من خلالها القضايا الجوهرية من البحث، أما المصادر الأخرى فلم تعر المجال الصحراوي ما يستحقه من الاهتمام، ولم تقدم سوى إشارات مقتضبة، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى أهم المصادر بحسب نوعها، وكذا ترتيبها الزمني، مع التنبيه إلى ما قدمته من فائدة للموضوع.

1- كتب الجغرافيا والرحلات:

أمدني **كتاب البلدان** لليعقوبي (ت: 284هـ/897م) بأقدم معلومة تاريخية عن أودغشت - غسط عنده - حاضرة صنهاجة الصحراء،كما ورد فيه الحديث عن الطريق الغربي الرابط بينها وبين سجلماسة، بما يدل على قدم العلاقات الاقتصادية بين المدينتين، أما **صورة الأرض** لابن حوقل(ت: 367هـ/977م) فقد قدم للموضوع مادة هامة عن سجلماسة وأودغشت بما يبرز ازدهار الطريق الغربي العابر لمجالات صنهاجة الصحراء في القرن 4هـ/10م، وانفرد بالإشارة إلى استعمال الصكوك في التجارة الصحراوية، كما اهتم بقبائل صنهاجة الصحراء وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ومواطن بعضها، خاصة قبيلة مسوفة التي بين دورها في تسيير القوافل، بينما أفادني كتاب **المسالك والممالك أو الكتاب العزيزي** للمهلبي(ت: 380هـ/990م) بمعطيات بالغة الأهمية عن الأنشطة الاقتصادية بأودغشت، ورسم لأهلها صورة تبرز التزامهم بالإسلام، ووجود المساجد والنشاط التعليمي بها، وأعطى بعض المعلومات عن مدن بلاد السودان والوضع الاقتصادي والديني فيها، ويعد كتاب **المسالك والممالك** للبكري (ت: 487هـ/1094م) العمود الفقري لهذه الدراسة، حيث وجدت فيه الكثير من المعطيات المتعلقة بقبائل صنهاجة الصحراء ومواطنها وأوضاعها الاقتصادية والثقافية، ومختلف مسالك الطريق الغربي والصعوبات التي تكتنفها، والدور الذي تؤديه صنهاجة الصحراء في تسيير القوافل وتوفير الماء لها، ودور مدينة أودغشت في تجارتي الذهب والرقيق، وتضمن معلومات عن الأوضاع الاقتصادية والدينية بالسودان الغربي، وعلاقات ممالكه ومدنه مع صنهاجة الصحراء، كما قدم إشارات هامة عن التحولات الثقافية، ويأتي بعد كتاب البكري في الأهمية **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** للإدريسي (ت: 560هـ/1164م)، وقد أفادني في ملاحظة

مختلف التحولات التي حدثت في القرن 6هـ/12م، سواء تعلق الأمر بالمسالك الغربية، وتراجع أهمية أودغشت لصالح أزكي، وما ترتب عن ذلك من تحول في بعض الطرق، وفقدان سجلماسة لريادتها كمحطة انطلاق لصالح مدن السوس الأقصى، كما قدم معلومات جد هامة عن انتشار الإسلام بالسودان الغربي وتبني مملكة غانه له، بالإضافة إلى اهتمامه بمختلف السلع التي كانت تعبر مجال صنهاجة الصحراء، مع اهتمام خاص بتجارة الذهب، أما ابن سعيد المغربي(ت: 685هـ/ 1286م)صاحب **كتاب الجغرافيا،** والذي نقل معلوماته عن بلاد السودان من مصدر ضائع لابن فاطمة أحد رحالة القرن 6هـ/12م، فقد أمدني بمعلومات هامة حول التحولات التي مست مجالات قبائل صنهاجة الصحراء، ووصفا لمسالك المجال الغربي بما يبرز التحولات التي طرأت عليها بسبب حلول حاضرة آزكي مكان أودغشت ، كما اهتم بالصعوبات التي تكتنف هذه المسالك، إضافة إلى السلع المتبادلة.

2- كتب التاريخ العام :

قدم لي كتاب **فتوح مصر وأخبارها** لابن عبد الحكم (ت: 257هـ/870م) معلومات هامة عن الحملات الإسلامية الأولى التي وصلت إلى مجالات صنهاجة الصحراء، سواء حملة عقبة بن نافع أو موسى بن نصير أو عبيد الله بن الحبحاب، بما يفتح المجال أمام تفسير انتشار الإسلام لدى قبائل صنهاجة الصحراء، أما كتاب **أخبار الزمان** للمسعودي (ت:345هـ/956م)، فتضمن معلومات هامة عن المعتقدات السودانية الوثنية، كما يعد أول مصدر عربي بلغنا أشار إلى أسلوب التجارة الصامتة ببلاد السودان، وأمدني **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** لابن عذاري المراكشي (ت:بعد712هـ/1312م) بمعطيات عن الوضع الثقافي بصحراء صنهاجة قبل دعوة عبد الله بن ياسين وبعدها، وزودني **كتاب العبر** لابن خلدون (ت808هـ/1405م) بمعلومات مهمة عن مجال صنهاجة الصحراء ووضعها بعد سقوط دولة المرابطين، وعلاقات قبائلها مع ممالك السودان الغربي، أما ابن أبي زرع (ت: 726هـ/1325م) صاحب **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار بلاد المغرب وتاريخ مدينة فاس،** فوجدت به إشارات عن الوضع الديني في صحراء صنهاجة قبل وبعد قيام دولة المرابطين، وجهاد الملثمين بالسودان الغربي.

3 – المصادر التاريخية السودانية:

من هذه المصنفات **تاريخ الفتـــاش** لمحمود كعت (ت: 1002هـ/1593م) الذي أفاد البحث بتدوينه لبعض الروايات الشفوية تدل على الحضور القديم لقبائل صنهاجة الصحراء في مجال السودان الغربي، أما **تاريخ السودان** للسعدي (ت:بعد 1066هـ/1655م) فأهم ما استفدت منه حديثه عن تأسيس مسوفة لتنبكت

ودورها في النشاط الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وتحولها التدريجي إلى أحد أهم الحواضر الفاعلة في النشاط الثقافي بالسودان الغربي، إضافة إلى إشارات عن مدينة ولاتة.

4- كتب التراجم والطبقات :

والتي قدمت لي شذرات مقتضبة حول الموضوع، مثل **رياض النفوس** للمالكي (ت:438هـ/1046) الذي أفادني حول أخطار عبور الصحراء، و **الذخيرة** لابن بسام (ت: 542هـ/1147م) الذي قدم ترجمة وافية عن الإمام الحضرمي، أما **طبقات المشائخ** للدرجيني فقد عثرت فيه على الرواية الإباضية لإسلام ملك ملل، ووجدت في **كتاب السير** للشماخي (ت: 928هـ/1522م) معطيات عن حجم تجارة الذهب عبر المسالك الغربية.

5- كتب النوازل :

حيث أفادني **كتاب المعيار المعرب** للونشريسي (ت: 914هـ/1508م) إفادة هامة جدا حول تجارة الملح الذي توجد سباخه في مجال صنهاجة الصحراء، كمـــا وجدت في **جامع مسائل الأحكام** للبرزلي (ت:841هـ/1437م) معطيات متعلقة بقطع طرق القوافل العابرة للصحراء.

6- الموسوعات :

حيث أفادني **نهاية الأرب في فنون الأدب** للنويري(ت:732هـ/1331م) في الإطلاع على رواية ابن شداد الصنهاجي(ت:بعد600هـ/1203م) لتاريخ المرابطين، والتي قدمت معلومات هامة عن الوضع الثقافي بصحراء صنهاجة، وكانت هذه الإضافات أحيانا بالغة الأهمية من أجل فسح المجال أمام بعض التخمينات والمقاربات، حول دور صنهاجة الصحراء في التواصل الثقافي بين ضفتي الصحراء.

وأشير هنا إلى أن المعلومـــات التي وفرتها المصـــادر الســـابقة وغيرهـــا، لم تأت في إطـــار اهتمامهـــا بدور صنهـــاجة الصحراء في التواصل الاقتصادي والثقـــافي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، بل إنهـــا وردت - غالبا- عرضا، ولذلك احتاج تنسيقهـــا وإعـــادة بناء مـــادة جديدة منهـــا إلى الكثير من المقـــارنات والمقـــاربات والتخمينات.

ب- المراجـــع:

تكمن أهمية المراجع في استناد بعضها إلى مخطوطات ومصادر ودراسات لم أستطع تحصيلهـــا، وارتكاز بعضها الآخر على نتائج التنقيب الأثري في حواضر صنهاجة الصحراء مثل أودغشت وتيشيت، كما أن اختلاف المناهج المعتمدة بين الدارسين يؤدي إلى لتعدد النتائج المتوصل إليها، وكل ذلك يفتح آفاقا جديدة للكتابة حول الموضوع.

1–المراجع العربية:

أمدني كتاب حماه الله ولد السالم: **تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية** .بمعلومات هامة عن مجالات قبائل الملثمين ، وعن تأسيس الحواضر الصنهاجية، أما كتاب الخليل النحوي: **بلاد شنقيط المنارة والرباط** فقد أفادني حول دور هذه الحواضر في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بالسودان الغربي، واستعنت بكتابي الهادي المبروك الدالي: **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء،** وعبد القادر زبادية: **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية** في أنواع السلع العابرة لصحراء الملثمين، وأفادني كتاب **الإسلام والمجتمع السوداني** لأحمد الشكري في التعرف على الوضع الطبيعي للسودان الغربي ومعوقات انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية به، أما كتاب **صحراء الملثمين** للناني ولد الحسين فقد استفدت منه في الكثير من قضايا التواصل الاقتصادي ، أما في الفصل المتعلق بدور صنهاجة الصحراء في التواصل الثقافي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، فقد أفادني في قضية المثاقفة بين القبائل الصنهاجية والسودانية، ودور الجهاد في التأثير الثقافي وتحول سكان السودان الغربي إلى الإسلام.

2– المراجع الأجنبية: وهي على ضربين:

أ–مراجع أجنبية معربة: وأهمها كتاب هوبكنز (A.G.Hopkins): **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية** **An Economie History of weste Africa** الذي زودني بمعلومات جد هامة عن الأنشطة الاقتصادية في السودان الغربي، وعن أهمية تجارة الملح والودع، كما استفدت من مناقشته لإشكالية حجم تجارة الرقيق، ومدى مصداقية الروايات المتعلقة بالتجارة الصامتة، أما كتاب مادهو بانيكار (Madhu Panikar): الذي ترجم تحت عنوان: **الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقيا،** وعنوانه الأصلي:

THE SERPENT AND THE CERSCENT A Histiry of the Negro Empires Western Africa.

فقد أفدت منه في تجارة الرقيق ، ومحاولة تفسير أسباب اللجوء للتجارة الصامتة ، كما وجدت به معطيات هامة عن الوضع الديني بالسودان الغربي، ومدى إسهام التجارة في التحولات الثقافية بالمنطقة.

ب– المراجع الأجنبية غير المعربة: وأهمها كتابي جوزيف كيوك(J. Cuoq):

– مجموعة المصادر العربية الخاصة بإفريقيا الغربية من ق8إلى ق16(بلاد السودان) ترجمة وتعليق.

Recueil des sources árabes concernant L'Afrique occidentale du VIII au XVI siecle (Bilad Al Sudán) Traduction et notes.

– تاريخ إنتشار الإسلام في إفريقيا الغربية من الأصول إلى نهاية ق16.

Histoire de L'islamisation de L'Afrique de L'ouest des origins á la Fin du XVIe Siécle.

حيث استفدت من الأول في التعاطي الواعي مع المادة الخبرية، والانتباه إلى المادة الأصلية من المنقولة، وبالتالي حسن ترتيب المعلومات وفق سلم زمني ينتقل من الأقدم إلى الأحدث، ومن الثاني في التعريف بقبائل صنهـــــاجة الصحراء ومجالاتها، وإسهاماتها في تحول السودانيين نحو الإسلام، وإبراز دور التجارة والجوار الجغرافي في ذلك.

3- الرسائل الجامعية:

أهم رسالة جامعية استفدت منها هي رسالة الدكتوراه للباحثة لطيفة بشاري: **الرق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين** (ق: **1-4هـ/7-10م**) حيث أمدتني بمعلومات هامة عن أخطار التجارة العابرة للصحراء، ودور قبائل صنهاجة الصحراء في تسهيل عبورها، إضافة إلى بعض القضايا المتعلقة بتجارة الرقيق.

4- الدوريات:

لقد أفدت من مقال صباح إبراهيم الشيخلي: "**النشاطات التجارية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري**"، في بيان الطرق العابرة للمجـــال الصحراوي الغربي، ودور الملثمين في تسيير القوافـــل، وأهم السلع التي حملها التجار من الشمال والجنوب، أما مقال محمد أمين سماعيلي:" **عبد الله بن ياسين ومعالم الوحدة الثقافية المغاربية الإفريقية**"، فقد أفاد في بيان الدور الثقافي لرباط عبد الله بن ياسين ببلاد السودان.

ومن أهم المقالات الأجنبية، مقال جون دوفيس(J.Devisse):

" التجـــارة والطرق التجـــارية في إفريقيـــا الغربية"

"Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale "

الذي قدم لي الكثير من المعلومات الأثرية عن سلع التبادل عبر أودغشت حاضرة صنهاجة الصحراء، كما ناقش الكثير من الإشكاليات حول تجـــارة الذهب وكمياتهـــا وعلاقتهـــا بسك العملة في المغرب الإسلامي، أمـــا مقـــال تاديوش ليفتسكي (T. Lewicki):

"أصول الإسلام في القبـــائل البربرية بالصحراء الغربية – موسى بن نصير وعبيد الله بن الحبحاب-".

"Les origines de L'Islam dans les tribus berbèrs du sahara occidental -Musa ibn Nusayr et Ubayd allah ibn Alhabhab -"

فقد أفادني حول انتشار الإسلام بين قبائل صنهاجة الصحراء ، ودور النشاط التجاري في ذلك ، ونفس المعلومات والقضايا المناقشة أوردها في مقاله الآخر:

"دور الصحـــراء الكبرى وأهلها في العلاقات بين الشمال والجنوب".

"Le role du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud

والذي خصص معظمه للحديث عن الطريقين الشرقي والأوسط، حيث الجماعات الإباضية، ولم يفرد لصنهاجة الصحراء ومجالها الغربي، سوى مساحة قليلة، كرر فيها ما ذكره في المقال السابق.

وأما مقال ديارك لانج (D.Lange): **" ملوك جــــاو– ســــاني والمرابطون"**

Les Roi De Gao-Sane et les Almoravide

فقد زودني بمعلومـــات جد هامة تتعلق بالأدلة الأثرية على الأثر الثقافي للعلاقات بين المرابطين ومملكة كوكو.

8- خطة الدراسة:

إن المادة الخبرية وطبيعة الدراسة وأهدافها وتوجيهات الأستاذ المشرف، قد جعلت خطة الدراسة مشكلة من مقدمة وثلاث فصول وخاتمة، ويضم كل فصل مجموعة من العناصر الرئيسية والفرعية، وذلك من أجل الإجابة على الإشكالية الرئيسية للدراسة وتوضيح المشكلات الجزئية المحيطة بها.

تناولت في **الفصل الأول** الأوضاع الاقتصادية والثقافية في صحراء الملثمين وبلاد المغرب والسودان الغربي في الفترة المدروسة، وذلك من أجل تبيان القاعدة الجغرافية والبشرية والاقتصادية والثقافية التي تقوم عليها هذه الدراسة، وقسمته إلى سبعة عناصر، حيث تناولت في **العنصر الأول** التعريف بصنهاجة الصحراء والقبائل المشكلة لها،محددا مجالاتها والتحولات الطارئة على هذه المجالات، ثم أبرزت في **العنصر الثاني** الإمكانيات والأنشطة الاقتصادية في مجالات صنهاجة الصحراء، وفي **الثالث** تناولت انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية بين قبائل صنهاجة الصحراء، وقدمت في **الرابع** لمحة مختصرة عن الوضع الاقتصادي والثقافي بالمغرب الإسلامي، أما **العنصر الخامس** فخصصته للسودان الغربي مجالا وسكانا، وتطرقت في **السادس** للإمكانيات والأنشطة الاقتصادية في السودان الغربي، و**السابع** للوضع الديني ببلاد السودان قبل انتشار الإسلام.

أما **الفصل الثاني** فقد أفردته لدور صنهاجة الصحراء في التواصل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وقسمته أيضا إلى ستة عناصر، خصصت **أولها** لتبيان المسالك التجارية العابرة لمجالات صنهاجة الصحراء، والتي تربط بين حواضر المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وأفردت **العنصر الثاني** لصعوبات هذه المسالك ودور قبائل الملثمين في تيسير حركة القوافل، أما **العنصر الثالث** فخصصته لأنواع السلع المنقولة من بلاد المغرب إلى السودان الغربي عبر مجال صنهاجة الصحراء، وفي **الرابع** أنواع السلع المنقولة من السودان الغربي إلى بلاد المغرب عبر نفس المجال، وبينت في **العنصر الخامس** وسائل التبادل في هذا النشاط التجاري العابر للصحراء، و في **العنصر الأخير** أبرزت دور حاضرتي أودغشت وأزكي في النشاط التجاري، كمركز للتبادل ومعبر للراحة.

واختص **الفصل الثالث** ببيان دور صنهاجة الصحراء في التواصل الثقافي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وقسمته إلى أربعة عناصر، تناولت في **أولها** الأثر الثقافي للنشاط التجاري، أما **العنصر الثاني** فبينت فيه دور

الملثمين الثقافي في السودان الغربي قبل قيام دولة المرابطين، أما **الثالث** فأبرزت فيه دور المرابطين في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بالسودان الغربي، وخصصت العنصر **الرابع** للدور الثقافي الذي قامت به بعض حواضر صنهاجة الصحراء، والتي رسخت الثقافة الإسلامية المغربية في السودان الغربي.

وختمت العمل **بخاتمة** ضمنتها ما توصلت إليه من نتائج، واقتراح آفاق جديدة حول الموضوع، كما زودت الدراسة بمجموعة من **الملاحق** ، تمثلت في خرائط توضيحية وصور ذات صلة بالقضايا المثارة في البحث، ووضعت **فهارس** تسمح بتيسير البحث في المذكرة، تتعلق بالأعلام ، والأماكن والبلدان، والشعوب والقبائل.

وفي الأخير أتقدم بخالص **الشكر** للأستاذ المشرف:أ.د إسماعيل سامعي، الذي يرجع إليه الفضل في إرشادي للهيكل العام للخطة بعد طول تردد حولها، كما أشكره على كل جملة صححها، وملاحظة أبداها، وعلى حزمه وجديته ودقة توجيهاته، وعلى الثقة التي أولاني بهـــا في مرحلة التحرير، كما أشكر كل الأساتذة الذين زودوني بالكتب والمقالات التي أفادت في تنويع مراجع البحث، والذين قدموا لي نصائحا حول منهجية العمل، وأخص بالذكر: أ.د علاوة عمـــارة، أ.د. إبراهيم بحاز، د.يوسف عـــابد، أ.د.محمد فرقاني، د.محمد العربي عقون، أ.د عبد الله عيسى لحيلـــح ، د.يوسف عيبش ، أ. يسمينة زمولي، أ.محمد بوعبد الله، أ. كمـــال صادقي، أ.كريم بوترعة، أ. محمود بوخلخال ، كما أخص بالامتنان الزميلين الصديقين: يوسف بوقريقة وعلاء الدين يحياوي الذين استفدت كثيرا من كتبهما ودعمهما، والشكر موصول لعمال المكتبة الوطنية، ومكتبة جامعة الأمير عبد القادر، ومكتبة جامعة منتوري المركزية، ومكتبة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بنفس الجامعة، ومكتبة جامعة الجزائر، والمكتبة البلدية بجيجل، والمكتبة البلدية بالطاهير، والمركز الثقافي لبلدية الشقفة، وآمل أن يكون هذا العمل المتواضع نافعا للمكتبة التاريخية، ومسهما في غرس بذرة الدراسات الإفريقية ببلادنا، والحمد لله أولا وآخرا، وصل اللهم وسلم على محمد وآله وصحبه.

الفصـــل الأول

الأوضاع الاقتصادية والثقافية في صحراء الملثمين وبلاد المغرب والسودان الغربي من ق:2-7هـ/8-13م.

1- صنهـاجة الصحـراء:الفروع والمجال.

2- الإمكانيات والأنشطة الاقتصادية في مجالات صنهاجة الصحراء.

3- الإسـلام والثقـافة الإسـلامية عند صنهاجة الصحراء.

4- الأوضاع الاقتصادية والثقـافية في المغرب الإسـلامي.

5- السـودان الغربي :المجـال و السكـان.

6- الإمكانيات والأنشطة الاقتصادية في السودان الغربي.

7- الدين والطقوس الدينية في السودان الغربي قبل اعتنـاق الإسلام.

1- صنهاجة الصحراء: الفروع والمجال.

أ -صنهاجة الصحراء: المجموعة السكانية والإتحاد القبلي.

ناقش الباحثون الكثير من الإشكاليات المرتبطة بصنهاجة الصحراء، تتعلق بأصولها وموطنها القديم، وتاريخ نزوحها إلى الصحراء الكبرى وسيطرتها على تلك المجالات الواسعة، وليس من أولويات هذه الدراسة ذات الصبغة الاقتصادية والثقافية التوسع في هذه القضايا، ولكن ذلك لا يعفينا من الإلمام ببعض المسائل، التي تبدو لي ضرورية من أجل التعرف على هذه المجموعة السكانية التي أقوم بدراسة دورها في التواصل بين ضفتي الصحراء.

ليست صنهاجة مجرد قبيلة [1]، بل هي حلف عظيم تعددت قبائله وافترشت فروعه جهات كثيرة من بلاد المغرب[2]، فقد وجد الكثير من هذه الفروع في الشمال، ومن وجد منها بالصحراء كان يدعى صنهاجة الصحراء أو الملثمون[3]، الذين تمكنوا من تأسيس أحد أهم الأحلاف في العصر الوسيط، أطلقت عليه بعض المصار المتقدمة إسم:"أنبية"[4]، ولكن هذا التحالف كان يتعرض أحيانا للتفكك، ليعود للالتئام وفق معطيات جديدة، حيث كانت فروعه تشكل وضعا متغيرا باستمرار، بسبب التحولات التي تطرأ عليها، والمصالح التي تود الوصول إليها.

ولا شك أن تشكّل الأحلاف لم يكن ليتمّ لولا توفر جملة من الشروط أهمها:

- وجود القبائل في مجال متصل، مرتبطة بأصل مشترك، سواء كان حقيقيا أو وهميا، وبلغة مشتركة.

- توسع الإتحاد انطلاقا من القبيلة النواة، وهي الأقوى والأكثر عددا، ويتم هذا التوسع عن طريق الانتماء الطوعي أو الضم الجبري للقبائل الضعيفة.

---

[1]- عن مفهوم القبيلة ببلاد المغرب يمكن العودة إلى:ابن خلدون، المقدمة،تح:خالد العطار، بيروت، دار الفكر،2003،ص:134-135.جاك بيرك،"في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا"، الأنتروبولوجيا والتاريخ:حالة المغرب العربي، تر:عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، ط 2، الدار البيضاء، دار توبقال، 2007، ص:114-125، عبد الوهاب ولد محفوظ،"القبيلة في موريتانيا بين التأصيل التاريخي و التحليل السوسيولوجي"، إضافات المجلة العربية لعلم الإجتماع،14(2011)،ص:125-150، محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،2002، ص:51-64. محمد العربي عقون، الاقتصاد و المجتمع في الشمال الإفريقي القديم ، عين مليلة، دار الهدى، 2008،ص:168-169.

[2]- موسى لقبال ، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،1979 ، ص:87.

[3]- عن التزام صنهاجة الصحراء للثام و أسبابه أعطيت عدة تفاسير في المصادر التاريخية، حيث رده بعضهم إلى اعتبارهم الفم سوءة ، كما ربط بإحدى الوقائع التاريخية التي دافعت فيها نساء القبيلة عن ديارها في غياب الرجال، أو لأجل الحر و البرد ، ويبدو أن هذا الأخير هو الأرجح ، و ربما بتقادم الزمن ألحقت بالسبب الحقيقي هذه التصورات حتى طغت عليه،أنظر حول الموضوع: ابن حوقل ، صورة الأرض، بيروت ، دار مكتبة الحياة، 1996، ص:76. البكري ، المسالك و الممالك ، تح : جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية،2003 ،ج2،ص:179. الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر و البحر، نشر: M.A.F.Mehern ،ليبزج،1923،ص:493.

[4]- أنظر مثالا عن ذلك كلا من : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر و أخبارها، تح: محمد الحجيري، بيروت ، دار الفكر، 1996، ص:335. ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان،ليدن ،مطبعة بريل، 1884، ص:64. اليعقوبي ، كتاب البلدان، ليدن ،مطبعة بريل، 1860 ، ص: 151. المسعودي ، مروج الذهب و معادن الجوهر، تح:محيي الدين عبد الحميد، ط5، بيروت، دار الفكر، 1973،ج2، ص:234. ولا نملك المعنى اللغوي لهذا المصطلح ، وإن كان حماه الله ولد السالم ربط بينه وبين مصطلح "الأنباط" معتبرا النطق الصحيح للفظ هو: "أنبيتا"، أنظر: حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة،2007 ،ص:32.

– قيام الإتحاد بمهمة الدفاع المشترك عن المصالح الاقتصادية، والسعي الدائم لتوسيع مجاله والتطلع للسيادة على كل من لا ينتمي إليه[1].

وهذا الإتحاد هو ما يطلق عليه بعض الباحثين مصطلح الكونفدرالية أوالصف [2]، في محاولة لإيجاد رابطة بين الاتحادات القبلية الكبرى في العصر الوسيط، والصفوف النوميدية والمورية في التاريخ القديم، وقـد اعتبرت هذه الصفوف أحد أهم عوامل التضامن والتصدي الذي قام به سكان الشمال الإفريقي في مواجهة الاستعمار الروماني و الوندالي والبيزنطي، كما أنه أسهم في منع تفتت التركيبات القبلية وتشرذمها، ومن ثم فنائها جراء الصراعات التي كان يغذيها الأعداء لحفظ مصالحهم واستمرار مشاريعهم.[3]

لقد تعددت قبائل صنهاجة، حتى قال عنهم ابن سعيد: "هم أكثر قبائل المغرب ، و في كل أرض منهم خلق"[4]، وذكر ابن خلدون عن مؤرخي البربر أنها تنتهي إلى سبعين بطن[5] أو قبيلة[6]، يوجد بعضهـا في الصحراء، الصحراء، ومن أهم القبائل الصحراوية: لمتونة وجـدالة ومسوفة، بالإضافة إلى قبائل أخرى أقل أهمية منهـا مثل: لمطة وجـزولة وتارجـا ومداسة وبنونيستر وبنو وارث وسرطة وشرطة وإملوانة وبغامة وغيرهم[7].

وإذا اعتبرنا صنهاجة الصحراء اتحادا قبليا في بعض مراحل تاريخها ، فإنها تمثل بالأساس مجموعة سكانية متميزة تجمع بين فروعها مقومات المجـال والمصالح الاقتصادية والتحالف ضد غيرهم، وتشـابه نمط المعيشة والأعراف والتقاليد الاجتماعية.

---

[1]– محمد بن حسن ، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس ، دار الرياح الأربع للنشر، 1986 ،ص:15-16.

[2]– يقصد بالصف عند الباحثين في التاريخ القديم اصطفاف مجموعة من القبائل في مقابل مجموعة أخرى، وهو بذلك يعبر في أصله عن ظاهرة الانقسام والصراع الداخلي، أنظر: محمد العربي عقون:المرجع السابق،ص: 169. ولكنه تحول في مواجهة الاستعمار القديم – روماني ووندالي وبيزنطي- إلى ظاهرة إيجابية عندما عبر عن الوحدة الإقليمية ضد الغزاة، وتوحيد الجهود في مقاومتهم.

[3]– أندري برنيان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر،تر:اسطنبولي رابح ومنصف عاشور،الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية،1984، ص:62-63. وانظر قريبا من هذا الرأي: يوسف عيبش، الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب دراسة للأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية، الجزائر/الأردن، دار بهاء الدين / عالم الكتاب الحديث، 2009،ص:233،296. حيث ناقش إشكالية عدم استمرار نفس الأسماء الخاصة بالمجموعات السكانية الكبرى أو الكنفدراليات القديمة، وتسائل عن إمكانية حدوث تحول اجتماعي كبير في الفترة الانتقالية بين العهدين البيزنطي والإسلامي دون أن ترصده لنا المصادر.

[4]– ابن سعيد ،كتاب الجغرافيا ، تح:إسماعيل العربي ، بيروت ، منشورات المكتب التجاري ،1970، ص:124.

[5]– ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون،تح:خليل شحادة ،بيروت ،دار الفكر،2001،ج6، ص:202.

[6]– ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، الرباط، دار المنصور، 1972،ص:27. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن بعض هذه القبائل قد اختلف المؤرخون حول عدّها من صنهاجة الصحراء أو من خارج هذه المجموعة، خاصة لمطة و جزولة، كما أن بعضها الآخر كان يتوزع على المجالين الشمالي والصحراوي مثل مداسة و جزولة ، أما التقسيم الذي اعتمده البيذق في العهد الموحدي لقبائل صنهاجة، فهو يبرز حدوث تحولات في أسماء القبائل، قد تكون عبارة عن تحول بطون وأفخاذ وعشائر إلى قبائل، مع التنبيه إلى أن تداخلا كبيرا قد حدث بين صنهاجة الصحراء وصنهاجة الشمال،أنظر : أبو بكر الصنهاجي (البيذق)، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب ، تح:عبد الوهاب بن منصور، الرباط ، دار المنصور،1971 ، ص:53-55.

[7]– ابن حوقل ، المصدر السابق، ص: 81-82. ابن سعيد المغربي، المصدر السابق ، ص: 124. ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 6، ص: 201-202. النويري، نهـاية الأرب في فنون الأدب ،تح:عبد المجيد ترجيني،بيروت ،دار لكتب العلمية،دت،ج24، ص:141.

ب ــ قبائل صنهاجة الصحراء ومجالاتها.

قبل الحديث عن مناطق هذه القبائل، تجدر بنا الإشارة إلى أن مجال صنهاجة الصحراء الكبير هو الصحراء مابين بلاد المغرب شمـــالا وبلاد السودان جنوبا ، ومن البحر المحيط غربا إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة شرقـــا[1]، ولكن المؤرخين والجغرافيين غالبا ما يستعملون اللفظ للدلالة على مناطق الحلف القبلي الذي كان مختصا بالصحاري الغربية ، حيث مضارب القبائل الكبرى لمتونة ومسوفة وجدالة إضافة إلى قبائل أخرى صغيرة[2].

وتوجد صعوبة في تحديد المجال الجغرافي الدقيق لكل قبيلة على امتداد الفترة المدروسة، إذ أنها كانت في حراك دائم، مرتبط بالتحولات السياسية والمصالح الاقتصادية والنزاعات على الأرض والمراعي، وبالتالي فإن المجالات التي تقدم هنا لا بد أن يستحضر فيها الإطار الزمني للتدوين التاريخي من جهة، ومدى أصالة المادة الخبرية من جهة أخرى، إذ أن المصادر غالبا ما تنقل عن بعضها دون الإشارة إلى ذلك، وهو من أهم أسباب الغلط في الكتابات التاريخية المتعلقة بموضوع العلاقات بين ضفتي الصحراء[3].

لمتونة: وهي أهم قبائل صنهاجة الصحراء، و كان ملك الحلف فيهم، يرى دولافوس(M. Delafosse)أن مجالهم الأصلي هو منطقة أودغشت وأقاليم تاجنت الموريتانية، ومنه توسعوا بعد ذلك[4]، وفي القرن 1هـ/7م كانوا كانوا يشغلون المجال بين السوس الأقصى وجبل آدرار[5]، وقد قدر البكري مجالهم بمسيرة شهرين في شهرين، تمتد من نول وشرق السوس الأقصى شمالا [6]، لتشمل الصحراء الواقعة بين سجلماسة ومدينتي سلى وتكرور [7]، ولا ريب أن هذا المجال لم يكن ثابتا طوال الفترة المدروسة، فقد كانت لمتونة قبل قيام دعوة المرابطين تقترب من النطاق الجنوبي المحاذي للسودان أكثر، قبل أن ينتقلوا في عهد الفتوحات المرابطية إلى جبل آدرار الذي صار يعرف بجبل لمتونة[8].

وتبرز أهمية هذا المجال في اختراق الكثير من طرق القوافل له، ما جعل اللمتونيين يساهمون في هذا النشاط الاقتصادي، كما أن أودغشت حاضرة صنهاجة الصحراء كانت ضمن نفوذ اللمتونيين، وهي المدينة التي مثلت

---

[1]- ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6، ص: 240-241.

[2]- الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م،بيروت،دار المدار الإسلامي،2007،ص:84-85. وهو يشير إلى عدم معرفة المؤرخين بتاريخ صنهاجة الصحراء الوسطى والشرقية.

[3]- عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، ط2، الدار البيضاء ، المركز الثقافي المغربي ، 2009، ص:208-209.

[4] - Maurice Delafosse, Les noire De L'Afrique, paris, payot, 1941,p :46.

[5] - Joseph Cuoq, Histoire de L'islamisation de L'Afrique de L'ouest des origines á la Fin du XVle Siécle , Paris, Librairie orientaliste paul Genthner, 1984,p:8.

[6]- البكري ،المصدر السابق ،ج2، ص:351.

[7]- الزهري ،كتاب الجعرافية، تح:محمد حاج صادق، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، دت، ص: 245. الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تح:ر.روبيناتشي وآخرون ، بيروت، مكتبة الثقافة الدينية، دت ،ج1،ص:223.

[8]- حماه الله ولد السالم، المرجع السابق،ص:32.

لفترة طويلة حلقة وصل أساسية في العلاقات بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، دون إغفال قرب هذه المناطق من مجالات السوننك، الذين كانوا من أبرز الشعوب السودانية فاعلية في التواصل والتأثر بالتجار المسلمين العابرين للصحراء الكبرى.

ولكن منذ مطلع القرن 6هـ/12م رحل الكثير من أفراد قبيلة لمتونة إلى الشمال، ما أدى إلى تداخل بين مجالهم ومجال مسوفة[1]، وتسبب هذا النزوح في تراجع دورهم في التواصل بين ضفتي الصحراء لصالح المسوفيين.

مسوفة: يرى كيوك (J. Cuoq) أن الموطن الأصلي لمسوفة هو منطقة تندوف، وأنها بدأت توسعاتها خارجها منذ القرن 2هـ/8م[2]، وقد اعتبرها ابن حوقل قبيلا عظيما من قبائل الصحراء، يملك المجال الواقع بين أودغشت وسجلماسة[3]، ثم أدت التحولات التي مست المجال الصنهاجي بعد قيام دولتهم إلى اتساع مجال مسوفة على حساب لمتونة، وصار لها امتداد إلى غاية بلاد السودان، سواء من ناحية الغرب حيث مملكة غانة، أو إلى الشرق حيث ممالك كوكو وتادمكة وتكدا [4]، كما أنهم توسعوا أيضا في المجال الذي كانت تسكنه قمنورية [5]، بعدما قضى عليهم المرابطون مع بداية غزواتهم في الصحراء، وفي الشمال كانوا لأول الفتح ينتجعون في مدينة درعة، وبعض مجالات السوس الأقصى الجنوبية المطلة على الصحراء، وهو ما تبرزه الروايات حول حملة عقبة بن نافع على هذه المناطق كما سيأتي.

ويظهر أهمية المجال الذي تشغله مسوفة من المسالك الصحراوية التي تعبره، ووجود مملحة تاتنتال (تغازة) به، والتي كانت سببا في تفضيل الكثير من تجار المغرب الإسلامي للمحور الغربي من الطرق التجارية على غيره،

---

[1]- عن هجرة القبائل الصحراوية شمالا في عهد المرابطين و أماكن استقرارها، أنظر : إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين ،بيروت ،دار الطليعة ،2000،ص:18-24.

[2] - Joseph Cuoq, Recueil des sources árabes concernant L'Afrique occidentale du VIII au XVl siecle (Bilad Al Sudán) Traduction et notos , paris ,edition du centre national de la recherche scientifique,1975,p:292.

[3]– ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص.98.

[4]– ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار، تح:طلال حرب، ط4، بيروت، دار الكتب العلمية،2007،ص:704.

[5]- قمنورية هي إحدى المجموعات السكانية التي شكلت إحدى الكنفدراليات القبلية في الصحراء الكبرى ، يعتقد بعض الباحثين أنهم يمثلون استمرارا لشعب البافار، كما تنص بعض المصادر بأنهم كانو على الديانة اليهودية، وبعضها يكتفي بالقول بأن في معتقدهم تشويش ، أنظر حولهم : الإدريسي: المصدر السابق،ص :105، مجهول، كتاب الاستبصارفي عجائب الأمصار،تح:سعد زغلول عبدالحميد،بغداد،دار الشؤون الثقافية العامة، 1986، ص:179. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار،تح:إحسان عباس ،ط 2،بيروت،مكتبة لبنان، 1984،ص:488.ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تح: إحسان عباس ،ط 3،بيروت ،دار الثقافة ، 1983،ج4،ص:12. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبـــار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس،الرباط ،دار المنصور،1972، ص:121. يوسف عيش، المرجع السابق، ص:231،261.

A. J. Lucas, "Considérations sur l'ethnique maure et en particulier sur une race ancienne : les Bafours" , Journal de la Société des Africanistes. 1931, tome 1 fascicule 2. pp. 151-194.

ولذلك كان المسوفيون من أهم المساهمين في خفارة القوافل والعمل كأدلة لها، ما عزز التواصل بين بلاد المغرب والسودان الغربي في الفترة المدروسة.

وقد احتلت مسوفة مكانة مرموقة في الصحراء، خاصة قبل قيام دولة المرابطين وعلو شأن العصبية اللمتونية، فقد كـــان لهم "ملك يملكهم و يدبرهم، تكبره صنهـــاجة وسائر تلك الديار" [1]، وهو ما يؤكد أن دخولها تحت إمرة الحلف الصنهاجي لم يكن معناه غياب استقلاليتها، بل هو نوع من التحالف والتضامن الذي لا يخفي قوة هذه القبيلة، التي كان في أبنائها من الجلد و القوة ما ليس في غيرهم[2].

جدالة: تعتبر جدالة من أكثر قبائل صنهاجة الصحراء عددا،[3]فلهم بطون ضخمة وحمى جمة[4]، وحدد البكري مجالهم فذكر أنهم يصاقبون البحر، وليس بينهم وبينه أحد[5]، وحسب كيوك (J. Cuoq) فإنهم كانوا يشغلون هذا هذا المجال في القرن 1هـ/7م، دون أن نمتلك تاريخا واضحا لبداية تواجدهم فيه [6]، وقد كانوا أقرب الملثمين إلى الممالك السودانية فهم حسب البكري: "آخر بلاد الإسلام خطة و أقرب بلاد السودان إليهم صنغانة، بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام" [7]، ويذكر دولافوس (M. Delafosse) أن مجالهم يمتد شرقا إلى جبل آدرار [8]، آدرار[8]، ويرى النابي ولد الحسين أن مجال جدالة قد ضاق جدا بعد خروجها عن صف المرابطين وتحالف مسوفة والتكرور عليها[9]، ورغم ذلك فإن هذا المجال بقي يمتاز بأهمية بالغة ويؤدي دورا بارزا في العلاقات بين ضفتي الصحراء، خاصة أن الطريق الساحلي الذي يربط مدينة نول لمطة بالسودان الغربي كان يمر عليه، وعززت أهميته مملحة أوليل التي ارتبطت بالعديد من حواضر الصحراء والمغرب والسودان، للأهمية البالغة للملح في التجارة العابرة للصحراء.

لمطة: إختلفت المصادر في نسبة لمطة إلى صنهاجة، إذ رأى بعضهم أنها ليست منها [10]، وحدد اليعقوبي مجالها في النصف الثاني من القرن 3هـ/9م في صحراء المغرب الشرقية حول زويلة فزان باتجاه أوجلة وإجدابية[11]، أما ابن

[1]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:98.

[2]- المصدر نفسه ، ص:98.

[3]- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،بيروت ،دار صـــادر،1977،ج4،ص:431.

[4]- مجهول، مفاخر البربر، تح:عبد القادر بوباية، الرباط ، دار أبي رقراق، 2005 ، ص:145.

[5]- البكري ، المصدر السابق، ج2، ص:351.

[6] - Joseph Cuoq, Histoire de L'Islamisation…, op.cit.p:8.

[7]- البكري ، المصدر السابق،ج2، ص:359.

[8] - Maurice Delafosse,op.cit.p:46.

[9]- النابي ولد الحسين، المرجع السابق، ص:87-88.

[10]- أنظر مثلا : التجاني ، رحلة التجاني ، تح:حسن حسني عبد الوهاب، تونس ، الدار العربية للكتاب ،1981 ، ص:216.

[11]- اليعقوبي، المصدر السابق، ص:134-135. الدمشقي، المصدر السابق، ص240.

حوقل جوالي منتصف القرن 4هـ/10م فقد جعلها في نواحي تامدلت [1]، وهو ما لم يتغير كثيرا عند البكري، الذي أشار إلى قطعها الطريق بين تامدلت وأودغشت بعد 22مرحـــلة من الأولى و قبل 15 مرحلة من الثانية[2]، بالإضـــافة إلى مدينة نول لمطة بالسوس الأقصى التي تنسب لهم [3]، و عند الإدريسي أنهم يأوون إلى مدينة آزقي(أزكي)[4]، وهو مـــا يدل على تفرق بطون هـــذه القبيلة وحراكهـــا الدائم، ولذلك قـــال ابن خلدون عنها: "موطنون بالسوس و ما يليه من بلاد الصحراء"[5]، كما كانت لهم هجرة إلى مجال مملكة أو مدينة كوكو منذ منذ القرن 2هـ/8م[6].

وإذا كانت إشارة البكري إلى قطعهم الطريق على القوافل تدل على إعاقتهم للتواصل بين بلاد المغرب والسودان الغربي، فإن ذلك لا يمثل وضعهم طوال الفترة المدروسة، فقد كانت مدينة لمطة منطلقا هاما للقوافل التجارية، ووفرت للتجار الكثير من مستلزمات الرحلة، ويشير استقرارهم في أزكي إلى مشاركتهم في الخدمات التي كانت توفرها هذه المحطة الهامة للتجار الذين يقصدون مدن السودان الغربي، كما أن تواجد هذه القبيلة في مناطق قريبة من المدن السودانية، يجعلها مسهما في عملية المثاقفة التي تمت بين صنهاجة الصحراء والشعوب السودانية المجاورة لهم، ما أثمر التغلغل الإسلامي التدريجي في غرب إفريقيا.

مداســـة: وهي من قبائل صنهاجة الصحراء التي نجدها عند اليعقوبي تمثل أغلب ساكنة السوس الأقصى [7]، ولكن منذ القرن 5هـ/11م يظهر مجال جديد لها، ربما اضطرها إليه حروب القرن 4هـ/10م بين صنهـــاجة وزناتة، إذ يحدد البكري مجال مداسة ما بين مملكة غانة ومملكة كوكو من بلاد السودان الغربي، وهو نفس المجال الذي يذكره الإدريسي، وينسب لهم عدة مدن منها: رأس الماء وتيرقي، و ورتنيس وبوغرات ومدينة تحمل اسمهم[8]، وهذا التداخل في المجال بين مداسة وبعض مناطق السودان الغربي عند الثنية الكبرى لنهر النيجر، جعلهم من صنهاجة الصحراء الذين يمثلون معبرا هاما للمؤثرات الثقافية من المغرب الإسلامي إلى الصحراء إلى السودان الغربي، ومسهمين في تنشيط التواصل الاقتصادي بين ضفتي الصحراء.

---

[1]- ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:91.
[2]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص:343-344.
[3]- مجهول ، الاستبصار، مصدر سابق، ص:211-212.
[4]- الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص:341.
[5]- ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص:270.
[6]- النايي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:482.
[7]- اليعقوبي، المصدر السابق، ص:150.
[8]- البكري، المصدر السابق،ج2،ص:368،370. الإدريسي، المصدر السابق، ج1،ص:24-25.ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص:370.

بنو نيستر: وإليهم تنسب صحراء نيستر ،كان مجالهم عهد البكري شمال مجال لمتونة على الطريق الرابط بين وادي درعة وبلاد السودان، وتعتبر ديارهم ممرا ضروريا للقوافل لوجود الماء بها، بعد مجابة كبرى خالية منه على مسافة ثمانية أيام [1]، وانتهى الأمر ببني ينستر بعدما انفرط عقد صنهاجة الصحراء وقويت شوكة مملكة مالي أن صاروا تحت هذه الأخيرة، وقد يكون ذلك حدث حوالي منتصف القرن 7هـ/13م.

جزولـــة: حدد اليعقوبي موطنها في النصف الثاني من القرن 3هـ/9م في مدينة فالوسن، معتبرا إياها آخر مملكة الأدارسة إلى الجنوب[2]، أما البكري وصاحب الاستبصار وابن خلدون فقد قرنوا بين مجالي جزولة ولمطة، بين بين نول ووادي سوس، وفي الطريق بين تامدلت وأودغشت[3].

تارجـــا (تاركا): كان بنو تارجا في النصف الثاني من القرن 3هـ/9م يمثلون أغلب سكان تامدلت[4]، ويذكر ويذكر البكري أن لهم حصونا حوله[5]، وأن بناء مدينة سجلماسة سنة 140هـ/757م كان سبب زوال مدينة ترغة التي كانت إحدى حواضرهم القديمة[6].

سرطة: وهي من القبائل التي ذكرتها المصادر في عدة مواضع، فهي عند ابن حوقل في نفس مجال مسوفة بين سجلماسة وأودغشت[7]، وجعل البكري كل المجال بين درعة وسجلماسة مجالا لها، بالإضافة إلى تامدلت التي تمتلك تمتلك فيها حصونا مع تارجا [8]،أما ابن سعيد فجعلها إلى الشرق من مدينة درعة وجنوب المجال الشمالي للمطة وجزولة[9].

---

[1]- البكري ،المصدر السابق ،ج2، ص:350-351.

[2]- اليعقوبي ، المصدر السابق، ص:137.

[3]- البكري،المصدر السابق،ج2،ص:343-344، مجهول ، الاستبصار، مصدر سابق، ص:211-212. ابن خلدون،المصدرالسابق،ج6،ص:270. وقد رأى بعض الباحثين أن جزولة لا تعدو أن تكون تحريفا للفظ جدالة استنادا إلى ما ورد عند البكري :ج 2،ص:352 عند حديثه عن أم عبد الله بن ياسين، أنها "من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت في طرف صحراء غانة"، و لكن يمكننا القول إنه مجرد تفرق لبطون القبيلة وأفرادها كما هو حال الكثير من القبائل، أنظر: سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية ، منشأة المعارف، 1995 ،ج4، ص:70.

[4]- اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص:150.

[5]- البكري ، المصدر السابق،ج2، ص:354.

[6]- المصدر نفسه، ج2، ص:332، ونستشف من إشارة للبكري:ج2،ص:354 أن تارجا كانت قبيلة كبيرة، إذ أن عبد الله بن ياسين جمع منها ومن سرطة جيشا كثيفا بعد عودة أغلب الجيش المرابطي إلى الصحراء مع يحيى بن عمر اللمتوني.

[7]- ابن حوقل ،المصدر السابق ، ص:98.

[8]- البكري ،المصدر السابق،ج2، ص:341-342،354.

[9]- ابن سعيد ، المصدر السابق، ص:124.

بنو وارث: توجد مضارب بني وارث حسب البكري في الطريق بين مدينتي تامدلت وأودغشت على بعد 27 مرحلة من الأولى و 10 مراحل من الثانية، ولهم مدينة تسمى بنكلابين [1]، تقع بين مضارب لمتونة وجدالة، وقد اعتبرهم المصادر من أول صنهاجة الصحراء إسلاما، ولعل في ذلك ما يجعلنا نقترح بأنهم كانوا ينتجعون في منطقة قريبة من السوس الأقصى، لأن إسلامهم نسب إلى حملة عقبة بن نافع [2]، ثم إن وصفهم بالتزام السنة [3]، في الوقت الذي كانت تقدم غيرهم من قبائل صنهاجة الصحراء كقبائل لا تعرف من الإسلام سوى اسمه، ما يدل على وجود تواصل بين بني وارث وبين الحواضر السنية ببلاد المغرب.

وإذا كانت المصادر لم تنقل لنا مساهمة مباشرة لكل من جزولة وتارجا وسرطة وبنو وارث في النشاط التجاري العابر للصحراء، وفي تأدية دور الوسيط الحامل للثقافة الإسلامية من المغرب الإسلامي إلى السودان الغربي، فبإمكاننا تخمين مشاركتهم في ذلك من خلال المجال الذي شغلوه، دون أن ترصد لنا المصادر طبيعة هذه المساهمة، لتركيزها على القبائل الكبرى لمتونة ومسوفة وجدالة غالبا.

وبعدما تبين لنا المجال التقريبي لأهم قبائل صنهاجة الصحـــراء في الصحـــارى الغربية من بلاد المغرب، فإننا نستطيع أن نقدم الآن تحديدا تقريبيا لمجـــال هذه المجموعة السكانية، فهو يمتد من نول لمطة إلى جنوب سجلمـــاسة حيث مضارب زناتة ومكناسة شمالا، أما جنوبا فيمكن رسم معالمه من مصب نهر السنغال في الغرب، إلى تاكدة في الشرق، وإذا كانت الحدود الغربية واضحة ممثلة في المحيط الأطلسي، فإن الحدود الشرقية يمكن توضيحها برسم قوس من حدود الجنوب الشرقي لإقليم تافيلالت إلى مجال مملكة تاكدة، وكل هذا يبقى مجالا تقريبيا و متحركا[4].

ج- محطات أساسية في تاريخ صنهاجة الصحراء:

شهدت صنهـــاجة الصحراء عدة أحداث هامة بين القرنين 2هـ/8م و 7هـ/13م، نلخصها فيما يلي:

1- قيام الحلف [5] الصنهاجي الأول في الصحراء (157هــ/762م إلى 306هــ/918م)، وكان يحتل مجـــالا واسعا ويتمتع بقوة كبيرة، يدل عليها ما ذكرته المصادر من أن مجاله يمتد ثلاثة أشهر في مثلها، وأن ملكهم الأول

---

[1]- البكري ، المصدر السابق، ج 2، ص: 343-344،351. وحسب النايي ولد الحسين فإن موقع مدينة بنكلابين يوجد داخل منطقة تكانت الموريتانية الحالية، أنظر: النايي ولد الحسين ، المرجع السابق،ص:96.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:121.

[3]- المصدر نفسه، ص:121.

[4]- أنظر الخريطتين رقم 1و2 ص: 129من هذه الدراسة.

[5]- أطلقت الكثير من الدراسات على انتظام قبائل صنهاجة الصحراء تحت قيادة أو زعامة واحدة في عدة فترات من تاريخهـــا لفظ "الأحـــلاف" أو "الإتحادات القبلية أو السياسية" أو "الكونفديراليات"، أنظر مثالا عن ذلك عند: حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين ،القاهرة ،دار الفكر

كان يركب في مئة ألــف نجيب[1]، وانهـــار هـــذا التحـــالف بمقتل الأمير تميم بن الأثير سنة 306هـــ/918م[2].

2- قيام الحلف الصنهاجي الثاني في الصحراء حوالي: 340هـــ/951م[3]، ولا يعلم تاريخ محدد لانهياره، وقد شهدت صنهاجة الصحراء في هذه المرحلة غزوا من الشمال ، يعتقد الدارسون أنه محاولة من الجماعات الزناتية أو الإباضية للسيطرة على أودغشت [4]، ومع أن الملثمين أفلحوا في صدهم، فإنهم عجزوا عن صد السوننك من الجنوب، إذ تمكنت مملكة غانة الوثنية من السيطرة على المدينة حوالي سنة 380هـ/990م[5].

3- قيام الحلف الصنهاجي الثالث حوالي 424هـ/1032م، والذي انتهى بتأسيس دولة المرابطين بعد رحلة الحج الشهيرة ليحيى بن إبراهيم الجدالي بين سنتي 427هـ /1035م و429هـ/1037م ، وقد تمكن المرابطون من تطهير الصحراء من الكيانات السياسية الأخرى، فقاموا بالقضاء على أهل قمنورية في معركة كلفتهم الكثير من الخسائر، وهو ما سمح بعد ذلك ببروز مسالك جديدة تعبر هـــذه المنـــاطق، ثم فتحوا أودغشت وأعـــادوها إلى حكمهم سنة 446هـ/1054م[6]، بل أخضعوا مملكة غانة ذاتها حسب الزهري وابن أبي زرع[7].

4- لم يتمكن الملثمون من الحفاظ على حلفهم بعد سقوط دولة المرابطين سنة 541هـ/1128م ، رغم وجود نوع من السلطة في يد بني ورتنطق اللمتونيين[8]، وقد عبر ابن خلدون عن الحالة التي انتهت إليها صنهاجة الصحراء

العربي،دت،ص:72، عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، بيروت، دارالغرب الإسلامي، 1988، ص:52، حماه الله ولد السالم، المرجع السابق ،ص:29.

[1]- النجيب من الإبل: القوي منها الخفيف السريع .أنظر :ابن منظور ، لسان العرب، بيروت ، دار صادر، دت، ج1، ص:748.

[2]- انظر عن هذه المرحلة: ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص: 120-121. ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص: 241. ابن الخطيب ، تاريخ المغرب العربي في العصرالوسيط – القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام – ،تح:أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني،الدار البيضاء،دار الكتاب،1964، ص:225-226.

[3]- عن الحلف الثاني ينظر: ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 97-98، البكري ، المصدر السابق، ج 2، ص: 345 . مجهول، مفاخر البربر، مصدر سابق، ص: 150. ابن خلدون ،المصدر السابق،ج 6، ص: 242. المهلبي، الكتاب العزيزي أو المسالك و الممالك، تح :تيسير خلف، دمشق، دار التكوين، 2006، ص:45. ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج1، ص:278.

[4]- عن التواجد الإباضي في أودغشت في القرن 4هـ/10م، أنظر: تاديوش ليفيتسكي، دراسات شمال إفريقية ، تر:أحمد بومزكو، طرابلس ليبيا، مؤسسة تاوالت، 2006، ص:53. وقد زودنا ابن حوقل بالمعلومات المتعلقة بالغزو الذي تعرضت له أودغشت من الشمال، أنظر: ابن حوقل، المصدر السابق، ص:97-98، ويمكن اعتبار هذا الغزو حلقة من الصراع الصنهاجي الزناتي من أجل السيطرة على طرق القوافل والمدن الفاعلة في التجارة العابرة للصحراء، وهو الصراع الذي يقف من خلفه الأمويون والفاطميون حسب الحبيب الجنحاني، أنظر: الحبيب الجنحاني، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي،ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1986، ص:155-177.

[5] - Maurice Delafosse, Haut- Sènègal-Niger,Paris,Emile Larose- Libraire-Editeur,1912,T2.p :32.
ويمكننا هنا أن نقترح بأن سبب انهيار هذا الحلف كان سيطرة مملكة غانة الوثنية على أودغشت.

[6]- الإدريسي ، المصدر السابق،ج1، ص:105. الحميري ،المصدر السابق ، ص:105. ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص:121. البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:355. وعن أهمية معركة قمنورية أنظر :حماه الله ولد السالم ، المرجع السابق، ص:45-46.

[7]- الزهري ، المصدر السابق ، ص:125. ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص:135-136. ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6، ص:245،266.

[8]- أنظر عن التاريخ السياسي للصحراء بعد وفاة أبو بكر بن عمر اللمتوني: المختار ولد حامد، موسوعة حياة موريتانيا – التاريخ السياسي–،بيروت،دار الغرب الإسلامي، 2000،ص:55-64. حماه الله ولد السالم ، المرجع السابق،ص:74-75.

بقوله:"أكلتهم الدولة وابتلعتهم الآفاق والأقطار وأفناهم الرق، واستلحمهم أمراء الموحدين، وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من اختلاف الكلمة وافتراق البين"[1]، ثم كان وصول عرب معقل من بني حسان مؤذنا بحدوث تحولات كبيرة في الصحراء، كانت ثقافية واجتماعية أكثر منها ديموغرافية[2].

كل ما سبق يبرز ما قدمناه من كون صنهاجة الصحراء مجموعة سكانية مشكلة من عدة قبائل، تشغل مجالات واسعة في الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، وهو ما مكنها من تأدية دور كبير في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، فإذا كان هذا المجال قد سمح للملثمين بتأدية دور الوسيط بين ضفتي الصحراء، فهل كان فيه من الثروات والأنشطة الاقتصادية ما يغري التجار بتفضيله على المجالات الأخرى؟

2-الإمكانيات والأنشطة الاقتصادية في مجالات صنهاجة الصحراء.

- توطئة:

تنطلق جل الدراسات المتعلقة بالتواصل بين شمال وغرب إفريقيا من التأكيد على أن الصحراء لم تكن يوما ما سببا لقطيعة بين الشمال والجنوب، وأنها استمرت في القيام بنفس دور الوسيط الذي قامت به عندما كانت مساحات خضراء تعج بالحياة، قبل أن تطرأ عليها التحولات المناخية الكبرى التي انتهت بها إلى حالة التصحر في حدود 4000-2000ق م[3]، إذ تمكن المتعايشون مع هذا التحول من تكييف طرق حياتهم بما يتلائم مع الوضع الجغرافي والمناخي الجديد، وقادت الهجرات التي سببها هذا التحول إلى تعميق هذا التفاعل بين الشمال و الجنوب.

لقد أدى هذا التحول المناخي إلى بروز وضع اقتصادي متميز، طبع سكان الصحراء منذ العصور القديمة، ولا تزال مظاهره ماثلة للعيان في الكثير من جوانبها إلى اليوم، يتعلق الأمر بالارتباط بالنشاط الرعوي المعتمد على الترحال، وهو الوصف الذي أعطته المصادر لصنهاجة الصحراء في العصر الوسيط فهم"ظواعن رحالة،ليس يعرفون حرثا، ولا يزرعون زرعا، ولا يعرفون خبزا، وإنما أموالهم الأنعام و عيشهم من اللحم واللبن"[4].

---

[1]- ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6،ص: 263.

[2]- أنظر عن توسعات بني حسان وحروبهم مع لمتونة : حماه الله ولد السالم،المرجع السابق، ص: 80-95، مصطفى أبو ضيف أحمد عمر ، القبائل العربية ببلاد المغرب في عصري الموحدين و بني مرين، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،1982، ص:235-240.

[3]- عن موضوع التحولات المناخية في الصحراء يراجع : بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير،تر:الهادي أبو لقمة و محمد عزيز،بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 1988، ص: 27-40، كزافييه دو بلانهول، تاريخ أرض الإسلام الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام، تر:معاوية سعيدوني،تونس، دارالغرب الإسلامي، 2008، ص:217-218. دونالد ويدنر ، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، تر: راشد البراوي ، القاهرة ، دار الجيل ،2001، ص:26-27.

[4]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:351. وقريبا منه عند : اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص:151. ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:82،98. مجهول، الاستبصار ، مصدر سابق ، ص:213-214. الدمشقي ، المصدر السابق ، ص:238-239.

أ- الثـــروة الحيوانية .

كان صنهاجة الصحراء يكسبون البقر و الغنم في حواضرهم، وعندهم الكباش الدمانية، خلقها خلق الضأن إلا أنها أجمل، وشعرها شعر الماعز ولا أصواف لها، وهي أحسن الغنم خلقا وألوانا، وقد كانت رخيصة جدا في منتصف القرن 5هـ/11م[1]، أمـــا الخيل فكانت قليلة جدا إن لم نقـــل شبه معدومة [2]، إضافة إلى أنهم كانوا يصطادون البقر الوحشي لمأكولهم[3]، ونلحظ هنا أن هذه الحيوانات كانت خاصة لمعاشهم و لم يكن لها دور في النشاط الاقتصادي مع الشمال أو الجنوب.

أما الحيوانات المهمة في النشاط الاقتصادي لصنهاجة الصحراء فنذكر منها ما يلي:

الجمـــــل[4]: يعتبر الجمل أهم ثروة بالصحراء، وهو الذي سمح للملثمين باختراق مجـــالهم والتواصل مع جيرانهم شمـــالا وجنوبا، ومن ثم المشـــاركة في النشـــاط الاقتصادي والتفتح على مختلف المؤثرات الثقافية، وقد ذكرت المصـــادر أن أكثر مـــا عند صنهـــاجة الصحـــراء من المواشي الإبل لمعـــاشهم وحمل أثقـــالهم، وكانوا يركبون الفـــارهة منها ويسمونها النجيب[5]، وأفـــاد ابن حوقل أن أخت ملك الحلف الصنهـــاجي الثاني كانت

---

[1]- المصدرنفسه ،ج2، ص:344، حيث ذكر أن أكثر مال أهل أودغشت البقر و الغنم و أن المثقال يشترى بها عشرة كباش و أكثر .

[2]- ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6،ص:263.

[3]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:685.

[4]- شكل أصل جمل الصحراء الكبرى نقاشا كبيرا بين القائلين بأصالته اعتمادا على الرسوم الصخرية التي يظهر فيها مع محاربين وكتابات ليبية، والقائلين بأنه حديث الظهور، فقوتيي(Gautier) مثلا ومع إقراره بأن الجمل هو أفضل وسيلة لفك الحصار عن بلد تحيط به الصحراء، إلا أنه أصر على أن جمل الرسوم الصخرية إن لم يكن غير مستأنس فإنه انقرض ولا علاقة له بجمل الفترة التاريخية، استنادا إلى أن المصادر الرومانية لم تذكره إلا عندما أصبح في عـــداد الأسلحة التي استخدمت ضد رومـــا، إذ أن أقـــدم نص أدبي حول وجوده يؤرخ له بـــ 46ق م، ويدعي المنكرون لأصالته أنه لم ينتشر إلا منذ القرن4 م، ولكن البحوث الحديثة المسنودة بالوثائق الأثرية كشفت عن وجود هذا الحيوان منذ المرحلة القفصية (بداية العصر النيوليثي)، أنظر: محمد العربي عقون، المرجع السابق،ص: 21-22. و لمناقشة حجج القائلين بأصالة الجمل في الصحراء و المخالفين لهم يمكن العودة إلى: فتيحة فرحاتي، نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213ق م-46ق م، الجزائر، منشورات أبيك ،2007، ص:228-230. عبد الله العروي، المرجع السابق، ص:109-111. بوفيل، المرجع السابق ،ص:49-50،81-84. إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى و شواطئها ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، ، دت ، ص:42-46.

Jean Suret Canal, Afrique Noire occidentale Gèographie –Civilisations –Histoire - ,Paris, Editions Sociales,3e ed,1968,p: 163-167.

ومع ترجيح أصالة جمل الصحراء الإفريقية الكبرى، فإن بداية استعماله يطرح إشكالا آخر، إذ يرى بعض الباحثين أن استعماله كان أحد نتائج السياسة الرومانية، التي طردت الكثير من القبائل المقاومة لها خلف خط الليمس، ومن ثم تعاطوا تربية الجمال وأسهموا في زيادتها بعد أن كانت بأعداد قليلة. أنظر: عبد الله العروي: المرجع السابق،ص: 111.

[5]- ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج 6، ص:263، وينبغي التحفظ هنا على ما يفهم من هذا القول ، وهو أن صنهاجة الصحراء لا يمتلكون اسما أمازيغيا للإبل الفاره!

تملك بمفردهـــا 15000 منها[1]، وبصرف النظر عن مدى دقة هذا الرقم، فهو دليل على الأعداد الكبيرة التي يمتلكونها.

ومن المؤكد أن استعمال الجمل قد أحدث ثورة في النقل، وهي ثورة أثرت بدورها في النشاط التجاري، فبفضله أصبح من الممكن نقل حمولات أكثر وزنا،إذ قدر موني (R.Mauny)حمولته بمابين 125و 150كلغ[2]، كما قلّت المخاطر عما سبق، عندما كان النقل يتم بالثيران والخيول، والتي يبدو أنها لم تكن قادرة على قطع مسافات طويلة، ومع الجمل أصبحت الرحلة تسمح ببلوغ مناطق بعيدة، وتستغرق وقتا أقل ، وكانت النتيجة نموا في النشاط التجاري، أسفر عن نشأة الكثير من المدن عند نهايات الطرق[3]، ماعزّز التواصل بين الشمال والجنوب.

اللّمط: وهو دابة دون البقر، لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها، كلما كبرمنها الواحد طال قرناه [4]، وهذا الحيوان هو المعروف اليوم بالمها، وكان منتشرا بكثرة في مجالات صنهاجة الصحراء، فقد وصف ابن الفقيه أهل أنبية وأهل لمطة بأنهم أصحاب الدرق اللمطية[5]، وعند ابن حوقل أن "من سجلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية اللمطية

عشرون يوما ، ومن أوليل إلى لمطة معدن الدرق خمسة وعشرون يوما"[6]، وأشار البكري إلى أن هذا الحيوان كثير كثير

جدا حوالي أودغشت[7]، ومنه تصنع الدرق اللمطية التي يحملها التجار للمغرب والسودان.

الفنك: وهو نوع من الثعالب الصغيرة جدا [8]، يعد من الحيوانات المنتشرة بكثرة في صحراء صنهاجة، ومنها يحمل جلده إلى جميع البلاد شمالا وجنوبا[9]، ورغم صلابته فهو دون اللمط في الأهمية.

ب- النشاط الزراعـــــي.

[1]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:98.

[2]- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (9-10م)، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،1992، ص:219.

[3]- بانيكار ، الوثنية و الإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقيا ،تر: أحمد فؤاد بعلبع ، ط2، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1997، ص:378-379.

[4]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:358.

[5]- ابن الفقيه ،المصدر السابق ، ص:81.

[6]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:91. ومعنى "معدن" هنا: مركز ومكان وجود هذا الحيوان، أنظر: ابن منظور، المصدر السابق،ج13،ص:279.

[7]- البكري ،المصدر السابق ،ج2، ص:345.

[8]- نبيلة حسن محمد،في تاريخ إفريقيا الإسلامية،السويس، دار المعرفة الجامعية،2007 ، ص:63.

[9]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:358.

ماسبق ذكره عن بداوة صنهاجة الصحراء لا يعني عدم وجود أنشطة حضرية لديهم، فحياة الترحال هي النمط الغالب عليهم، لكنها ليست النمط الوحيد، إذ تحدثت المصادر عن النشاط الزراعي في الحواضر الصنهاجية، حيث ذكر المهلبي عن سكان أودغشت أن "أمطارهم في الصيف، ويزرعون عليها الحنطة و الدخن [1] والذرة واللوبيا والكرسنة[2]، والنخل ببلادهم كثير جدا، وليس ببلادهم من الفاكهة غير التين" [3]، وهذا النشاط لم يختف في عهد البكري الذي ذكر عن المدينة نفسها أن حولها بساتين النخيل، وأنهم يزرعون فيها القمح بالقوس ويسقونه بالدلاء، يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، أمـــا سائر أهلها فيأكلون الذرة، وبهـــا شجيرات تين ودوال يسيرة ، وجنان حناء لها غلة كبيرة[4]، كما أفاد أن حاضرة آزكي كانت بها حوالي عشرين ألف نخلة[5].

ويبدو من خلال هذه الإشارات أن النشاط الزراعي كان نشاطا ثانويا، ولا يمكنه تغطية الحاجيات الغذائية الضرورية للملثمين، ففضلا عن كون الحواضر الصنهاجية لا تمثل سوى جزءا يسيرا جدا من تعداد قبائل الملثمين في الصحراء، فإنها لم تتحول إلى واحات كبرى بإمكانها أن تؤسس لنمط اقتصادي بديل عن نشاط الرعي المتنقل، وهو ما جعل من النشاط التجاري نشاطا بالغ الأهمية لهذه القبائل، مكنها الاهتمام به من تأدية دور الوسيط بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، مع ما جرّه هذا النشاط من نقل الإسلام وثقافته إلى بلاد السودان.

ج- المعـــادن:

1- الملح: يحتوي مجال صنهاجة الصحراء على مما لح بالغة الأهمية، كان يرتادها التجار من بلاد المغرب ثم من بلاد السودان في مراحل متأخرة، وسنناقش دورهـــا في التجارة العابرة للصحراء لاحقا، إذ نكتفي هنا بالتعريف بهـــا و بموقعها ومرحلة استغلالها.

مملحة أوليل: هي إحدى أهم سباخ جنوب غرب الصحراء ، تقع بالقرب من نهاية الساحل الجنوبي لمجال جدالة، غير بعيدة من مصب نهر السنغال[6]، وأول معلومة عن هذه المملحة نجدها عند ابن حوقل، الذي تحدث عن

---

[1]- الدخن: نبات عشبي من النجيليات حبه صغير أملس كحب السمسم ينبت بريا ومزروعا، أنظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط ، دم، دار الدعوة، دت ،ج1،ص:276.

[2]- الكرسنة: عشب حولي من الفصيلة القرنية يزرع لحبه الذي يجعل علفا للبقر، أنظر: المرجع نفسه: ج2،ص: 783.

[3]- المهلبي ، المصدر السابق ، ص:45.

[4]- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:344.

[5]- المصدر نفسه،ج2، ص:354-355.

[6]- عن موقع مملحة أوليل اكتفى بعض الباحثين بالإشارة إلى أنه يوجد بين نواكشوط وسلنلوي الحاليتين، في حين جزم البعض الآخر أنها دون شك إحدى السباخ المعروفة اليوم بمنطقة الترارزة، مع ترجيحه أنها هي التي تحمل في وقتنا الحاضر اسم أنتررت، أنظر: الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:426-427.

عن مسلك يربطها بأودغشت مسيرة شهر واحد [1]، ولا ريب في أن ربط هذه المملحة بأهم الحواضر الصنهاجية دليل على دورها الهام في النشاط التجاري، وهو الدور الذي استمر في عهد البكري، الذي صرح بأن هذه المملحة تتبع مجال قبيلة جدالة الصنهاجية [2]، أما الإدريسي حوالي منتصف القرن 6هـ/12م ، فقد أشار إلى أهمية هذه السبخة باعتبارها: "الملاحة المشهورة" [3]، وهو دليل على حجم النشاط التجاري فيها، لكنه نسبها إلى بلاد السودان لا لمجالات صنهاجة الصحراء، مشيرا إلى أنها مصدر الملح إلى جميع بلاد السودان الذين يقصدونها في المراكب[4].

مملحة تاتنتال: تقع هذه المملحة في مجال قبيلة مسوفة، ويعد عبيد الله البكري أول من أشار إليها، محددا موقعها بمسيرة يومين من المجابة الكبرى، وعشرين يوما من مدينة سجلماسة، وعدّها من غرائب صحراء صنهاجة، لأجل حصنها المبني بحجارة الملح، وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه[5].

وإذا كان البكري قد حدد مكان المملحة بالنسبة إلى سجلماسة، فإن ابن سعيد قد حدده بالنسبة إلى حاضرة لمتونة آزكي – وهي الحاضرة التي أخذت دور أودغشت بعدما تسبب التراع مع جدالة إلى تفضيلها الاتجار مباشرة مع السودان دون المرور على حاضرة لمتونة، ما أدى لتراجعها – فقال :" و بينه وبين قاعدة أزكي سبعة أيام"[6]، ما ما يدل على حرص جميع حواضر صنهاجة الصحراء على الاستفادة من سباخ الملح، التي يقصدها تجار الشمال لأجل حمله للإتجار مع مدن السودان الغربي.

مملحة توتك: انفرد البكري بالحديث عن هذه المملحة، التي تقع في أقصى شرق مجال الملثمين، ولذلك عدها من بلاد السودان، وكان يقصدها تجار كوكو، أي أنها قريبة من مسالك الطريق الأوسط أكثر من الغربي، فملحها يحمل إلى تادمكة التي تبعد عنها بستة مراحل، ثم يحمل من تادمكة إلى كوكو[1].

---

[1]- ابن حوقل ، المصدر السابق ،ص:91.

[2]- البكري ، المصدر السابق ،ج2،ص:358.مجهول، الاستبصار، مصدر سابق،ص:214-215.

[3]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1،ص:17. ابن سعيد المغربي ،المصدر السابق ،ص:90.

[4]- المصدر نفسه ،ج1،ص:17. وانظر نموذجا عن القوارب التقليدية في السودان الغربي في الصورة رقم:15 ص:140 .

[5]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:358. مجهول ، الاستبصار، مصدر سابق ، ص:214. وانظر موقع السبخة في الصورة رقم:10،ص:137.

[6]- ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق،ص:113. القزويني ، المصدر السابق ، ص:25-26.وتقع مملحة تاتنتال على بعد 160كلم إلى الشمال الغربي من مدينة تاودني الموريتانية، و يرى كيوك (J.Couq) أن استغلالهـا يسبق تدوين البكري بكثير، إذ يمكن أن يكون بدأ منـذ القرن 2هـ/8م، أنظر: الناني ولد الحسين ، المرجع السابق، ص:433. Joseph Cuoq, Histoire de L'islamisation…op.cit :p:7.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المملحة هي التي تحدث عنها ابن بطوطة في القرن 8هـ/14م باسم تغازة، إذ أن وصفه لمشاهداته فيها لا يكاد يختلف عن وصف البكري، كما ورد ذكرها عند الوزان بلفظ تغزة، و كل هذا دليل على استمرار أهميتها التجارية طوال الفترة المدروسة في هذا البحث.أنظر: ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص: 684. الوزان ، وصف إفريقيا ، تر :محمد حجي و محمد الأخضر، ط 2، بيروت ، دار الغرب الإسلامي، 1983،ج2، ص:166. (أنظر الصورة رقم10 ص137).

لقد كان لهذه الممالح دور كبير جدا في التواصل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، فقد كان الملح سلعة ضرورية جدا للسودانيين، وحقق للتجار المغاربة فوائد كبيرة، وكل ذلك أسهم في نشاط المسالك الغربية العابرة لمجالات صنهاجة الصحراء.

2- النحـــاس: حدد البكري منطقتين تتوفران على النحاس في صحراء صنهاجة ، إحداهما تسمى تيحمامين ومنها إلى وادي درعة يومان إلى الجنوب الغربي[2]، والأخرى تدعى تنودادن في الطريق بين درعة إلى سجلماسة[3].

د- ثروات أخــرى:

العنبـــر: يوجد ضمن مجالات جدالة في جزيرة أيونن بالقرب من أوليل، ووصفه البكري بالعنبر المخلوق الجيد[4]، واستمر استغـــلاله طوال الفترة المدروسة، فقد ورد الحديث عنه وعن موقعه لدى كل من الإدريسي وابن سعيد[5]، وإن كنا لا نملك دليلا عن الكميات المستعملة منه، وهل كان له دور كبير في النشاط التجاري، سوى إشارة البكري عن وجوده بأودغشت[6]، وهو دليل على أنه من السلع المطلوبة للتجار.

شجر الصمغ: وهو شجر يستعمل في صباغة الديباج، ويعتبر من أنفق السلع بالأندلس، ولذلك كان الطلب عليه من التجار المغاربة، وكان موجودا في القرن 5هـ/11م على مشارف مدينة أودغشت لمن كان يقصدهـــا من الشمال[7]، كما أن الأبحاث أثبتت أن المنطقة الغربية أيضا من صحراء الملثمين كانت تحتوي على هذا النوع من الأشجار، واستمرت تصدر الصمغ إلى غاية نهاية القرن 9هـ/15م[8].

إن هذه الإمكانيات الاقتصادية المتفاوتة الأهمية سمحت لصنهاجة الصحراء بالمشاركة بفعالية في النشاط التجاري بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، ولم ترض بدور الوسيط السلبي فقط، لأن ثروات المجالات الصحراوية كانت عنصرا مهما في مفاضلة التجار بين كل من الطريق الشرقي والأوسط والغربي، ومن ثم كان المجال الذي يسمح بتوفير السلع الضرورية في بلاد السودان - وفي مقدمتها الملح- يحظى باهتمام أكثر، كما أن التجار في طريق عودتهم من بلاد السودان كانوا يرغبون في نقل سلع المجال الصحراوي المطلوبة في المغرب.

1- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:373.

2- المصدر نفسه ،ج2، ص:238.

3- المصدر نفسه ،ج2، ص:341-342.

4- المصدر نفسه ،ج2، ص:358.

5- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص: 104. ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق، ص:90.

6- البكري،المصدر السابق ،ج2، ص:345.

7- المصدر نفسه ،ج 2، ص:345.وعن الصناعة النسيجية بالأندلس ينظر: إسماعيل سامعي،تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي،قسنطينة، مكتبة إقرأ، 2007، ص: 61-64.

8- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:304.وانظر الخريطة رقم 5ص:131 من هذه الدراسة الموضحة لمختلف ثروات صحراء صنهاجة.

لقد كانت الصحراء رغم قساوتها مخزونا لثروات بالغة الأهمية في النشاطات الاقتصادية، وقد وفرت بذلك المقومات التي تجعل من النشاط التجاري يمثل النشاط الأساسي فيها، بسبب شح الإمكانيات الزراعية وتواضع الأنشطة الحرفية، وهذا من أهم أسباب قيام تحالفاتهم، ومن أهم ما تفسر به حروبهم وعلاقاتهم، بل وانشقاقاتهم الداخلية، دون أن ندعي أنه السبب الوحيد في كل ذلك كما فعل الكثير من أصحاب الاتجاه المادي، سواء بعلم أو مسايرة لنظريات مجهولة الجذور الإيديولوجية والسياقات التاريخية، والتي علينا تجاوزها وإعطاء التاريخ نظرة فلسفية تقوم على مبدء الأسبـــاب المتعددة والعوامل المتداخلة، وأن التفـــاضل في أهميتهـــا هو بحسب مـــا يحيط بهـــا، وليس من منطلق هيمنة سبب وحيد على ما يليه واعتبار ما عداه ناتجا عنه فقط.

وإذا كان مجال صنهاجة الصحراء قد تمكن من خلال سباخ الملح التي يمتلكها، وحاجياته الغذائية والحرفية التي لم يتمكن من تحقيق كفايته فيها، من جذب تجار المغرب الإسلامي للانخراط في النشاط التجاري مع قبائله، وعبر مسالكه إلى السودان الغربي، فهل تمكن سكانه من التفاعل مع الإسلام الذي انتشر بين المغاربة، بما يؤهلهم لنقله لجيرانهم الجنوبيين من السودانيين؟

3 – الإســـلام والثقـــافة الإســـلامية عند صنهاجة الصحراء.

– توطئـــة:

لا تقدم لنا المادة المصدرية صورة دقيقة عن الوضع الديني لصنهاجة الصحراء قبل تبنيها الإسلام، إذ أن الإشارات التي نمتلكها مجتزئة جدا، فهي تكتفي بالتأكيد على مجوسية هذه القبائل شأن كل البربر [1]، وأنهم كانوا يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم [2]، كما يمكننا أن نستشف من بعض الإشارات وجود الديانة اليهودية في

[1]– ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج 6،ص:241، ونشير هنـــــا إلى أن الجزنائي أشار إلى تعدد الديانات البربرية فقال : "وهم على أديان مختلفة". أنظر: الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح : عبد الوهاب بن منصور ، ط2، الرباط ، المطبعة الملكية،1991، ص:8.

[2]– المهلبي ، المصدر السابق، ص:46. ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج5، ص:370.

مجالات صنهاجة الصحراء شمالا وجنوبا، فابن الفقيه يتحدث عن وجود بني إسرائيل في السوس الأقصى [1]، كما وصفت بعض المصادر أهل جبل قمنورية في الصحراء بأنهم كانوا على اليهودية.[2]

ويمكننا القول إن صنهاجة الصحراء كباقي البربر، قد عرفوا عبادة الأصنام والأوثان والكواكب، كما عرفوا العبادات الطوطمية، ومنهم من تأثر بديانات الأمم التي غلبت على بلاد المغرب في فترات التاريخ القديم كالنصرانية[3]، ورغم ذلك يمكننا التأكيد على أن الآلهة المحلية مثل عبادة أمون "الكبش"،كانت هي السائدة قبل دخول الإسلام إلى المنطقة، مع حدوث امتزاج بين هذه الآلهة المحلية والآلهة الوافدة[4].

أ – حملتا عقبة بن نافع وموسى بن نصير و تعرف الملثمين على الإسلام.

من خلال إدراك مجال صنهاجة الصحراء وأخبار حملة عقبة بن نافع، يمكننا القول إن بداية تعرف صنهاجة الصحراء على الإسلام كان مع وصول هذه الحملة إلى السوس الأقصى سنة 63هـ/682م، حيث أشار ابن عبد الحكم إلى أن سكان هذه المنطقة بطن من البربر يقال لهم أنبية [5]، وأشار غيره إلى أنه غزا صنهاجة اللثام من وراء السوس[6]، كما جاء أحيانا تحديد القبائل التي وصلتها حملة عقبة، فالبكري يقول أنه بلغ مدينة نول حيث مضارب لمطة[7]، وصاحب مفاخر البربر يذكر أنه قاتل لمتونة [8]، أما ابن خلدون فيقول أنهم مسوفة [9]، بينما يذكر ابن أبي زرع أن بني وارث أسلموا على يد عقبة [10]، دون أن يشير إلى أنه بلغ مجالهم في عمق الصحراء، وذلك مستبعد جدا.

وقد ذكرت بعض المصادر أن عقبة أسس في هذه الحملة عدة مساجد بالسوس الأقصى منها مسجد بماسة[11]، وآخر بدرعة[1]، ما يدل على وضعه إحدى اللبنات الأساسية لنشر الإسلام في المنطقة وما يليها، ومن ثم يمكننا فهم

[1]– ابن الفقيه، المصدر السابق، ص:81–84، والمعلومة ترد في سياق إحدى أساطير حروب الإسكندر المقدوني .

[2]– أنظر مثلا : الإدريسي، المصدر السابق،ج 1، ص:105. الحميري، المصدر السابق ، ص: 488. ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص: 121. وقد قدمت عدة تفسيرات للطريقة التي وصلت بها اليهودية إلى بلاد المغرب والصحراء، أنظر مثلا : مسعود كواتي ، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين ، الجزائر، دار هومة، 2009، ص: 13–54. عطا علي محمد شحاته رية، اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين ، دمشق ، دار الكلمة، 1999، ص:23–34.

[3]– مجهول ، مفاخر البربر، مصدر سابق ، ص:255.

[4]– عن الوضع الديني ببلاد المغرب في العهد البيزنطي، أنظر : يوسف عيبش ، المرجع السابق، ص:260–265.

[5]– ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص:335.وقد تقدم القول أن المقصود بأنبية حلف صنهاجة الصحراء.

[6]– ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6، ص:142.

[7]– البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:349.

[8]– مجهول، مفاخر البربر، مصدر سابق، ص:194.

[9]– ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج4، ص:237.

[10]– ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص:121.

[11]– المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان،تح:بشير البكـــوش،ط2،بيروت،دارالغرب الإسلامي،1994، ،ج1، ص : 740.

فهم قول الحموي أن البربر بعد هذه الحملة قد فشا فيهم دين الله حتى اتصل ببلاد السودان [2]، بأن الدعوة الإسلامية بلغتهم، وتعرفوا على الدين الجديد، وأسلم بعضهم، وليس معناه اعتناقهم جميعا له منذ هذا التاريخ.

وقد بالغت بعض الروايات في تحديد المجالات التي وصلها عقبة في حملته، إلى حد الإدعاء بتجاوزها مجالات صنهاجة الصحراء إلى بلاد السودان الغربي؟!، ومن ثم فإن ما يمكن قبوله، أن حملة عقبة حملت الإسلام إلى أطراف صحراء الملثمين الشمالية، ولكنها لم تدمج المنطقة في دار الإسلام، بدليل توالي الحملات على السوس الأقصى[3].

فبعد عقبة، وصلت المنطقة حملة موسى بن نصير التي قادها ابنه مروان سنة 89هـ/707م، والتي يدل ضخامة عدد السبي فيها[4]،بأنها كانت كبيرة، وشملت مجالات واسعة من السوس الأقصى، وأن أغلب السكان لم يسلموا بعد، ومع أن المصادر ركزت على الجانب العسكري فيها، فإن في بعض أخبارها إشارات على نجاحها في استقطاب بعض صنهاجة الصحراء إلى صف المسلمين، بدليل مشاركتهم بعدها بسنوات قليلة في فتح الأندلس[5].

ب- حملة عبيد الله بن الحبحاب في عمق مجال صنهاجة الصحراء.

تعد حملة عبيد الله بن الحبحاب سنة 116هـ/734م، من أهم الحملات التي أوغلت في صحراء الملثمين وبالتالي أسهمت في تعرفهم على الإسلام، فقد ذكر الرقيق القيرواني أن حبيب بن أبي عبيدة الفهري أحد قادتها، سبى من مسوفة في طريق بلاد السودان[6]، بل زعمت بعض المصادر أنه بلغ بلاد السودان ذاتها عبر مجال جدالة، إذ نقل ابن الفقيه عن المشتري ابن الأسود أحد قادة الحملة قوله:"غزوت بلاد أنبية عشرين غزاة من السوس الأقصى، فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من الرمل يخرج النيل من تحته"! [7]، وهو يقصد بأنبية صنهاجة الصحراء، وبالنيل هنا نهر السنغال!![8].

---

[1]- ابن عذارى المراكشي،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تح:ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنسال،ط3،بيروت،دار الثقافة،1983،ج1،ص:27.

[2]- ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج4، ص :420.

[3] - Tadeusz lewicki, "les origines de L'Islam dans les tribus berbèrs du sahara occidental Musa ibn Nusayr et Ubayd allah ibn Alhabhab", studia islamica,32(1970),p :208-209.

[4]- خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط، تح: أكرم ضياء العمري، دمشق ، دار القلم، 1397هـــ، ص:302. وهو يروي أن عدد السبي بلغ أربعين ألفا! وينبغي التحفظ على مدى مصداقية هذا الرقم.

[5]- حسن أحمد محمود ،الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا،القاهرة، دار الفكر العربي 1986، ص:209.

[6]- الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية و المغرب ،تح : عبد الله العلي الزيدان و عز الدين عمر موسى،بيروت ،دار الغرب الإسلامي،1990، ص:72.

[7]- ابن الفقيه، المصدر السابق ، ص:64. وقد اختلفت المصادر في تاريخ هذه الحملة فابن خياط وابن عذارى وابن الأثير ذكروا أن ذلك حدث سنة: 116هـــ/734م، أما ابن خلدون فيؤرخ للحدث بـــ 122هـــ/740م، وعند ابن أبي دينار 120 هـــ/738م، أنظر: ابن خياط، المصدر السابق، ص:347. ابن عذارى، المصدر السابق،ج 1،ص:51. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح:أبو الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية،1997 ،ج4، ص:404. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس ، مطبعة الدولة التونسية، 1286هـــ ، ص:38.

[8] - Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:54.

وقد رأى لفيتسكي(T.Lewicki) أن أهمية هذه الحملة في نشر الإسلام في مجالات صنهاجة الصحراء، إنما يكمن في إخضاع هذه القبائل، وفتح طريق القوافل التجارية لتخترق مجالها، ليتكفل التجار بعد ذلك بإقناع الملثمين باعتناق الإسلام، وهو ماتم بصورة تدريجية[1].

وربما كانت الإشارات التي تنص على أن إسلام الملثمين كان في فترة حكم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (105هـ/723م -125هـ/742م) [2]، أو أنه تم بعد فتح الأندلس، [3]تشير إلى هذه الحملة، لأنها الوحيدة التي تقترب من هذه التواريخ، إلا أن ما ذكره الزهري من أن إسلامهم كان على مذهب خرجوا به عن الشرع، ربما يحيل إلى دور الإباضية أو الصفرية في ذلك، ويبدو أن موقع سجلماسة وقيام دولة الصفرية فيها، بالإضافة إلى الدولة الإباضية في تيهرت، كان له أثر كبير في تعرف الملثمين على الإسلام،كما أن سيطرة الأدارسة على السوس الأقصى كان بمثابة ضم لجزء من سكان الصحراء إليهم، ولذلك ذكر ابن الأحمر أن صنهاجة الصحراء لما بلغهم خبر خلافة الإمام إدريس الأكبر، قدم عليه وفدهم وأسلموا على يديه[4].

ج – صعوبة بناء مسار تاريخي دقيق للإسلام عند صنهاجة الصحراء.

كل ما سبق لا يسمح لنا بتعميم الإسلام في هذه الفترة على المجال الصنهاجي، فقد كتب اليعقوبي في النصف الثاني من القرن 3هـ/9م، أن ملك أودغشت – غسط عنده – لا دين له ولا شريعة [5]، ولذلك ورد في مصادر أخرى أن إسلام صنهاجة الصحراء تم بعد هذه الفترة، فقد كتب المهلبي أنهم أسلمو في آخرالمائة الثالثة ، مدعيا أن ذلك تم على يد عبيد الله المهدي[6]،أما الزعم بأن إسلامهم تأخر إلى غاية القرن 5هـ /11م فهو بلا ريب إشارة إلى الحركة المرابطية التي رسخت الإسلام بالصحراء، أو أنه مجرد جزء من الدعاية الموحدية ضد دولة المرابطين[7].

ولا يمكننا أن نبرز بالتدقيق متى كان الإسلام هو دين زعامة الحلف الصنهاجي، ذلك أن من جاؤوا بعد اليعقوبي لم يشيرو لهذا الجانب، فابن حوقل لم يهتم بذلك عند حديثه عن أودغشت، بل اقتصر على وصف موقع المدينة وقوة أحد ملوكها، وضخامة النشاط الاقتصادي بها، أما المهلبي فأبرز الانتشار الواسع للإسلام فيها عندما

[1] - Tadeusz Lewick ,op,cit,p :212-213.

[2]– الزهري ، المصدر السابق، ص:126.

[3]– ابن خلدون ، المصدر السابق،ج 6، ص:241.

[4]– ابن الأحمر ، المصدر السابق ، ص:27.

[5]– اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص: 151. وهو يقصد بغسط أودغشت قاعدة زعامة صنهاجة الصحراء.

[6]– المهلبي، المصدر السابق ، ص:46.

[7]– مجهول، الاستبصار، مصدر سابق، ص: 209.حيث قال:"وكان إسلام قبائل الصحراء سنة 435هـ وخروجهم سنة 450هـ أو نحوها"!!. الحميري، المصدر السابق، ص:540.الذهبي،سيرأعلام النبلاء،تح:شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي،بيروت، مؤسسة الرسالة،ج18،ص:426.

وصف أهلها بكونهم مسلمين، يقرؤون القرآن ويتفقهون ولهم مساجد وجماعات[1]، والحديث عن الفقه والمساجد يدل بجلاء على مدى الحضور الإسلامي، يضاف إلى ذلك أن بعض المصادر بعد اليعقوبي استبدلت لفظه عن ملك أودغشت: "يغزو بلاد السودان"بجملة لها دلالة إسلامية لهذه الحروب:"يجاهدون السودان" [2]،بل إن البكري تحدث عن ملك الحلف الصنهاجي قبل سنة 350هـ/961م بأنه كان يأخذ الجزية من أكثر من 20 ملكا سودانيا.[3]

كل ما سبق ذكره يبرز لنا صعوبة بناء مسار تاريخي لانتشار الإسلام في هذا المجال الصحراوي، مع إمكانية التأكيد على الانتشار التدريجي له، ويمكننا إجمال أهم عوامل انتشار الإسلام بينهم فيما يلي:

– إنفتاح جنوب المغرب الأقصى على صحراء صنهاجة، بحيث لا نجد سلاسل جبلية أو حواجز طبيعية تمنع تواصلهما عبر منطقة سوس[4].

– يمثل صنهاجة الصحراء امتدادا عرقيا و لغويا لبربر بلاد المغرب، الأمر الذي يلغي الحواجز النفسية وغيرها من العوامل التي يمكن أن تعوق أو تعرقل تواصلهما بشكل إيجابي، ولعل أفصح تعبير يعكس هذه الحالة يتمثل في الطريقة السلمية التي انتقل بها الإسلام من سوس إلى الصحراء موطن الصنهاجيين الجنوبيين [5]، خاصة وأن الكثير منهم كانوا ينتجعون في بعض مدن السوس الأقصى.

– كان لقيام دول المدراريين والرستميين والأدارسة دور كبير في تواصل صنهاجة الصحراء مع حواضر المغرب الإسلامي، وهو ما قاد إلى التحول التدريجي نحو الإسلام دون الجزم بنسبة ذلك إلى دولة بعينها، أو أمير بعينه.

– كانت التجارة هي العامل الحاسم الذي قاد نحو انتشار الإسلام بالصحراء، خاصة إذا علمنا أن الكثير من هؤلاء التجار كانوا من البربر، ولأن قبائل صنهاجة الصحراء قد استفادت اقتصاديا من هذا النشاط التجاري، فقد عملت على الاقتراب من هؤلاء التجار، الذين عملوا بدورهم على المزج بين النشاطين التجاري والدعوي، فقادوا الملثمين تدريجيـــا إلى تجاوز العقائد الوثنية والقبول بالإسلام[6].

---

[1]– المهلبي ، المصدر السابق ، ص: 46.

[2]– البكري ، المصدر الســـابق ،ج2، ص:351. ونفس التعبير نجده عند: ابن خلدون ، المصدر الســـابق ،ج6، ص:242. ابن أبي زرع ، المصـــدر الســـابق ، ص: 121– 122. ابن الأحمر ،المصدر السابق ،ص: 27. ابن الخطيب ، المصدر السابق، ص: 6–7. و عند ابن حــــوقل : "وملك أودغشت هذا يخالط ملك غانة"، أنظر: ابن حوقل، المصدر السابق ، ص:97.

[3]– المصدر نفسه ،ج2، ص:345.

[4]– أحمد الشكري ،"تجربة الإسلام ببلاد السودان قبل متم القرن الـــ 16من الوحدة إلى الوحدة"، المذاهب الإسلامية ببـــلاد المغرب من التعـــدد إلى الـــوحدة ،تنسيق: حسن حافظي علوي،الدار البيضاء ،مطابع النجاح الجديدة ،2008 ، ص:149.

[5]– المرجع نفسه، ص: 150.

[6] - Tadeusz Lewicki,op.cit.p :211-213.

- تدل رواية اليعقوبي بأن زعامة الحلف الصنهاجي بقيت إلى غاية النصف الثاني من القرن 3هـ/9م تعتنق الوثنية، بينما تشير رواية البكري إلى تبنيها الإسلام قبل منتصف القرن 4هـ/10م، ومن ثم ينبغي هنا التفريق بين الإعتناق الفردي والضيق للإسلام، وكونه الدين الرسمي لهذا الحلف الذي يمكننا التأريخ له تقريبا بمطلع القرن 4هـ/10م، وربما كان هذا التحول أحد أسباب انهيار الحلف الصنهاجي الأول سنة 306هـ/918م، ومع أنني لم أجد من تبنى هذا الرأي، ولكن ترجيح نص اليعقوبي على غيره من النصوص المتأخرة كفيل بإعطاء مصداقية لهذه القراءة.

واعتبر جل الباحثين إسلام صنهاجة الصحراء في هذه المرحلة إسلاما سطحيا [1]، ربما لا يعدو كونه انتسابا إلى هذا الدين فقط، مستدلين بالحوار الذي جرى بين أبي عمران الفاسي ويحيى بن إبراهيم الجدالي، إذ "لم يجد عنده علما بشيء "[2]، و" أنه سأله عن واجبات دينه فلم يجده يعرف منها شيئا ، ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفا" [3]، وأن الأمير يحيى وصف قومه بكونهم قوم"عمهم الجهل وليس فيهم من يقرأ القرآن" [4]، كما نقلت المصادر أن عبد الله بن ياسين عندما حل بديارهم" وجد أكثرهم لا يصلون ولا يزكون وليس عندهم من الإسلام إلا الشهادتين"[5]، وبرّر قتاله لهم بعدما أنكر عليه شيخه واجاج بن زللو ذلك بكونهم:"ليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض، ولا دية لهم في الدماء، ولا حرمة عندهم للحريم، ولا توقي بينهم في الأموال"[6].

إن هذه الصورة السوداوية التي رسمتها هذه النصوص للحالة الدينية عند صنهاجة الصحراء عند مسير يحيى الجدالي للحج سنة 427هـ/1035م، لا يمكن التسليم بها بسهولة، فإن تفاعل هذه القبائل مع الإسلام طوال القرون السابقة يجعلنا نشك بأن المؤرخين كانوا بهذا الوصف يلتمسون تبريرا شرعيا لعمليات الغزو المرابطي في الصحراء، أو أنهم ينسجون الأحداث بما يعزز من أهمية الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين في رسم مسار التطورات التي عرفها المغرب الإسلامي في القرن 5هـ/11م، لأنه من الغريب جدا أن يعرف أحد ملوك السودان الكفار بأن المسلم لا يحل له الزواج بأكثر من أربعة نسوة بينما يجهل ذلك يحيى الجدالي وهو يقصد حج بيت الله!![7].

[1]- حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب و الأندلس ، القاهرة ، دار الرشاد ، 2004، ص:181. و يرى عبد الله العروي أنه كلما أوغلنا في الصحراء لم يبق من الإسلام إلا بعض المظاهر، عبد الله العروي ، المرجع السابق، ص: 271.

[2]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص: 352.

[3]- ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص122.

[4]- المصدر نفسه ، ص:122.

[5]- المصدر نفسه، ص:124.

[6]- النويري ، المصدر السابق،ج24، ص:142. الذهبي،المصدر السابق، ج8، ص:426.

[7]- البكري، المصدر السابق،ج 2، ص:361-362. حيث يذكر قصة ملك مملكة الفروين الواقعة قرب مملكة غانة من جهة الشرق، وانظر مناقشة المسألة عند: أحمد الشكري، مملكة غانة و علاقتها بالحركة المرابطية ،الرباط ، معهد الدراسات الإفريقية ،1977،ص:43-51.

أما القراءة الدقيقة للمصادر فتدل أن صنهاجة الصحراء كان لديهم في هذه الفترة نوع من الثقافة الدينية، فقد وصف زعيم الحلف اللمتوني قبل يحيى الجدالي، أبي عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتارشنا اللمتوني بأنه من أهل الفضل والخير والدين والجهاد والحج[1]، كما نصت بعض المصادر بأن الذي حج هو أحد الفقهاء اسمه الجوهر بن سكم، و ليس مستبعدا أن يكون رافق يحيى الجدالي في هذه الرحلة[2]، و أن جدالة كان فيها فقهاء انقادوا لابن ياسين أول ما حل بينهم[3]، وعندما وجدوا في أحكامه بعض التناقضات، تتعلق بمسائل فقهية دقيقة، قاموا بطرده، وكان الفقيه الجوهر هو من تزعم ذلك،[4] وكل هذا يحيل إلى ضرورة الحذر من تبني الصورة التي أعطاها أحد طلبة أبي عمران الفاسي لأهل الصحراء لما طُلِب منه المسير مع يحيى الجدالي، بقوله أن أهلها جاهلية[5]، فيبدو أن ذلك لا يعدو كونه تبريرا لرفض المغامرة بالمسير إليها لتبليغ الدين والعلم.

د – حركة المرابطين : تجديد الإسلام و ترسيخه في الصحراء.

إن الدور الحقيقي للحركة المرابطية كان تجديد الإسلام و ترسيخه وإخضاع الناس لأحكامه، ومحاربة الآراء البدعية التي كان الفقهاء المالكيون يعتبرون الوقوف في وجهها من أعظم الواجبات، لحماية الدين من الانحراف، وكانت مرحلة التربية والإعداد التي قام بها ابن ياسين بصورة صـــارمة، قد ركزت المفـــاهيم الأســـاسية للإسلام وسمحت لصنهاجة الصحراء بالتحول من عصبية قبلية تصارع على المجال، إلى عصبية قبلية تعتبر نفسها حامية للدين بمفهومه السني الصحيح[6]، وتعمل على نشره بين شعوب السودان الغربي.

لقد وصف النويري نقلا عن ابن شداد الصنهاجي[7] جهود عبد الله بن ياسين الدعوية بقوله:" يعلـــم الشريعة و يقرىء الكتاب و السنة، حتى صار حوله فقهاء، وكل من انقاد إلى الحق على طريق الورع والتقى والخشية لله والمراقبة، فرتب لهم أوقاتا للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد، فاستقام منهم خـــلق كثير وخلصت عقائدهم

[1]– المصدر نفسه،ج2، ص:351. ابن أبي زرع ،المصدر السابق، ص:121.

[2]– النويري ، المصدر السابق،ج24، ص:140. ابن الأثير ، المصدر السابق،ج8، ص:328.

[3]– ابن الأحمر ، المصدر السابق، ص:28.

[4]– البكري، المصدر السابق، ج2، ص:352-353. وانظر هذه المسائل عند: ابن عذارى ، المصدر السابق،ج4، ص:16.

[5]– النويري ، المصدر السابق، ج24، ص:140.

[6]– عن الحركة المرابطية و دور الفقهاء في قيامها وعلاقة ذلك بالصراع السني الشيعي أنظر : عز الدين عمر موسى ، دراسات إسلامية غرب إفريقية، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ،2003 ، ص:41-42.

[7]– عن دور ابن شداد في بلورة الرواية التاريخية المشرقية عن بلاد المغرب الإسلامي أنظر : علاوة عمارة،"ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط"،مجلة التاريخ العربي ،21(2002)، ص:67-96.

وزكت نفوسهم و صفت قلوبهم" [1]، وقدر ابن أبي زرع هؤلاء الذين تتلمذوا على يد ابن ياسين بألف رجل من أشراف صنهاجة[2]، وبعد ذلك حملهم مسؤولية الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

وقد عرفت الصحراء بعد ابن ياسين شخصية علمية كان لها دور كبير في ترسيخ المذهب المالكي، والمقصود بذلك هو أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي، المعروف بالمرادي وبأبي بكر الأصولي وبالحضرمي، وهو من الشخصيات الفاعلة ولكن المغمورة في التاريخ المرابطي في الصحراء، وكان قد دخل الصحراء مع أبي بكر بن عمر اللمتوني عند عودته الثانية إليها بعد سنة 460هـ/1067م، حيث ولاه القضاء في حاضرة لمتونة الجديدة آزكي، و بقي في منصب القضاء مع ممارسة التعليم والإفتاء إلى أن توفي سنة 489هـ/1095م[3].

وتشير الروايات الشفوية في صحراء صنهاجة إلى استصحاب أبي بكر بن عمر لفقهاء آخرين مع المرادي،[4]وهو ما جعل آزكي حاضرة ثقافية هامة، سرعان ما تحولت إلى مركز إشعاع في الصحراء ، لتلتحق بها حواضر أخرى مثل تيشيت وولاتة وتنبكت وغيرها، وترسّخت تقاليد التحصيل العلمي في صحراء الملثمين، ما سمح لقبائل صنهاجة الصحراء من تأدية دور الوسيط الثقـــافي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وهو الدور الذي يمكن ترجيح ازدياد فاعليته بحسب عمق وعي هذه القبائل بالإسلام ورسالته الحضارية.

4- الأوضاع الاقتصادية والثقافية في المغرب الإسلامي.

- توطئـــة:

[1]- النويري ، المصدر السابق ، ج24، ص:142.

[2]- ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص:125

[3]- له كتاب التحرير وكتاب التجريد وكتاب في السياسة السلطانية سماه: الإشارة إلى أدب الإمارة، واعتبره التادلي أول من أدخل علوم الاعتقادات للمغرب الأقصى، أنظر ترجمته في : القاضي عياض، الغنية ، تح: ماهر زهير جرار، بيروت، دار الغرب الإسلامي ، 1982 ، ص: 226-227. ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة ،تح: عبد السلام هراسن، بيروت، دار الفكر للطباعة ، 1995، ج3،ص:194. التادلي ، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ،تح: أحمد التوفيق،ط 2، الدار البيضاء، مطابع النجاح الجديدة، 1997 ، ص: 106. ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تح : إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة ، 1979، ص: 365-367. المقري، أزهـــار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقـــا وآخرون، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، 1939 ،ج3، ص:161. وعلى الرغم من أهمية الدور الذي قام به عبد الله بن ياسين في ترسيخ الإسلام و قيام دولة المرابطين، فإن الذاكرة الجماعية لسكان الصحراء احتفظت للمرادي بدور أكبر ونفوذ أو سع في مجتمع المنطقة خلال ذلك العصر مما حفظته لسلفه، ولا شك في أن بقاء المرادي والأساطير المرتبطة به في ذاكرة المجتمع الصحراوي عبر الأجيال والقرون، أمر يدل على عمق الدور الذي لعبه في تغيير عقليات ومعارف أهل تلك المنطقة.أنظر: النايي ولد الحسين ، المرجع السابق، ص:378.

[4]- الخليل النحوي ، بلاد شنقيط المنارة والرباط،تونس ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1978، ص:65.

يرتبط بضبط المجال الجغرافي لبلاد المغرب الإسلامي في الفترة الزمنية المدروسة الكثير من الإشكالات، ويعود ذلك إلى الخلاف بين الجغرافيين في التزام البعد الطبيعي أو السياسي أو السكاني من أجل تحديده، وليس الهدف في هذا العنصر مناقشة هذه الآراء[1]، ونكتفي بالقول أن المقصود ببلاد المغرب في هذه الدراسة المجال الذي تمثل الضفة الجنوبية للبحر المتوسط حدوده الشمـــالية، والمحيط الأطلسي حدوده الغربية، بينما تمثل مدينة برقة إلى مـــا يليهـــا جنوبا حده الشرقي، أمـــا الحد الجنوبي فهناك من نزل به إلى بلاد السودان، والبعض حـــده بالصحراء، وهذا الأخير هو مـــا اعتمدته، من خلال اعتبـــار صنهـــاجة الصحراء حلقة وصل بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي.

وقد شهد هذا المجال في الفترة المدروسة الكثير من التحولات السياسية، فقد أعقبت مرحلة الفتوحات بداية حروب داخلية حمّلها المؤرخون أبعادا مذهبية مع أنها ترتبط بالإضافة إلى ذلك بأبعاد اقتصادية وإثنية واجتماعية ، انتهت إلى قيام الدولة المدرارية والرستمية والإدريسية والأغلبية، ثم أفلح الكتاميون وصنهاجة الشمال في إقامة الدولة الفاطمية بمرجعية شيعية إسماعيلية، نتج عنها اضطرابات وصراعات كبيرة في القرن 4هـ/10م، تدخل فيها أمويو الأندلس لمنع توسع المشروع الاسماعيلي إلى بلادهم، ثم مالبثت الدولة الفاطمية أن فقدت تبعية بلاد المغرب لها ولمشروعها بعد انشقاق الحماديين والزيريين، ليشهد القرن 5هـ/11م ظهور دولة المرابطين على يد أكبر قبائل صنهاجة الصحراء، دون أن يتمكنوا من توحيد بلاد المغرب تحت سلطتهم ، واستمر حكم صنهاجة الشمال في المغربين الأدنى والأوسط متقاسمين النفوذ والسيطرة مع القبائل العربية الهلالية التي تواجدت بالمنطقة منذ منتصف القرن 5هـ/11م، وحاول الموحدون في القرن 6هـ/12م تحقيق وحدة سياسية بالمنطقة، وهو المشروع الذي اصطدم بالكثير من الثورات وعلى رأسها ثورة بني غانية المسوفيين[2]، وهكذا يظهر الوضع المضطرب لبلاد المغرب، وخلف هذا الاضطراب الكثير من الدوافع السياسية والمذهبية والاقتصادية والاثنية والطبقية .

أ- الأنشطة الاقتصادية:

[1] - أنظر حول هذا الخلاف: الإصطخري، المصدر السابق، ص: 36-37، إبن حوقل ، المصدر السابق، ص: 65-67، مجهول، حدود العالم، مصدر سابق، ص: 133، المقدسي،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ، مطبعة بريل ،1909، ص:62، الزهري، المصدر السابق، ص: 106، ويمكن الإطلاع على مناقشة مستفيضة لإشكالية حدود مجال بلاد المغرب عند: محمد بن عميرة ، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية،2008،ص:11-24

[2] - أنظر عن هذه الثورة: واعظ نويوة، أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية (580هـ-1184م/633هـ-1235م) ، مذكرة ماجستير، إشراف مبارك بوطارن، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة- الجزائر، 2008.

رغم الوضع السياسي المضطرب، فقد استطاع سكان المغرب الإسلامي في الفترة المدروسة من ممارسة أنشطتهم الاقتصادية المختلفة، زراعة وصناعة حرفية وتجارة، وإذا كان النشاط الزراعي يرتبط دائما بالوضع المناخي ونوعية التربة، فإن الفتن المتلاحقة قد أثرت فيه، فانتقل مركز ثقله منذ مطلع القرن 6هـ/12م من المناطق الشرقية إلى الغربية، أما النشاط الحرفي فقد تركز غالبا في المدن، وتنوع بين صناعـــات نسيجية ومعدنية وفخارية وغيرها[1]، وشكلت التجارة نشاطا هاما لسكان المغرب الإسلامي، الذي ارتبط بطرق تجارية مع المشرق والأندلس والدول الأوروبية وبلاد السودان ، وتعتبر هذه الأخيرة أهم منطقة يقصدها التجار لما فيها من عظيم الربح[2].

وقد كانت الكثير من مدن الغرب الإسلامي تمثل مراكز هامة للتجارة العابرة للصحراء، فبعضها يوفر بعض المنتجـــات المطلوبة لدى السودانيين، مثل المنسوجـــات بأنواعهـــا المختلفة، بالإضـــافة إلى المصنوعـــات الحديدية والنحـــاسية والزجـــاجية والجلدية، وهو مـــا يدفع التجـــار للعبور عليها، وبعضها الآخر يمثل مناطق انطلاق، لاختراق مجالات صنهاجة الصحراء باتجاه مناطق السودان الغربي، والبعض الآخر يؤدي الدورين معا.

فمن المدن التي وفرت للتجار بعض سلعهم للإتجار بها مع حواضر صنهاجة الصحراء أو السودان الغربي نذكر مثلا: مدينتي القيروان ورقادة بالمغرب الأدنى، ومدينة تيهرت [3] بالمغرب الأوسط التي ازدهرت فيها الكثير من الصناعات الحرفية في العهد الرستمي، ومدينة فاس بالمغرب الأقصى، التي كانت نقطة التقاء الكثير من الطرق

[1]- عن الصناعات الحرفية بالمغرب الإسلامي، يمكن العودة إلى: كمال صادقي، الصناعة الحرفية بالمغرب الأوسط في عهد بني حماد (398-547هــ/1007-1152م)، مذكرة ماجستير، إشراف: إسماعيل سامعي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2007.

[2]- صدرت الكثير من الدراسات والأبحاث عن الأنشطة الاقتصادية ببلاد المغرب، تناولت دولا بعينها أو إطارا زمنيا محددا ، كما أن بعضها اقتصر على أحد أنماط النشاط الاقتصادي دون غيره، ومن أمثلة ذلك: فاطمة بلهواري، النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع هجري/ 10م، أطروحة دكتوراه، إشراف : عبد الحميد حاجيات وغازي مهدي جاسم الشمري، جامعة وهران، 2005، بلبشير عمر، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 6إلى 9هــ/ 12-15م من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه، إشراف: غازي مهدي جاسم الشمري، جامعة وهران، 2010. محمد أحمد أبو صوة، مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي، مالطا،منشورات ELGA،1997. عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، القاهرة، دارالشروق،1983. الحبيب الجنحاني، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب والأندلس،ط 2، بيروت،دار الغرب الإسلامي، 1986.إبراهيم القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، بيروت، دار الطليعة، 2002. إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية (160-296هــ/777-909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية،ط3، الجزائر، منشورات ألفا،2010. جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، يوسف عابد، الموحدون في بلاد المغرب (515هــ-595هــ/1120م-1199م) دراسة في الحيـــاة الاقتصادية والاجتماعية ، أطروحة دكتوراه ، إشراف عبد العزيز فيلالي،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،2007. إسماعيل سامعي، "الحركة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال صورة الأرض لابن حوقل 4هــ/10م"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،20(2006)،171-188.

[3]- عن النشاط الحرفي بمدينة تيهرت ينظر: إبراهيم بحاز، المرجع السابق،ص: 204-215.جودت عبد الكريم يوسف،المرجع السابق،ص:125-192

التجارية، حيث ازدهرت الأنشطة الحرفية بها في الفترتين الموحدية والمرابطية،[1] بعد ركود القرن 4هـ/10م بسبب الصراع الزناتي الصنهاجي أو الفاطمي الأموي، بالإضافة إلى مراكش التي شهدت نشاطا اقتصاديا كبيرا خاصة في الفترتين المرابطية والموحدية، كما أن مدن نول لمطة وأغمات كانت توفر بعض السلع الضرورية للتجار، إضافة إلى مستلزمات السفر عبر مجالات صنهاجة الصحراء الشاقة.

أما المدن التي مثلت مراكز التقاء للقوافل من أجل دخول الصحراء الكبرى الموصلة إلى مدن السودان الغربي، فمنها غدامس في المغرب الأدنى، ووارجلان في المغرب الأوسط، أما أهمها في الفترة المدروسة فهي مدينة سجلماسة، والتي حافظت على هذا الدور إلى غاية القرن 5هـ/11م[2]، بالإضافة إلى مدن نول لمطة وتامدلت، اللتين استفادتا من تراجع دور سجلماسة في العهد الموحدي بسبب اضطراب الأوضاع وتوالي الثورات من المناوئين لمشروع الموحدين الفكري والسياسي، ثم عادت الريادة لمدينة تلمسان في فترات لاحقة.

وهكذا فقد كانت القوافل المنطلقة من مدن المغربين الأدنى والأوسط مثل برقة وأوجلة وإجدابية وقفصة وتوزر والقيروان وبجاية والمسيلة وأشير وتنس ووهران وتلمسان، بالإضافة إلى قوافل تجار الأندلس، كثيرا ما تنتهي إلى سجلماسة ونول وأغمات وتامدلت، لما يتميز به الطريق الغربي من امتياز العبور على الممالح الموجودة في مجالات صنهاجة الصحراء من أجل حمل الملح لمبادلته بسلع السودان الغربي، بالإضافة إلى انتهاء المسالك الغربية عند أهم المدن السودانية فاعلية في النشاط التجاري مع بلاد المغرب مثل: غانة وتكرور وسلى وكوكو غيرها.

ب- الأوضاع الثقافية:

على المستوى الثقافي، انتقل سكان بلاد المغرب تدريجيا من الديانات الوثنية التقليدية إلى الإسلام، وهذا الموضوع لا يزال يحتاج إلى دراسات جديدة تتجاوز الطرح التقليدي الذي يربط غالبا بين الغزو والإسلام،ذلك أن التحول السياسي لا يستلزم بالضرورة تحولا ثقافيا، لأن هذا الأخير يحتاج إلى وقت كاف من أجل التبلور، إذ تمثل الفترات المتقدمة حالات من الجمع بين النمطين الثقافيين القديم والجديد، وكان الإسلام الذي انتشر ببلاد المغرب متمذهبا منذ مطلع القرن 2هـ/8م، إذ عرف المذاهب الخارجية والشيعية والسنية والمعتزلة والإرجاء، وغالبا ما

[1]- أنظر حول الموضوع: جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين 448هـ/1056م إلى 668هـ/1269م دراسة سياسية وحضارية، الإسكندرية ، دار الوفاء ،2001،ص: 199-238.

[2]- حول الأوضاع الاقتصادية بسجلماسة أنظر: الحبيب الجنحاني،"الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة عاصمة بني مدرار"، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية – مجموعة البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكري-، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000، ص: 149-165.

مثلت الصراعات المذهبية السبب الأبرز ظاهريا للفتن والحروب والاضطرابات [1]، وقد استطاع المذهب المالكي أن يسود بالتدريج في أغلب هذا المجال، وتراجعت المذاهب الخارجية التي كانت لها الريادة في أول الأمر، كما تراجع المذهب الشيعي بعدما فقد السلطة التي تحميه وتنشره[2].

أما على المستوى العقدي فقد استطاعت الأشعرية أن تنتشر في أغلب مناطق بلاد المغرب، خاصة بعد تبني الفقهاء المالكية لآراء أبي الحسن الأشعري وتلامذته، وقد استفاد المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية من الدعم الذي وفرته لهما السلطة السياسية في الكثير من الدول المتعاقبة على مجالات المغرب الأدنى والأوسط والأقصى [3]، ورغم محاولة الدولة الموحدية إحلال المبادئ التومرتية التلفيقية محل المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، فإنها انتهت إلى فشل ذريع، رغم ما وفرته للمشروع من جيوش الطلبة وحزمة الرسائل والوصايا والأوامر والزواجر الموجهة من الخلفاء والولاة إلى الفقهاء والعامة، قبل أن يبسط تيار التصوف ظلاله على المنطقة.

و لم يكتف المغاربة بمجرد تبني الآراء الفقهية والكلامية الوافدة من المشرق، بل أسهموا في هذا الجدل الفكري من خلال المناظرات وحركة التأليف، التي مكنتهم من تقديم إضافات قيمة لمكتبة العلوم الشرعية، وهي الكتب التي أصبحت بالتدريج أساس التعليم بالمغرب الإسلامي، ثم انتقلت إلى حواضر صنهاجة الصحراء، ومنها إلى السودان الغربي، لتدمج هذه المناطق في منظومة فكرية واحدة، مثلت إحدى أهم صور المثاقفة في العصر الوسيط.

إن ما قدمناه هنا ليس المقصود منه دراسة التحولات الاقتصادية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي، في الفترة المدروسة ، لأن ذلك يحتاج إلى أبحاث مختصة، ولكن من أجل تقديم صورة موجزة عن المنطقة، لكونها المجال الذي انطلقت منه القوافل التجارية لتخترق مجالات صنهاجة الصحراء باتجاه السودان الغربي.

---

[1]- حول الصراع المذهبي ببلاد المغرب ينظر: عبد العزيز المجدوب، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تونس، الدار التونسية للنشر، 1975، و لم تسلم المذاهب السنية ذاتها من صراع بيني أظهره الصراع بين المالكية والأحناف، أنظر حوله: إسماعيل سامعي، دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى الخامس الهجري (8-11)م، عين مليلة، دار الهدى،2006،ص:195-242.

[2]- عن انتشار المذهب المالكي كتبت العديد من الأبحاث والدراسات من أهمها : نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي، تونس، منشورات تبر الزمان،2004.

[3]- عن انتشار العقيدة الأشعرية ينظر: مغزاوي مصطفى، دور العامل السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي و مغربه (من منتصف القرن 5هـ/11م إلى بداية القرن 8هـ/14م)، مذكرة ماجستير، إشراف: خالد كبير علال، جامعة الجزائر، 2008. يوسف احنانا، تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2003. إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب، دخولها،رجالها تطورها وموقف الناس منها،الجزائر، دار قرطبة،2006.

5- الســـودان الغربي :المجال و السكان.

أ- مجال بلاد الســـودان الغربي.

يقصد بلفظ السودان بلاد السود، أي الجنس الأسود، والنسبة هنا بالسمة والجهة، وذلك في مقابلة البيضان، واعتمادا على سبب التسمية هذا، فإن اللفظ يشمل جميع المناطق التي تلي الصحراء الكبرى شمال خط الاستواء في الجنوب، وتصل إلى المحيط الأطلسي غربا والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا [1]، وهو ما نجده في بعض المصادر، لكن أغلبها ضيق مفهوم اللفظ عندما حدد تسميات أخرى لمجالات محددة، هي الحبشة والنوبة وأرض الزنج والبجة، وكلها تقع إلى الشرق في محاذاة البحر الأحمر والحدود الجنوبية لمصر[2]، وهو ما سمي بالسودان الشرقي.

وبالتالي صار لفظ بلاد السودان مخصوصا بالسودان الغربي والأوسط أحيانا، وغالبا بالسودان الغربي فقط،فهو عند ابن حوقل: "حد له ينتهي إلى البحر المحيط وحد له إلى برية بينه وبين بلاد المغرب، وحد له إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحد له ينتهي إلى البرية التي لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر" [3]، وهو نفس المجال الذي وظف فيه البكري هذا المصطلح في مسالكه، وبذلك تم تجاوز الخلط الذي وقع في بعض المصادر المتقدمة[4].

وبعد استقراء أقوال المؤرخين والجغرافيين العرب، نستطيع أن نصل إلى تحديد قريب من الواقع، وهو أن المنطقة المقصودة بلفظ السودان الغربي تطل غربا وجنوبا على المحيط الأطلسي، وتحدها الصحراء الكبرى شمالا، ومن الشرق تتاخم بحيرة تشاد عند الحدود الغربية لمملكة برنو [5]، وباختصار تشمل المنطقة اليوم ما يعرف بحوض السنغال و غمبيا و فولتا العليا و حوض النيجر الأوسط [6]، وبالتالي فهذا المجال يمثل المناطق الجنوبية المقابلة لمجالات قبائل صنهاجة الصحراء المنتشرة في المناطق الغربية من الصحراء الكبرى، وتنبغي الإشارة هنا إلى جملة من الملاحظات:

---

[1]- مجهول ، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح : يوسف الهادي، القاهرة ، الدار الثقافية للنشر ، 1999، ص:147.القلقشندي ، المصدر السابق، ج5، ص:273. Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:6.

[2]- في تحديد مجالات الحبشة و النوبة و البجة و أرض الزنج أنظر : الإصطخري ، مسالك الممالك ،ليدن ،مطبعة بريل ،1927، ص:11، ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:25. مجهول، حدود العالم ، مصدر سابق ، ص:144. الزهري ، المصدر السابق ، ص:119،122،123.

[3]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:24-25.

[4]- ومن ذلك التداخل بين لفظي الحبشة والسودان عند ابن خرداذبة وابن الفقيه، أنظر: ابن خرداذبة ، المسالك و الممالك ، ليدن ، مطبعة بريل ، 1889. ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص:80.

[5]- الهادي المبروك الدالي، التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية ، 1999، ص:19. ومملكة بورنو هي إحدى أهم ممالك السودان الأوسط، كانت مجالاتها حول بحيرة تشاد، وامتدت في بعض فترات قوتها لتشمل مجالات واسعة من الصحارى الواقعة إلى الشمال من البحيرة.

[6]- عبد القادر زبادية ، الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989، ص:11.

تتعلق **الأولى** بعدم وضوح الحدود الشرقية لمجال السودان الغربي وضوحا تاما، لاستمرار نفس الطبيعة الجغرافية والتركيبة البشرية المتداخلة بسبب الهجرات الدائمة، كما أن الحدود الشمالية لم تكن أبدا ثابتة بسبب طبيعة العلاقة مع صنهاجة الصحراء، ولذلك كان مجال السودان الغربي أوسع بعد قيام ممالكه القوية، خاصة مملكة مالي ، حيث صارت المصادر العربية تلحق المناطق الصحراوية المسيطر عليها من الممالك السودانية بمجال بلاد السودان .

أما **الثانية** فتخص مصطلح بلاد التكرور، الذي يوظف أحيـــانا ويقصد به جزء فقط من منطقة السودان الغربي، وبالضبط الناحية الغربية المحاذية للمحيط الأطلسي ومنطقة فوتاتورو، وهي مجال سلطنة التكرور،كما وظفته المصادر المغربية بعد البكري والسودانية بما يحيل إلى نفس مدلول السودان الغربي [1]، وهو الاستعمال الذي استمر لفترة طويلة إذ نجد صداه إلى غاية القرن 10هـ/16م عند السيوطي (ت 911هـ/1505م)[2].

و**الثالثة** هي ضرورة الانتباه إلى أن هذا المجال الواسع لم يكن متساويا في الفعالية الاقتصادية والثقافية والسياسية، لذلك ينبغي التأكيد بأن نقطة ارتكازه هي حوض السنغال وحوض النيجر الأوسط[3].

ب – الفضاء الجغرافي[4].

يمكننا أن نحدد باختصار أهم المظاهر التضاريسية في منطقة السودان الغربي فيما يلي:

– طغيان ظاهرة الانبساط في المظهر الطبيعي لبلاد السودان، حيث لا نجد انكسارات عميقة وواسعة،أو مرتفعات تضاريسية تحجب مناطق السودان بعضها عن بعض، وأهم المرتفعات هي منطقة الفوتاجالون، حيث لا تتعدى أعلى قمة 1500م (جبل مالي حاليا)، وهذه المنطقة الجبلية كانت مهمة سياسيا في تاريخ بلاد السودان خلال العصر الوسيط، وما نخلص إليه هو أن ظاهرة الانبساط شكلت عاملا إيجابيا في عملية التواصل بين السودانيين في العصر الذي نؤرخ له، إذ أسهمت في تيسير عمليات التبادل الاقتصادي و التفاعل الثقافي بينهم [5]، كما أنها كانت عاملا مسهما في استقطاب التجار من صنهاجة الصحراء ومن بلاد المغرب الإسلامي، الذين كانوا لا يكتفون ببلوغ مدن السودان الغربي القريبة من الصحراء، بل يصلون إلى العديد من المناطق الداخلية.

---

[1] - Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:4-5,90.note.6,185.note.1.

[2]- السيوطي ، الحاوي للفتاوى في الفقه وعلوم التفسير و الحديث و الأصول و النحو و الإعراب و سائر الفنون، تح:عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، بيروت ، دار الكتب العلمية، 2000،ج1ص:278–281، وذلك في رسالته التي عنوانها: "فتح المطلوب المبرور و برد الكبد المحرور في الجواب على الأسئلة الواردة من تكرور"، و انظر الإشكالات المتعلقة باستعمال هذا المصطلح عند : أحمد الشكري ،الإسلام و المجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230م–1430م)، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، 1999، ص:58–59،68–75.

[3]- شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر، القاهرة ، دط، 1998، ص:5.

[4]- للتوسع في هذا المجال ينظر: Jean Suret Canal, op. cit. p: 15-16.

[5]- أحمد الشكري ،المرجع السابق ،ص:60.

– تعتبر الشبكة الهيدروغرافية أهم عنصر يكسر المنظر الطبيعي لبلاد السودان، وتتمثل أساسا في نهري النيجر و السنغال وروافدهما، التي تجري تقريبا في الاتجاهات كلها، وهما معا يصبان في المحيط الأطلسي، يبلغ طول الأول 4200كلم، أما الثاني فطوله 1700كلم، وقد كان لهما دور هام في تاريخ بلاد السودان نظرا لصلاحيتهما للملاحة والصيد واستغلال مياههما في النشاط الزراعي[1].

ج– سكان السودان الغربي[2].

رغم أهمية التأريخ للسكان ومجالاتهم، فإن المصادر العربية لم تهتم بهذا الجانب عند الحديث عن بلاد السودان الغربي ما عدا بعض الإشارات القليلة، التي لا تسمح لنا بتقديم تصور متكامل عن الموضوع الذي يحتاج إلى ضبط نوع من التوزيع السكاني، من أجل التعرف على الجماعات السودانية التي كان لها تواصل مع صنهاجة الصحراء، والتي تداخل مجالها مع المجال الصحراوي، مما أنتج نوعا من التمازج صار من العسير معه التمييز بين ساكنة بعض الحواضر الصحراوية من الصنهاجيين والسودانيين [3]، وهذا التمازج كان من أهم العوامل التي سمحت للكثير من قبائل صنهاجة الصحراء من ربط علاقات متينة مع المناطق السودانية، مثل التكرور والسوننك والسنغي، وبالتالي قاموا بدور الوسيط الاقتصادي، ونقلوا التحولات الثقافية التي شهدها مجالهم إلى سكان السودان الغربي.

كما أن الهجرات المستمرة للسودانيين طوال العصر الوسيط بسبب الحروب وغيرها، يؤدي إلى عدم انضباط المجالات الخاصة بكل مجموعة سكانية، وبالتالي فإن الركون إلى الواقع المتأخر عن الفترة المدروسة يعتبر قفزا على الحقائق التاريخية واستغلالا سيئا للمعلومات، خاصة إذا علمنا أن التمازج والإخضاع أدّيا إلى بروز مجموعات جديدة لا تمتد بجذورها إلى العصر الوسيط، بل إلى فترات حديثة.

ومن معوقات هذه الجزئية أيضا، صعوبة اعتماد تصنيف معين للمجموعات السكانية في غرب إفريقيا، إذ نجد دراسات تتحدث عن سلالات، وأخرى عن شعوب، وثالثة عن قبائل،كما تحضر النسبة المكانية والتبعية السياسية أحيانا، ورغم ذلك يمكننا بيان أهم هذه المجموعات السكانية باختصار شديد:

---

[1]- أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني، مرجع سابق، ص:60.

[2]- كثيرا ما تناقش الدراسات حول السودان الغربي إشكالية أصل السودانيين ، ولا تبدو هناك أهمية لطرح هذه المسألة في هذه المذكرة التي ينظر حولها :

Jean Suret Canal, op.cit.p:57-58.

Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:33-35.

Maurice Delafosse, Les noire De L'Afrique, op.cit.p:7-8.

[3]- يرى ريمون موني (R.Mauny) أن التهديد المستمر الذي كان السودانيون يتعرضون له من قبل صنهاجة الصحراء، هو سبب تشكل الدول والممالك السودانية، وهو ماجعله يؤكد على الأصل العسكري للدول السودانية. أنظر:

Raymond Mauny,Les siècles obscurs de L'Afrique Noire Histoire et archèology, Paris,Fayard, 1970,p:142.

1- مجموعات حوض نهر السنغال (فوتاتورو) [1]: تضم هذه المجموعة كل من التكرور [2]، والجلف(ويسمون الولوف أيضا)[3] والسيرير[4] والفلان[5]، وكان التكرور أقوى من غيرهم، وتمكنوا من تأسيس دولة لهم كانت سباقة لاعتناق الإسلام والعمل على نشره والجهاد في سبيله، كما كانت لهم علاقات مع قبائل صنهاجة الصحراء خاصة لمتونة وجدالة، كما ارتبطت بنشاط تجاري هام مع المغرب الإسلامي.

2- مجموعات الماندي: كانت تستوطن المجال الواقع بين أعالي السنغال في الغرب وبحيرات النيجر في الشرق ونطاق الغابات في الجنوب، أما في الشمال فكان بعضها يتوغل أحيانا داخل المجال الصنهاجي [6]، ومن أهم الجماعات المنتمية للماندي نجد السوننكة [7] الذين أسسوا مملكة غانة، وهم أهم مجموعة سودانية في التفاعل مع صنهاجة الصحراء، ومع تجار المغرب الإسلامي، لأن مجالها ضم العديد من مناطق الذهب، والمالدينغ [8] المؤسسين لمملكة مالي، الذين توسعوا منذ القرن 7هـ/13م في مجالات الملثمين، وشهدت دولتهم أهم التحولات الثقافية.

3- مجموعات النيجر الأوسط: يعتبر السنغي أهم مجموعة في هذه المنطقة، وكانوا في العصر الوسيط يعيشون على طول ثنية نهر النيجر خلال منطقة البحيرات ومنطقة تنبكت إلى مدينة جاو (كاو)، وقد أسسوا مملكة كوكو وهي من أقدم الممالك السودانية، ثم قهروا المالدينغ وأسسوا مملكة سنغاي الكبرى التي صارت أكبر دولة في السودان الغربي إبان القرنين 9و10هـ/15و16م[9]. (أنظر الخريطتين رقم3و4ص:130من هذه الدراسة)

---

[1]- عن هذا اللفظ معنى و دلالة ينظر :عمر محمد صالح الفلاني "عمر با"، الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ص:53-58.

[2]- عن التكرور وأصلهم ومجالاتهم و أنشطتهم الاقتصادية ينظر : البكري ، المصدر السابق ،ج 2، ص: 359-360، الدمشقي ، المصدر السابق ، ص:267-268، إلهام محمد علي ذهبي، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي، الرياض ، دار المريخ 1988، ص:28.
Maurice Delafosse, Les noire De L'Afrique, op.cit.p:16-17.

[3]- ينظر حول أصلهم ومجالاتهم: نبيلة حسن محمد ، المرجع السابق،ص:108.
Guy Nicolas, "L'enracinement ethnique de L' islam au sud du Sahara Ètude comparèe", Cahiers d'études africaines,Vol.18,71(1978) p :363-364.

[4]- حول السرير يراجع: حسن أحمد محمود ، الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا ، مرجع سابق ، ص:204.

[5]- حول الإشكاليات المتعلقة بالفلان وأصولهم ومجالاتهم يراجع: ك. مادهو بانيكار ، المرجع السابق، ص: 51-60. عثمان برايما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، القاهرة ، دار الأمين2000، ص316-332. النابي ولد الحسين ،المرجع السابق ، ص:118-123.

[6]- حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص:204.

[7]- حول السوننكة ومجالهم يراجع: النابي ولد الحسين ، المرجع السابق،ص: 114 وما بعدها، الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق، ص:23.
Guy Nicolas, op.cit.p :358-359.

[8]- حول الماندينغ ومجالهم ينظر: أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني ،مرجع السابق، ص:171، نبيلة حسن محمد ، المرجع السابق، ص:109.

[9]- عن مجال السنغي ودولة كوكو يراجع: نبيلة حسن محمد : المرجع السابق: ص: 111، أحمد شلبي ،موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية،ط4، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية1983،ج6،ص:70.
Tadeuze Lewicki," L'Ètat nord-africain de Tàhert et ses relations avec Le soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle"' Chahier d'Ètudes Africaine,Vol.2.Chaier 8 (1962) p :518-521.

6- الإمكانيات والأنشطة الاقتصادية في السودان الغربي.

إن دراسة الإمكانيات والأنشطة الاقتصادية للسودان الغربي يعد أمرا ضروريا لتلمس الواقع المحرك للصلات التي ربطها مع صنهاجة الصحراء، ومن خلالهم مع المغرب الإسلامي، ذلك أن التبادل الذي كان يتم بين هذه الأطراف كان وليد الحاجة لتبادل السلع، من أجل تغطية كل طرف لحاجياته الاستهلاكية.

أ- الزراعـــة:

يؤكد هوبكنز(Hopkins) بأنه طوال فترات التاريخ كان سكان غرب إفريقيا يكسبون معاشهم من الأرض، وأن الزراعة كانت النشاط الأساسي في أغلب المنطقة، إذ لا يمكن للسكان التخلي عن الفلاحة بغية الدخول في مهن أخرى مثل الصناعات الحرفية والتجارة، تمارس عادة على أساس موسمي ولبعض الوقت فقط، وعلى النقيض من ذلك فإن الفائض الزراعي كثيرا ما جعل من الممكن تمويل أنماط إضافية من المشروع الإنتاجي[1].

الإنتاجي[1].

وبالعودة إلى المصادر نجدها تحدثنا عن بعض المزروعات التي يعتمد عليها سكان بلاد السودان في معاشهم، وفي مقدمتها الذرة، التي ورد الحديث عن زراعتها في عدة مدن مثل: غانة وأوغام وسلى وتكرور وغربيل ومداسة وزغاوة[2]، ولا نجد منتجا يتكرر مثل الذرة في المصادر، وهو ربما ما دفع القزويني إلى اعتبارها طعام أهل السودان جميعا[3]، كما ورد الحديث عن زراعة اللوبياء والفـــول السوداني والقطـــاني والسمسم والأرز [4]، والبصل والقرع والقرع والبطيخ الذي يعظم عندهم كثيرا[5]، و الفقوص العنابي الذي لا مثيل له حسب ابن بطوطة[6].

1- أ.ج.هوبكنز ، التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، تر:أحمد فؤاد بلبع، الكويت،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1998، ص:54.

2- أنظر مثلا : ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص:87. البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:368. الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص:18،20. الحميري، المصدر السابق ، ص:134. وانظر مواقع بعض هذه المدن في الخريطة رقم 4ص:130من ملاحق هذه الدراسة، مع الإشارة إلى أن الكثير من المدن السودانية المذكورة في المصادر لم يتمكن المختصون من تحديد موقعها حاليا.

3- القزويني ، آثار البلاد و أخبار العباد ، بيروت، دار صادر، دت ، ص:18-19.

4- الزهري ، المصدر السابق ، ص:123. الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:25،111. ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص87.

5- الإدريسي، المصدر السابق ،ج1، ص:20-21.

6- ابن بطوطة ، المصدر السابق، ص:702.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن نتائج عمليات التنقيب التي قام بها آل ما كنتوش في مدينة "جنى" تتوافق مع ما ورد في المصادر العربية، إذ عثروا على قشور أرز إفريقي وحبوب الدخن ، وحبوب أخرى بكل أنحـــاء المدينة، وتوصل المنقبان إلى براهين على أن أقدم استزراع للأرز في إفريقيا يتراوح تاريخه بين 40 و400م[1].

أما الفواكه، فقد أشار الإصطخري إلى وجود عامة ما يعرف ببلاد الإسلام عندهم، ولكنهم لا يطعمونهـــا، بينما ذكر الإدريسي بأنهم لا يعرفون الفواكه الرطبة، ولكن إشارات الدمشقي نبهت إلى أنواع من الأشجار الخاصة بمنطقتهم تثمر ثمرا حلوا، منها نوع يشبه شجر الأراك يحمل ثمرا في قدر البطيخ، وشجر آخر يسمى "ريكان" ثمره كالتمر في غاية الحلاوة، ونبه الزهري إلى وجود كثير من قصب السكر وشجر القطن في كوكو، والذي سمح بتطوير الصناعة النسيجية القطنية بالمدينة[2].

وقد كان هذا النشاط الزراعي يتم على ضفاف الأنهار، وكان أغلبه نشاطا معاشيا، وقد دل على ذلك نص البكري متحدثا عن أهل غانة بأنهم:"يزدرعون مرتين في السنة"[3]، وبالتالي فلم يكن لديهم نشاط زراعي كبير يمكن الاتجار بفائضه، ورغم ذلك فإن المؤلف ذاته يتحدث عن تصدير بلاد السودان للذرة وســـائر الحبوب إلى تادمكة[4]، وهو دليل على وجود نشاط تجاري هام للحبوب في بعض المناطق، ولكنه يبقى استثنائيا،إذ تبقى النتيجة النتيجة الواضحة أن النشاط الزراعي في غرب إفريقيا كان مستغرقا في نمط تحقيق الكفاف فقط على حد تعبير هوبكنز(Hopkins).[5]

ب- الثروة الحيوانيــــــــة:

ضمت بلاد السودان ثروة حيوانية ذكرتها بعض المصادر العربية، ففي حديث البكري عن مدينة سلى – وهي من مدن شمال السودان الغربي- ذكر وجود أعداد كثيرة من الأبقار لديهم، و لكنهم لا يربون الماعز والضأن، أما في يرسني على البحر المحيط جنوبا فتوجد الماعز القصار، وعند الإدريسي أن بلاد لملم يربون الإبل والماعز ويعيشون من ألبانها، وعند الحميري أن أكثر حيوانات أهل سلى و تكرور الجمال والماعز [6]، كما أن الخيل كان موجودا في

---

[1]- فيكتور ياشيرو ، تاريخ إفريقيا القديمة ، تر: محمد علي النقراشي، القاهرة ، نهضة مصر للطباعة و النشر، 2008، ص50. وانظر موقع المدينة في الخريطة رقم 4ص:130 من ملاحق الدراسة.

[2]- الإصطخري ، المصدر السابق ، ص: 40. المقدسي ،المصدر السابق، ص:241. الإدريسي ، المصدر السابق ،ج 1، ص:20. الدمشقي ، المصدر السابق ، ص:40. الزهري ، المصدر السابق ، ص:123.

[3]- البكري ، المصدر السابق ،ج 2، ص:366. الدمشقي ، المصدر السابق ، ص: 240. ومعنى يزدرع: أي يزرع زرعا خاصا به، أنظر:الأزهري ، تهذيب اللغة ، تح: محمد عوض مرعب ، بيروت، دط ،2001، ج2، ص:79.

[4]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:370-371. و التعبير هنا يطرح إشكالية المجال : هل تادمكة من الصحراء أم من بلاد السودان؟

[5]- هوبكنز ، المرجع السابق، ص:70.

[6]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:360،366. الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:23. الحميري ،المصدر السابق ، ص:134.

غانة ولكنه نوع قصير جدا [1]، ولذلك كانت تستورد خيل بلاد المغرب لأغراض الزينة والأبهة والحروب، كما توجد لديهم الحمير بكثرة، حيث يستعملها السكان لقضاء حوائجهم داخل البلاد، ومن الثروة الحيوانية أيضا البغال، وقد شاع استعمالها لأنها أكثر تحملا للأثقال من الحمير[2].

إلى جانب كل ماسبق، عرف السودان الغربي في هذه المرحلة تربية النحل، وقد كان إنتاجها كبيرا، إلى الحد الذي وجه جزء منه للتصدير[3]، وأنواع مختلفة من الدواجن لا ريب أنها كانت للاستهلاك الخاص .

ويعتقد هوبكتر (Hopkins) في دراسته لنشاط الرعي في إفريقيا الغربية، أن تربية الماشية بدأت تتطور منذ القرن10م، ولكنها لم تكن تمارس على نطاق واسع إلا في الجزء الشمالي من المنطقة، والجزء الجنوبي من الصحراء، معللا ذلك بسلامة هذه المناطق من الأمراض التي تفتك بالماشية، مثل مرض النوم بالإضافة إلى توفر المراعي[4].

وقد مارس السودانيون صيد الحيوانات البرية من أجل الاستفادة منها في الغذاء أو التجارة ، وقد كانت هذه الحيوانات موجودة في الغياض المحيطة بالأنهار أو في الغابات الاستوائية جنوبا ومنها:الأسد والنمر،والزرافة والغزلان والضبعان وحمار الوحش و الفيل[5]، ويعتبر الصيد النشاط الأكثر حضورا وخاصة في موسم الجفاف.

كما مثلت الثروة السمكية جزءا من معاش القاطنين على ضفاف الأنهار أو بجوار البحر، وقد تحدثت المصادر عن أنواع منها[6]، ويبدو أنهم تعلموا تقنيات تجفيفها وحفظها من أجل ادخارها بدليل تصديرها إلى الملثمين.

ج- الثروة المعـــــدنية :

1- الذهـــب: أكد الإدريسي بأن الذهب هو قوام حياة سكان السودان الغربي، واعتبره أكبر غلة عندهم، وعليه يعولون صغيرهم وكبيرهم [7]، والناظر في المصادر العربية يجدها تنطلق من اعتبار أهمية السودان الغربي نابعة من الكميات الضخمة من الذهب التي تتوفر عليها ، إلى الحـــــد الذي صار ذهب بلاد السودان تنسج حولـــه الأساطير،[1]كما قرن بعضها بين بلاد السودان والذهب، فوهب ابن منبه والفزاري اعتبرا غانة أرض الذهب [2]، ونص صاحب حدود العالم أن في السودان بأسرها معدن الذهب[3]، واعتبره ابن حوقل سبب ثراء ملوك غانة[4].

---

[1]- المصدر نفسه ، ج2، ص:366.

[2]- الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص:278.

[3]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:344.

[4]- هوبكتر ، المرجع السابق ، ص:77.

[5]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج 2، ص:20. الزهري ، المصدر السابق ، ص: 117-118. ابن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف و البيان في حوادث الزمان) ، تح: أبوالعيد دودو، دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية، د ت، ص18-19.

[6]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:360. الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:18،25. الحميري ، المصدر السابق ، ص:134.

[7]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:24-25.

أما عن أماكن وجود الذهب في السودان الغربي فقد تحدث البكري أن ذهب مدينة غياروا ــ التي تبعد عن غانة عشرين يوما جنوبا ــ [5]، أفضل ذهب السودان، كما أشار إلى وجوده حوالي مدينة كوغة [6]، وعند الزهري أن جبال توتا الشامخة عند خط الاستواء هي مصدر هذا المعدن الثمين [7]، أما الإدريسي فقد تحدث عن ونقارة [8]، التي قال بأنها جزيرة طولهـا ثلاث مائة ميل وعرضهـا مائة وخمسون ميلا، وعدّهـا بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة[9]، وعند صاحب الاستبصار أنه موجود ببلاد الفرويين ومدينة يرسني[10]، وببلاد دمدم حسب الدمشقي[11].

وقد حاولت الدراسات الحديثة التعرف على هذه المناطق، وانتهت إلى أن من أهم مناطق استخراج الذهب منطقة بامبوك حوالي نهر السنغال[12]، وتقع مناجمها الأساسية على مسافة 300كلم إلى الجنوب الغربي من باماكو، بالإضافة إلى أعالي نهر النيجر حيث منطقة بوري ، ومنطقة لوبي في الفولطا، ومنطقة الأشانتي في غانا[13].

1– عند ابن الفقيه أن غانة "ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس"! ! ومن الغريب جدا أن هذا التصور الأسطوري استمر إلى عهد العمري الذي كتب :" نبات الذهب على نوعين: نوع في زمن الربيع عقيب الأمطار ينبت في الصحراء، وله ورق شبيه بالنجيل أصوله التبر" و اعتبر هذا النوع "أفحل في الغيار و أفضل في القيمة"!! أنظر: ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص:87. القزويني ، المصدر السابق ، ص:18. العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح: حمزة أحمد عباس ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ،2002، ج4، ص:118.

2 - Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p.41-42.

3– مجهول ، حدود العالم ، مصدر سابق ، ص:147–148.

4– ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:98.

5– إعتبر كيوك مدينة غياروا هي الموقع المعروف اليوم باسم دوكابا / Dougouba على بعد 5كلم جنوب مدينة خاي/ Khaye بجمهورية مالي،أنظر: Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:101.note.2.

6– البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:364،367.

7– الزهري ، المصدر السابق ، ص:119،121،122.

8– يطرح لفظ الونغارة/الونقارة إشكالا حيث يستعمل أحيانا كمدلول جغرافي ، وأحيانا أخرى كتسمية لإحدى المجموعات السكانية ، أنظر : Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:135.note.2.

9– الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:24–25. ابن سعيد المغربي، المصدر السابق ، ص:92–93.

10– مجهول ، الاستبصار ، مصدر سابق ، ص:219،221.

11– الدمشقي ، المصدر السابق ، ص:268.

12-كانت المصادر العربية تطلق على نهري السنغال والنيجر لفظ النيل، ظنا منها أنهما من روافده، ومنهم من اعتبر منطلق نهر النيجر من بحيرة كوري (الاسم القديم لبحيرة تشاد)،أنظر مثلا: البرسوي ،أوضح المسالك إلى معرفة البلدان و الممالك،تح: المهدي عيد الرواضية ، بيروت،دار الغرب الإسلامي، 2006، ص:61. وعن تفنيد هذا الرأي بعد رحلات بعض المكتشفين الأوروبيين في المنطقة، من أجل معرفة منبع النهرين وخط مجراهما ، ينظر : شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر، ط2، الرياض ، دار الزهراء ،2002، ص:29–33.

13– أنظر مناقشة القضية عند : بوفيل ، المرجع السابق، ص: 209–220. الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص: 281–282. الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص:446–448. نبيلة حسن محمد ، المرجع السابق ، ص: 89. ويرى جون دوفيس (J. Devisse) أن ونقارة يقصد بها منطقة بور (Burre) عند دلتا نهر النيجر،أنظر:

Jean Devisse, "Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale " , HISTOIRE GENIERALE DE L'AFRIQUE , UNESCO , 1990, T:3 , P: 453-454.

هذه المناطق لم تكن تحظى بنفس الأهمية طوال الفترة المدروسة، فقد كانت منطقة بامبوك أهم هذه المناطق، ولكن منذ حوالي نهاية القرن 5هـ/11م بدأ التحول التدريجي إلى منطقة النيجر الأعلى حيث منطقة بوري[1]، وهو وهو ما أدى إلى تراجع أهمية الطريق الصحراوي الغربي لصالح الطريق الأوسط.

2- **النحـــاس:** يعد ابن بطوطة أقدم مصدر تحدث عن معدن النحاس بالسودان الغربي، حيث قال عن مشاهداته في مدينة تكدا:"ومعدن النحـــاس بخارج تكدا، يحفرون عليه في الأرض، ويأتون به إلى البلد فيسكبونه في دورهم، يفعل ذلك عبيدهم و خدمهم، فإذا سكبوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ (...) ويحمل النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار، وإلى زاغاري، وإلى بلاد بورنو"[2].

ولكن الاعتماد على هذا النص يطرح إشكالية هامة حول تحديد وقت بداية استغلال هذا المعدن، لتأخر هذه المعلومة عن الإطار الزمني للدراسة، وهنا يمكننا أن نستدل بنتائج الأبحاث الأثرية على استغلال السودان الغربي للنحاس، حيث توجد مؤشرات على تعدين النحاس وصهره بمنطقة أكجوجت جنوب غرب موريتانيا حوالي القرن5ق.م،كما استعملت أفران ذات شكل طولي في منطقة أقادس بالنيجر لصهر النحاس في وقت مماثل[3].

وبالتالي، فربما كان استغلال منجم تكدا قديما، ولكنه لم يكن بضخامة الإنتاج التي يتحدث عنها ابن بطوطة في القرن 8هـ/14م، لأن النحاس كان من واردات السودان لا من صادراتها كما سيأتي بيانه لاحقا.

3- الحـــديد: تشير الدراسات الأثرية إلى أن استخدام الحديد في أقصى جنوب الصحراء، وسافانا غرب إفريقيا المجاورة إلى الشمال، ترجع إلى القرون القليلة السابقة للميلاد، وانتشرت بعد ذلك[4]، وقد استفادت قبائل السوننكة السوننكة من استعماله قبل غيرها في تطوير سلاحها، وبالتالي إخضاع جيرانها لسلطتها، وهو مما يفسر اتساع مملكة غانة[5].

وبالإضافة إلى المعـــادن الســـابقة، عرفت المنطقة معادن أخرى، إلا أنهـــا لم تكن واسعة الانتشـــار كمعدن الرصاص والكحل والقصدير[6].

د- الأنشطـــــة الحرفيـــــة:

---

[1]- كولين ماكيفيدي ، أطلس التاريخ الإفريقي ، تر : مختار السويفي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1987، ص:89.

[2]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:705.

[3]- ديفيدو فيليبسون ، علم الآثار الإفريقي ،تر:أسامة عبد الرحم، النور،منشورات ELGA ،فاليتا ،مالطا ،2002 ، ص:294.

[4]- المرجع نفسه ، ص:294-295.

[5]- جوان جوزيف ، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، تر:مختار السويفي،القاهرة، دار الكتاب المصري،1984،ص:51.

[6]- الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص:285.

لا توفر لنا المصادر معلومات دقيقة عن مستوى الأنشطة الحرفية بالسودان الغربي في الفترة المدروسة، و أهم مصدرين في الموضوع جاءا متأخرين كثيرا عنها، وهما تاريخ السودان للسعدي وتاريخ الفتاش لمحمود كعت، وقد مثلت مرحلتهما أرقى مراحل حضارة غرب إفريقيا الوسيطية، ومحاولة إعطاء صورة عن الحرف يهدف إلى بيان حاجة السودان الغربي إلى المصنوعات النسيجية والنحاسية والحديدية والفخارية والجلدية القادمة من بلاد المغرب.

وأهم نشاط حرفي توجد إشارات حوله يتعلق باللباس، فقد كان أهل مدينة سلى وقلنبو ينسجون من القطن أزرا لطافا تسمى الشكايات [1]، وأما في سلى وتكرور فإضافة إلى ثياب القطن كانوا ينسجون قداوير وكرازي الصوف[2]، كما ورد الحديث عن صناعة السودان لأنواع من الثياب والأكسية لا تؤثر فيها النار من ثمر شجرة تسمى"تورزي"[3]، إضافة إلى أن أهل غانة كانت لديهم ملاحف القطن، أما ثياب الحرير والديباج التي كان يلبسها حاشية الملك في مدينة غانة[4]، فالأرجح أن جلّها من السلع المجلوبة لهم، لأن المنسوجات كانت من أهم الواردات من المغرب الإسلامي ، وما ينتج منها محليا كان على نطاق ضيق[5].

ويرى هوبكنز(Hopkins) أن استغلال القطن في الصناعة النسيجية قديم جدا، ولكنه توسع منذ وصول التجار المسلمين، وحقق تقدما صار بإمكانه تجاوز تلبية الحاجيات المحلية إلى التصدير [6]، أما بانيكار(Panikar) فيعتقد أن العري يعد أهم سبب لعدم تطور صناعة اللباس القطنية [7]، وظاهرة العري هذه من الظواهر التي رصدتها المصادر العربية في الكثير من نواحي السودان الغربي، وخاصة تلك الواقعة في الجنوب بعيدا عن الحواضر[8].

ومن الأنشطة الحرفية صناعة الأواني الفخارية، التي كانت بدورها على نطاق ضيق، بل اعتبرت خاصة بالعائلات الثرية[9]، ولذلك غامر تجار بلاد المغرب بجلبها لما فيها من عظيم الربح، ومنها صناعة القوارب التي كانت كانت تستعمل في النقل النهري [10]، وصناعة السيوف والرماح التي كانت أسلحة أهل غانة [11]، و النشابات

---

[1]- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:360-361.
[2]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:18.
[3]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:368.
[4]- المصدر نفسه ،ج2، ص:363.
[5]- هوبكنز ،المرجع السابق ، ص:94.
[6]- المرجع نفسه ، ص:94.
[7]- بانيكار ،المرجع السابق ، ص:409.
[8]- أنظر أمثلة عن ذلك عند :ابن خرداذبة ، المصدر السابق ، ص: 89، مجهول ، حدود العالم ، مصدر سابق ، ص: 147-148. المسعودي، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان و عجائب البلدان و الغامر بالماء و العمران ، تح: عبد الله الصاوي، بيروت ، دار الأندلس ، 1986، ص:87. المهلبي ، المصدر السابق، ص:54. البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:367. القزويني ، المصدر السابق ، ص:18-19،26.
[9]- بانيكار ، المرجع السابق، ص:409.
[10]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:365. الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:17،22.
[11]- الزهري ، المصدر السابق، ص:125.

والدبابيس التي قال عنها الإدريسي :"لهم فيها حكمة و صناعة محكمة" [1]، وكذا صياغة الحلي والحدادة والصناعة النحاسية خاصة في تكدا، ولكنها كما يرى "هوبكتر" كانت على نطاق ضيق ، وأساسها وحدة الأسرة المعيشية[2].

المعيشية[2].

هـ – العبيـــد:

يعد العبيد ثروة هامة في السودان الغربي، لأنه كان من أهم سلع التجارة مع بلاد المغرب الإسلامي، ولكن دوره في تنشيط الحياة الاقتصادية في هذه المنطقة يبدو مجهولا، والمتمعن في المصادر لا يجد عملا واسعا للعبيد في بلادهم، سواء في النشاط الزراعي أو الحرفي، ولأننا قد بينا فيما سبق أن هذه الأنشطة قد كانت في الأعم الأغلب أنشطة معاشية تمارس على نطاق ضيق، ومن طرف جماعات محدودة، فإنه من المستبعد أن يكون العبيد قد استغلوا في تنشيط الاقتصاد في المنطقة، إلا ما تعلق بخدمة أسيادهم، بخلاف اعتبارهم سلعة مرغوبة من تجار الشمال.

وكانت مناطق جلب العبيد تقع إلى الجنوب من الحواضر الهامة، أو في نطاق الغابات الاستوائية، وقد أطلقت المصادر على هؤلاء المستعبدين وبلادهم أسماء عديدة هي :بربرة، أمميمة، لملم، نمنم، الدمدم، الدمادم [3]، وإذا كان اليعقوبي قد جعل لملك السودان الحق في بيع رعيته من غير شيىء ولا حرب! [4]، فإن الزهري علل القدرة على سبيهم بكونهم:"ليس عندهم حديد، وإنما يقاتلون بمزارب الأبنوس، ولذلك يغلبهم أهل غانة إذ يقاتلونهم بالسيوف والرماح"[5]، وأحيانا يلجأ للمكر والخديعة للإيقاع بهم [6]، كما كان الاسترقاق يقع أحيانا كعقوبة على بعض الأفعال مثل السرقة، حيث يخيّر الضحية في بعض المناطق السودانية بين بيع السارق أو قتله[7].

بعد هذا الاستعراض المختصر، يمكننا القول: إن منطقة السودان الغربي كانت بالأساس منطقة مجتمعات زراعية، بالإضافة إلى الرعي الذي كان محصورا بالساحل في تلك السهول المعشبة المتاخمة للصحراء الكبرى، وكانت التجمعات السكنية قائمة على النشاط الزراعي الذي يعتبر أساس إنتاج معاشي، أما الأنشطة الأخرى فكانت ثانوية ومحدودة[8].

---

[1]– الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:20.

[2]– هوبكتر ،المرجع السابق ، ص:97.

[3]– الزهري ، المصدر السابق ، ص:125.الإدريسي ، المصدر السابـــق ،ج1، ص:19،22،25. ابن سعيد المغربي ،المصدر السابق ،ص:90–91، ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب الدال على بدائع الأقطار والبحار و خصائص البلدان والأحجار ، القاهرة ،1923، ص:34.

[4]– اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص:134.

[5]– الزهري، المصدر السابق، ص:125.

[6]– المصدر نفسه، ص:126.

[7]– البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:361.

[8]– إيرام .لابيدس،تاريخ المجتمعات الإسلامية، تر: فاضل جتكر، ط2،بيروت،دار الكتاب العربي،2011 ،ج2 ، ص:667.

مما تقدم يمكننا تصور الحالة الاقتصادية في بلاد السودان [1]، وكيف أنها كانت بدائية في أغلب فروعها، و لم تكن في مجملها تتجه سوى لتوفير الحاجيات المعيشية، دون أن تفكر في تحقيق تنمية اقتصادية تسمح لها بولوج باب التبادل التجاري، باستثناء ما توفر لهم من الذهب والعبيد و أشياء أخرى أقل أهمية ، كان تصديرها للشمال هو الطريق الوحيد للحصول على بعض الحاجيات، وهو ما سمح لقبائل صنهاجة الصحراء من تأدية دور مهم في الربط بين السودان الغربي والمغرب الإسلامي، لتوفير مختلف السلع التي يحتاجها السودانيون.

إذا كان هذا هو الواقع الاقتصادي بالسودان الغربي، فما هو وضع المنطقة الثقافي، وهل كان يمثل هو الآخر صورة بدائية في المعتقدات والطقوس والشعائر الدينية؟

7- الدين والطقوس الدينية في السودان الغربي قبل اعتناق الإسلام.

وفرت لنا المصادر العربية[2] والدراسات الأثرية والمحفوظ من الرواية السودانية الشفوية مادة هامة حول الوضع الديني في السودان الغربي قبل اعتناق الإسلام، و ليس المقصود بما قبل اعتناق الإسلام هنا الفصل بين مرحلتين متمايزتين في تاريخ السودان الغربي، إحداهما وثنية والأخرى إسلامية، ذلك أن المسار المتدرج للإسلام في هذه المنطقة جعله يتعايش في نفس الفترة مع المعتقدات القديمة، وبالتالي فإن الحديث في هذا المبحث هو عن المعتقدات الموجودة في السودان الغربي قبل وأثناء التغلغل الإسلامي، لتصبح القَبْلِيّةُ هنا تعني الحالة الدينية وليس الإطار الزمني.

أ – معبودات الســـودان الغربي.

يجد المتأمل في المصادر العربية إجماعا على وثنية السودانيين، وأن الحالة الدينية عندهم لا تختلف عن مسارات المجتمعات البدائية، بتضمنها عنصر التأليه والقربان المرتبط إما بحاجات اقتصادية أو سياسية أو أمنية، أو المؤسسة على أساطير قديمة لا تكاد تخرج في جوهرها عن السياقات السابقة، ذلك أن الدين في جوهره في هذه المرحلة من تطور البشرية الفكري ليس سوى انعكاسا لحالات النفس المرتبطة بالرجاء و الخوف، مع أن هذه الدوافع الحقيقية لتأليه شيء ما تضمر مع مرور الوقت ولا يبقى سوى الشكل الظاهري للتدين.

يلخص البكري في مسالكه ديانة السودان بالقول أن سائرهم كانوا على المجوسية وعبـــادة الدكاكير، [3] و لم تكن هذه الآلهة آلهة شخصية بل كانت آلهة قرية أو مدينة أو مملكة، لها مكان مخصوص تمارس فيه طقوس العبادة،

---

[1]- أنظر الخريطة رقم 5 ص:131 من هذه الدراسة.

[2]- قام كيوك بدراسة مختصرةللوضع الديني ببلاد السودان من خلال المصادر العربية في:.Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p: 13-15

[3]- البكري ، المصدر السابق، ج2، ص:360. والدّكّور هو الصنم.

ومن ذلك ما ذكره المؤلف ذاته أن مدينة ملك غانة من حولها قباب وغابات وشعراء، يسكن فيها سحرتهم الذين يقيمون دينهم، وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس فلا يمكن أحد دخولها ومعرفة ما فيها [1]، وهذا يدل على الدور الهام للدين ورجاله في هرم السلطة،كما أفاد عن أهل مملكة الدمدم، أن في بلدهم قلعة عظيمة عليهـــا صنم في صورة امرأة يتألهون له ويحجونه [2]، وعند ابن سعيد أن أهـــل لملم لهم مدينة كالقرية وفيهـــا بيت دكاكيرهم [3]، وكانت معـــابدهم عبـــارة عن أبنية بسيطة مربعة ذات أبراج أسطوانية مزينة بالصور[4]، ومن ثم فإن الآلهة تمثل عند السودانيين جزءا أساسيا من عناصر الوحدة الاثنية أو القبلية، ذلك أن هذه المجتمعات تعتبر الصنم الضامن لرزق القبيلة و انتصاراتها.

وتحيلنا المادة المصدرية إلى عبادة سكان السودان الغربي لبعض الحيوانات، فقد ذكر البكري أن أهل زافقو يعبدون حية كالثعبان العظيم [5]، وتذكر المرويات الشفوية أن إله مملكة غانة كان ثعبانا يدعى: "واغادو بيدا"، يعتقدون أنه يقوم بحراسة المدينة وحماية كنوزها و ثرواتها [6] ،كما ذكر السعدي أن أهل كوكو قبل إسلامهم كان يتمثل لهم الشيطان في صورة الحوت فيجتمعون إليه و يعبدونه [7]، ويظهر هذا التقديس للحيوانات في وجود قبائل سودانية تحمل اسم حيوان، سواء كانت تعبده أو يتعلق بأسطورة عن قدرة جد القبيلة على الفرار من سطوته [8]، ويعتقد بعض الباحثين أن عبادة الحيوان مرجعه اعتقاد السودان أن أرواح أسلافهم تسكن أنواعا معينة منها [9]، ويمكن أن يكون السبب ما قدمناه من الهيبة منها كما هو الحال في عبادة الثعبان، أو الاستفادة منها كما هو الحال في عبادة الحوت، الذي يبدو أنه يوحي بنمط حياة اقتصادية تعتمد أساسا على الصيد.

---

[1]- المصدر نفسه ، ج2، ص:363.

[2]- المصدر نفسه ،ج2، ص:372. المسعودي ، أخبار الزمان ، مصدر سابق ، ص:87-88.

[3]- ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص: 91. وينبغي الإشارة هنا إلى أننا نوظف معلومات ابن سعيد المغربي عن بلاد السودان باعتبارها تخص القرن 6هـ/12م لأنه ينقل عن ابن فاطمة الذي زار المنطقة في هذه المرحلة ، أنظر: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ،تر:صلاح الدين عثمان هاشم،ط2،تونس،دار الغرب الإسلامي ،2008،ص:386-387.

[4]- عطية مخزوم الفيتوري ، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء (مرحلة إنتشار الإسلام) ، بنغازي ، منشورات جامعة قاريونس، 1998، ص:241.

[5]- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:361.

[6]- جوان جوزيف ، المرجع السابق ، ص:57. وانظر الصورة رقم14ص:140من هذه الدراسة.

[7]- السعدي ، تاريخ السودان ،تح،:هوداس ،باريس، Libraire d Amerique et d' orient،1981 ، ص:4. ويمكننا أن نستشف من أسطورة الإله الثعبان واغادوبيدا إلى أنه لا يعدو أن يكون أحد أقدم مؤسسي المملكة ، لأن الأسطورة تذكر أنه كان مع المهاجرين الذين أسسوا مدينة غانة أنظر: Guy Nicolas,op.cit.p: 358-359

[8] - Maurice DeLafosse,Les civilizations Nègro- Africaines, Paris, Librairie Stock,1925,p:61.

[9]- بانيكار ، المرجع السابق ،ص:69.

كما عبد السودانيون النبات أيضا، فقد ذكر عن بعضهم أن لهم شجرة عظيمة يعملون لها عيدا في كل سنة يجتمعون عندها، ويلعبون حولها حتى يسقط عليهم ورقها فيتبركون به [1]، وربما كان في إشارة الوزان إلى أن النار والشمس كانا من معبوداتهم القديمة[2]، ما يحيل إلى معنى المجوسية التي ذكرت جل المصادر أنهم يدينون بها[3].

كما عرف السودان أيضا عبادة الملوك، كأهل زغاوة الذين كانوا يعتقـــــدون أنهم هم الذين يحيون و يميتون ويمرضون ويصحون[4]، ومع أن المصادر لا تبرز هذا الجانب بجلاء، ولكن بعض الطقوس والممارسات التي كان يلتزم بها السودانيون في مجالس ملوكهم يمكن أن تدعم وجود هذه العبادة، أو على الأقل نوع من التقديس لهم.

وبعد وفاة الملك يدخل في إطار الأسلاف الذين كانوا يعبدون أيضا، وكانت عبادتهم تشكل إحدى دعائم الديانة الوثنية في إفريقيا الغربية، فالأجداد بالنسبة إلى السودانيين هم المسؤولون عن وضع أسس تقاليد الجماعة وأعرافها، وقد ربّوا خلفهم على تلك الأعراف والتقاليد، وموتهم لا يعني سوى انتقال أرواحهم إلى عالم آخر تراقب من خلاله تصرفات الأبناء، فمن حاد منهم عما سنّوه من أعراف أوقعوا به الشر، ومن التزم أحاطوه برعايتهم، ووجهوه من حيث لا يعلم إلى الخير و النجاح في الحياة[5] .

وقد اجتهد الباحثون المعاصرون في التعرف على الأساس المشترك بين المعبودات السودانية، وانتهى بعضهم إلى تبني مصطلح" الأرواحية" أو "الإحيائية"، والذي يعني اعتقاد السودانيين بوجود أرواح لكل الأشياء، وأن مصدر قوة الطبيعة هو إله أعلى وأعظم من كل الآلهة الأخرى يهبها قوته، مع عدم الاتفاق على صفاته ولا على الطريقة التي يتم التقرب إليه بها، وما إذا كانت عبادته إلزامية أم اختيارية، حيث كان بعضهم يرى أن الإله الأعظم غير مهتم بما يدور على الأرض، وأنه ترك العلاقة بين البشر والإله لأرواح أقل أهمية منه، فهي بالنسبة لهم أحق وأولى بالعبادة منه مادامت إرادته كذلك [6]، كما قرر هؤلاء أن الإحيائية تعتقد بوجود حياة بعد الموت، وتواصل بين

1- المسعودي ، أخبار الزمان ، مصدر السابق ، ص:87-88.

2- الوزان ، المصدر السابق،ج2، ص:160.

3- حول استعمال المصادر العربية لمصطلح المجوسية ومقصدها منها ينظر: Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:13.

4- المهلبي ، المصـــدر الســـابق ، ص :54-55. وانظر عن تقديس الملوك في السودان الغربي و الممـــارســـات المرتبطة بذلك في البـــلاط : بانيكار، المرجع السابق ، ص:465-466.

5- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:473.

6- حسن إبراهيم حسن، إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية ،ط 3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984، ص: 53. الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:470.

الأسلاف وخلفهم، وتأثيرهم فيهم ومساعدتهم، ومن ثم كانت عبادة الأسلاف هي الواسطة بين الناس والقوة الخفية التي تدير الكون[1].

وهذا الاجتهاد رغم أهميته وتبنيه من مختلف الدارسين، لا يستند في الحقيقة إلى أدلة كافية، ذلك أن الدراسات التي انتهت إليه بنت بحثها أساسا على الجماعات الوثنية الحديثة والمعاصرة، وهو إسقاط فيه الكثير من اللبس، لأنه ينطلق من قاعدة المجتمعات الثابتة في إفريقيا، والتي لم تتأثر بأي فكر طوال العصر الوسيط وإلى غاية وصول الاستعمـــار الأوروبي إليهـــا، ومن ثم إهمال التأثير الإسلامي وتطعيم عقـــائده للكثير من المعتقدات المحلية، وقد يكون منها عقيدة التوحيد، وهو ما يبدو أدعى للقبول من الاعتقـــاد بتوصل الأفارقة إلى الفكرة التوحيدية المجردة، في الوقت الذي قدمت لنا المصـــادر صورة دينية تقليدية لم تبلغ بعد مرحلة التجريد و التوحيد [2]، وهو ما يسمح بالقول بأن الأرواحية بالصورة التي تقدمهـــا الكثير من الدراســـات الإفريقـــية هي إحدى نتائج التفاعل بين الإسلام والعقائد الوثنية لدى المجتمعـــات التي رفضت التحول إلى الدين الحنيف، وليست استمرارا للديانة السودانية التقليدية.

ب- الطقـــوس الدينيـــة الوثنـــية.

مما يدل على تقديس الملوك ما ذكره البكري عن طقوس دفن الملوك في غانة، حيث قال بأنه "إذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطاء فأدخلوه في تلك القبة، ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة، و أدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه، وأغلقوا عليهم باب القبة، و جعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتي كالجبل الضخم، ثم يخندق حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد"[3]، وهذا يحيل إلى الاعتقاد بالحياة بعد الموت أو على الأقل بالنسبة إلى الملوك.

ومن الطقوس الدينية التقليدية في السودان الغربي الطقس المتعلق بالاستسقاء، فقد كانوا إذا أرادوا ذلك جمعوا عظاما فكوموها كالتل، ثم أضرموا بها النار وداروا حولها ورفعوا أيديهم إلى السماء [4]، أو قدموا القرابين كالبقر والغنم و الحمير بل والناس كذلك[5]؟!، كما كانوا يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور[1]، وكان من سكان

---

[1]- عبد الرحمن عمر الماحي، "مساهمة قوافل الصحراءفي نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 4(1993)، ص:226-227.

[2]- أنظر مناقشة ذلك في : أحمد الشكري ، الإسلام و المجتمع السوداني ، مرجع سابق ، ص:75-77.

[3]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:364.

[4]- المسعودي ، أخبار الزمان، مصدرسابق ، ص:87-88.

[5]- البكري ، المصدر السابق، ج 2، ص: 366-367. الدرجيني ،كتاب طبقات المشائخ بالمغرب ، تح: إبراهيم طلاي،قسنطينة، مطبعة البعث، 1974،ج2، ص:517-518.

سكان زافقو ممن يعبدون الحية، من يتخذ على باب مغارتها عريشا يسكنه تعظيما لها، ويعلقون نفيس الثياب وحرّ المتاع على ذلك العريش، ويضعون له جفان الطعام و عساس اللبن والشراب[2].

وقد ورد ما يدل على أهمية طبقة السحرة في السلم الاجتماعي للسودان الغربي، فهم في مملكة غانة الوثنية المكلفون بإقامة طقوس دينهم والإشراف على الدكاكير[3]، كما يدل طرد ملك ملل لهم بعد إسلامه[4] بأنهم يعتبرون القائمين على شؤون العبادات والطقوس، ولا شك بأنهم كانوا يستفيدون من ذلك وجاهة وسلطة على من دونهم من الناس، خاصة وأنهم كانوا يمدون العامة بما يزعمون أنه ينفعهم أو يضرهم من التمائم والطلاسم الوثنية[5].

كل ما سبق يعطي صورة على مدى حضور الدين في المجتمع السوداني، وهذه الطقوس والمعبودات رغم بدائيتها تعتبر معيارا صالحا لمدى التقدم الفكري لبعض المدن السودانية، مقارنة بغيرها التي وصف أهلها في المصادر العربية بكونهم"متوحشون لا يدينون بدين ولا يكادون يفقهون قولا، وهم بالحيوان أشبه منهم بالناس"، [6] وهذه الأوصاف غالبا ما تطلق على الأماكن الجنوبية، ولكنها مقارنة بتطور الفكر الديني الوثني تعد جد بدائية.

ج- الديانة اليهودية و النصرانيـــةبالسودان الغربي.

أشارت بعض المصادر العربية إلى وجود اليهودية في السودان الغربي في هذه المرحلة، فقد تحدث الزهري عن اليهودية في كوكو وقرافون (زافون)، [7]وذكر الإدريسي أنها ديانة لملم [8]، أو مدينة لامي من لملم عند ابن سعيد المغربي[9]، كما أشار محمود كعت إلى جالية كبيرة من بني إسرائيل كانت تسكن مدينة تندرمة قبل عدة أجيال من زمنه[10]، وإذا كان كيوك (J.Cuoq) قد تعامل مع هذه النصوص كأدلة على تواجد الديانة اليهودية في غرب إفريقيا، منبها إلى غموض تاريخ وصولها، ومشيرا إلى أنها قد تكون وصلت مع البربر القورينائيين الذين تدينوا بها، أو ربما مع الجاليات اليهودية في توات[11]، فإن أحمد الشكري ذهب إلى أن المقصود هنا باستعمال لفظ اليهودية لا يعدو كونه تعبيرا عن الجماعات المنبوذة، ونوعا من إبراز دونيتها بالنسبة إلى المسلمين، لأن هذه المصادر قرنت بين

---

[1]- البكري، المصدر السابق ، ج2، ص:364.

[2]- المصدر نفسه ، ج2، ص:361.

[3]- المصدر نفسه ، ج2، ص:363.

[4]- المصدر نفسه ، ج2، ص:366-367.

[5]- حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ص:53.

[6]- الدمشقي ، المصدر السابق ، ص:241.

[7]- الزهري ، المصدر السابق ، ص:124،126-127.

[8]- الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1، ص:19.

[9]- ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص:91.

[10]- محمود كعت ، تاريخ الفتاش في أخبارالبلدان والجيوش وأكابر الناس، تح وتر: هوداس ودولافوس، أنجي،بريدن،1913 ، ص: 62-64.

[11]- Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p :146-147.

اليهودية وجهل الأقوام الموصوفين بها [1]، وإذا كان ذلك قد يبدو مقبولا عن رواية الإدريسي، فإنه مستبعد عن رواية الزهري التي نصت بأنهم يقرؤون التوراة[2]، وعن رواية كعت التي ذكرت أنهم من المزارعين التجار الأغنياء[3].

الأغنياء[3].

ومن ثم، فهذه الروايات مقتضبة بما لا يسمح لنا بالخروج منها باستنتاجات محددة، ونفس الأمر يتعلق بالنصرانية التي أشار الزهري إلى أنها ديانة بربرة [4]، وقال الوزان أن من السودان من كانوا على المسيحية المصرية قبل وصول المرابطين[5]؟

ومع أن الإسلام كان يتغلغل بالتدريج في حواضر السودان الغربي، إلا أننا يمكننا القول أن درجة تغلغله عند صنهاجة الصحراء كانت أكبر، وهو ما يعني أن الغلبة الحضارية كانت للملثمين، حيث سيسمح لهم ذلك بالتأثير في أهل السودان الغربي، وتأدية دور الوسيط الثقافي بينهم و بين المغرب الإسلامي.

الفصــل الثــاني

دور صنهــاجة الصحــراء في التواصــل الاقتصــادي بين المغرب الإســلامي والســودان الغربي من ق: 2-7هـ/8-13م.

1- أهمية المحور الغربي من الطرق التجارية الصحراوية وأهم مسالكه.

2- صعوبات المسالك الصحراوية ودور الملثمين في تيسير حركة القوافل.

3- سلع بلاد المغرب إلى السودان الغربي عبر مجالات صنهاجة الصحراء.

[1]- أحمد الشكري ، المرجع السابق ، ص:175-176.

[2]- الزهري ، المصدر السابق ، ص:126-127.

[3]- محود كعت ،المصدر السابق، ص:62-64.

[4]- الزهري،المصدر السابق، ص:126.

[5]- الوزان ،المصدر السابق،ج2، ص:160.

4- سلع السودان الغربي إلى بلاد المغرب عبر مجالات صنهاجة الصحراء.

5- وســـــــائل التبـــادل.

6- المراكز التجـــارية في صحـــراء الملثمين.

1- أهمية المحور الغربي من الطرق التجارية الصحراوية وأهم مسالكه.

- توطئـــــــة:

تربط العديد من المسالك بين بلاد المغرب الإسلامي والســـودان الغربي، وهذه المسالك ليست ثابتة في الزمان والمكان، بل هي شبكة كبيرة ومتغيرة بسبب الظروف الطبيعية والتحولات السياسية والاقتصادية في الشمال والصحراء والجنوب، ويمكننـــا تقسيمها جغرافيا إلى ثلاثة محاور رئيسية تبادلت الدور الريادي في مختلف فترات التاريخ الوسيط وهي :

أ- مسالك المحور الشرقي التي تربط بين المغرب الأدنى والسودان الشرقي والأوسط والغربي، والتي تبدأ شمالا من محطات عديدة لتجمع القوافل مثل طرابلس وسرت وأوجلة وأجدابية والقيروان وغدامس وبادس، وتمر على فزان وزويلة وودان وكوار، وتنتهي جنوبا في عدة محطات مثل كانم وبرنو بالسودان الأوسط، أو تادمكة وكوكو بالسودان الغربي، وهذا الطريق سيطرت عليه الجماعات الإباضية في أغلب مراحل الفترة الزمنية المدروسة[1].

[1]- عن مسالك الطريق الشرقي أنظر مثلا : ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص: 91. البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:372. الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1، ص:358. مجهول ، الاستبصار ، مصدر سابق ، ص:146، 175، 225. الحميري ، المصدر السابق ، ص:427. والذي أعنيه بالمحور مجموعة المسالك في كل مجال من الصحراء: شرقي وأوسط وغربي.

ب– مسالك المحور الأوسط التي تربط المغرب الأوسط بالسودان الأوسط والغربي، سواء عبر الصحراء الوسطى مباشرة، مثل طريق تيهرت – كوكو، أو تميل أحيانا إلى الشرق حيث مدينة وارجلان، وقد أصبحت توات في فترة لا حقة هي محطة اجتماع القوافل المتجهة جنوبا، وكانت تنتهي إلى تادمكة وكوكو غالبا[1].

أما المحور الغربي فهو الذي يخترق مجالات صنهاجة الصحراء، وقد كان له دور بارز في العلاقات الاقتصادية بين ضفتي الصحراء، ويتميز بكونه استقطب الكثير من تجار المغربين الأدنى والأوسط والتجار المشارقة بسبب خصوصياته، حيث كانوا يفضلونه على غيره من الطرق لفترة زمنية طويلة.

وتمر عبر المحور الغربي عدة مسالك، يمكن العودة ببعضها إلى فترات التاريخ القديم، حيث تدل الرسـوم الصخرية للخيول التي تجر العربات، والتي عثر عليها في عدة مناطق من موريتانيا والصحـراء الغربية والجنوب المغربي إلى استعمال هذه المسالك مع إفريقيا الغربية [2]منذ بداية منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، وهو التزمين التقريبي الذي أعطاه الأثريون للدور الرابع من الرسوم الصخرية، الذي يسميه المختصون (دور الحصان)[3]، ويمكن الاستئناس لترجيح هذا الاستعمال القديم للمحور الغربي بما ورد عند هيرودوت عن الجرامنت وعند سترابون عن الفاروزيين كشعوب تتاجر مع إفريقيا الغربية وراء الصحراء[4]، كما أشارت بعض الدراسات إلى أن رحلة حانون القرطاجي البحرية[5]، التي قادته إلى غرب إفريقيـا كان الهدف منها التخلص من وساطة الجرامنت والفاروزيين [6]، وهو ما يدل على الأهمية الكبيرة لهذه المنطقة بالنسبة لقرطاج، إذ كانت تمثل المصدر الرئيسي للذهب الذي سكّت به عملتها[7]، لكن يبدو بأن هذه الأهمية تراجعت في عهد الرومان الذين مثلت أوروبا ذاتها مصدرهم الرئيسي من

1– عن مسالك الطريق الأوسط أنظر مثلا : ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:86، ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج7، ص:77.إبراهيم بحاز ، المرجع السابق ،ص:260-264. Tadeusz Lewicki , L'Ètat nord-africain de Tàhert…. op.cit.p : 519.

2– فتيحة فرحاتي ، المرجع السابق، ص: 273. جان مازيل ، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية ، تر : ربا الخش ، اللاذقية ، دار الحوار ، 1998، ص:197-198،231-232. و انظر مناقشة القضية عند : ديفيدو فيلبسون ، المرجع السابق ، ص:274-275.

3– إبراهيم العيد بشي ، تاسيلي ناجر الأزمنة الجيولوجية و المؤشرات الحضارية و العوامل الطبيعية المكونة للمنطقة ، الجزائر منشورات الحبر، 2008، ص:39-40،43. محمد الطاهر العدواني ، الجزائر منذ نشأة الحضارة (عصور ما قبل التاريخ و فجر التاريخ) ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984، ص:249،264. ويمكن مقارنة هذا الرأي برأي مخالف لعبد الله العروي يعتقد أن القراءات التي أعطيت لمضامين الرسوم الصخرية فيها الكثير من الجرأة ، أنظر: عبد الله العروي ، المرجع السابق ، ص:110.

4– جان مازيل، المرجع السابق ، ص: 197-198. فتيحة فرحاتي ، المرجع السابق ، ص: 250. فيج.جي.دي، تاريخ غرب إفريقيا،تر:السيد يوسف نصر،القاهرة ،دار المعارف ،1982، ص:43. الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر ، قرطاج البونية ، تونس، أوربيس للطباعة ،1999،ص:238-239.

5– عن رحلة حانون القرطاجي يمكن العودة إلى : ج. كونتنو ، الحضارة الفينيقية ، تر محمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة ، مركز كتب الشرق الأوسط، 2001، ص:312-315. فرانسوا ديكريه ، قرطاج أو امبراطورية البحر ، تر: عز الدين أحمد عزو،دمشق،دار الأهالي، 1996، ص:128-133. ويمكن الإشارة هنا إلى أن المناطق التي بلغتها هذه الرحلة تطرح الكثير من الإشكاليات، وليس بحوزة الباحثين ما يكفي لترجيح منطقة على غيرها، ومع أن في حبكة الرواية المتعلقة بالرحلة لمحات أسطورية كثيرة، فإنه لا يدفعنا إلى إنكار وقوعها تماما.

6– محمد العربي عقون ، المرجع السابق، ص:60.

7– هوبكنز، المرجع السابق،ص:163،166.دنيس بو لم، الحضارات الإفريقية،تر:علي شاهين، بيروت، منشورات مكتبة الحياة،1974،ص:34-35.

الذهب[1]، كما أن دور الطريق البري بدأ بالتراجع بسبب الجفاف الذي مس المنطقة [2]، إلى أن أحياه من جديد استعمال الجمل، ليبقى الدور الأهم في تنشيط هذا المحور عائدا إلى المسلمين منذ بدايات القرن 2هـ/8م.

أ- إهتمام ولاة ودول المغرب الإسلامي بالمحور الغربي:

لا ريب في أن حملتي عقبة بن نافع وموسى بن نصير على السوس الأقصى قد عرّفت المسلمين على وجود طريق تجاري يتعامل البربر من خلاله مع السودان الغربي، وهو ما دفع بالولاة بعد ذلك إلى الاهتمام بهذه المناطق، فقد أرسل الوالي عبيد الله بن الحبحاب قائده حبيب بن أبي عبيدة سنة 116هـ/734م إلى السوس الأقصى فانتصر في غزواته، و"أصاب من الذهب والفضة و السبي أمرا عظيما" [3]، كما أرسل أحد القادة الآخرين هو المشتري بن الأسود إلى الصحراء، في مجالات جدالة، حتى بلغ نهر النيل (نهر السنغال) حسب رواية ابن الفقيه[4].

ولكن التحول الذي نشهده في ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري (130-138هـ) ، هو الانتقال من الرغبة في تحصيل الغنيمة إلى تيسير النشاط التجاري الجالب لهذه الثروات، وذلك عن طريق تمهيد الطريق التجاري، الذي تمثل في حفره لثلاثة آبار بين مدينتي تامدلت وأودغشت[5]، يقع آخرها على بعد 18 مرحلة[6] من الأولى و22 مرحلة من الثانية، وهو ما يدل على سلوكه مسافة هامة من الطريق، وتعرفه على مشكلة الماء فيه، واهتمامه بإيجاد حل لها، وقد صارت هذه الآبار خط سير للكثير من القوافل المتجهة إلى أودغشت وبلاد السودان.

ولا شك في أن هذا الإجراء الذي قام به عبد الرحمن بن حبيب يدل على أهمية الطريق الغربي، ذلك أنه لم يقدم على هذا العمل في الطريقين الأوسط والشرقي، وقد يكون ذلك لاتصال الطريق الغربي بمدينة أودغشت حاضرة صنهاجة الصحراء، الذين يصل مجالهم شمالا إلى مناطق من السوس الأقصى، وبالتالي الرغبة في إيجاد نوع من التواصل معهم لأجل التبادل التجاري من جهة، و نشر الإسلام بينهم من جهة أخرى.

---

[1]- محمد بيومي مهران ، المغرب القديم ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ،1990، ص:229. دنيس بلوم، المرجع السابق،ص:38-39.

[2]- جان مازيل ، المرجع السابق ، ص:201-202.

[3]- الرقيق القيرواني ، المصدر السابق،ص:72.

[4]- ابن الفقيه، المصدر السابق ، ص:64. ونشير هنا إلى أنه ليس من السهل الاطمئنان إلى صدقية هذه الرواية ، بل يمكن القول أن ذلك لم يحدث.

[5]- البكري ، المصدر السابق ،ج2،ص:342-344.

[6]- يتكرر معنا في هذا العنصر تقدير مسافات الطرق بالمرحلة واليوم والميل والفرسخ، وقد قدر المختصون وحدات القياس هذه من خلال تقدير الوحدات الأصغر منها مثل الأصبع والذراع، ومن ثم يمكن تقدير الميل حسب ريمون موني(R.Mauny) بـــ: 1920مترا، أما الفرسخ فبقدر بـــ: 3أميال=5760 متر أي 5.76كلم،أما المرحلة أو اليوم فتساوي 25ميلا = 144كلم، أنظر حول هذه القضية: ابن خرداذبة، المصدر السيابق،ص:4. المقدسي، المصدر السابق،ص:65-66.الزهري، المصدرالسابق،ص: 137.الإدريسي،المصدر السابق،ج1،ص:8.أبو الفداء، المصدر السابق، ص:15-16. أنظر: النابي ولد الحسين ، المرجع السابق، ص:283-284. أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي،دم، دار الجيل،1981،ص: 452. محمد عمارة، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، القاهرة، دار الشروق،1993، ص:579 حيث يقدر الميل بـــ:1609م.

ومع أننا لا نجـــد إشارات قديمة حول اهتمام سكان المنطقة بتنشيط مبادلاتهم التجارية مع السودان الغربي، والاستفادة من الإنجاز الذي قام به عبد الرحمن الفهري، فإننا نستطيع التخمين أن اختيار الصفرية لموقع مدينة سجلماسة لتأسيس حاضرة لدولتهم سنة 140هـ/757م ، قد يكون له علاقة بالعمل على الاستفادة من هذا الطريق، إذ سرعان ماتحولت المدينة إلى أهم محطة لانطلاق القوافل العابرة للصحراء ووصولها.

وهكذا كان مجال الملثمين سباقا إلى تعزيز العلاقات بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، مما أعطاها دفعا كبيرا، ونقلها من تجارة بين الملثمين والسودانيين فقط، إلى تجارة تجمع منتجات الشرق والغرب والشمال والجنوب، وبالتالي تضاعفت الأرباح، وتبوّأ النشاط التجاري مكانة مرموقة في الأنشطة الاقتصادية ببلاد المغرب والسودان، وكان مدخلا للعديد من التحولات الثقافية والسياسية والاجتماعية بالمنطقتين.

ب- أهـــم مســـالك المحور الغربي :

ذكرت لنا المصادر العربية منذ اليعقوبي عدة مسالك تمر عبر مجال صنهاجة الصحراء لتربط بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي، ولا شك في أن هذه المسالك لم تكن ثابتة طوال المرحلة المؤرخ لها، ولا تسير غالبا في خط مستقيم، بل هي خاضعة للحاجة للتعريج على نقاط المياه والمرور بالواحات، كما تلتوي بسبب الظروف الطوبوغرافية لتدور بالجبال وتتجنب الوديان [1]، ولكنها حافظت غالبا على نقاط الانطلاق والوصول، و التحولات التي حدثت لها، لم تخرج عن كونها انتقالا من حاضرة إلى أخرى، لتبقى دائما ضمن مجال الملثمين، ويمكننا أن نميز بين عدة مسالك هي[2]:

1- الطريق الساحلي :

وهو الطريق الذي يصل بين مدينة نول لمطة بالمغرب الأقصى، ومدينة أوليل حيث مضارب قبيلة جدالة في أقصى المجالات الجنوبية لصنهاجة الصحراء قرب نهر السنغال، وقد قال البكري عن مساره أنه يمر على ساحل البحر لا يفارقه مسيرة شهرين[3]، ومن أوليل يتجه إلى سلى أول مدن التكرور على مسافة قدّرها بـــ: 16 مرحلة، ومن سلى إلى مدينة التكرور على مسيرة يومين[4]، كما أن السفر بين أوليل وسلى ممكن عن طريق النقل النهري،

---

[1]- إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص:60.

[2]- أنظر الخريطة رقم 6ص:131.

[3]- البكري، المصدر السابق،ج 2، ص:358-359. ويمكن الإشارة هنا إلى أن جون دوفيس (J.Devisse) يرى أن تقدير المسافات الوارد عند البكري، فيه الكثير من المبالغة، وأن مايذكره الإدريسي أقرب للواقع، أنظر: Jean Devisse, op.cit.p:454.

[4]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:18. والإدريسي هنا يسميه كعادته "نهر النيل".

فقد أفاد الإدريسي بأن المراكب تأتي إلى جزيرة أوليل لأجل الملح، وتسير منها عبر النهر إلى سلى وتكرور وبريسي وغـــانة وسائر بلاد ونقارة، وكوغة وجميع بلاد السودان[1].

وتكمن أهمية هذا الطريق في عبوره على مملحة أوليل، ـــ التي مثلت لفترة طويلة أهم ممالح الصحراء، وخاصة قبل الاستغلال الواسع لمملحة تغازة ـــ ، ولذلك ارتبطت هذه الجزيرة بمسلك مع سجلماسة نحوا من أربعين مرحلة[2]، ومسلك آخر مع أودغشت مسيرة شهر واحد[3].

وقد يعترض على استمرار أهمية هذا الطريق بما نلحظه من تطابق معلومات ابن حوقل والإدريسي حول المسالك الرابطة بين أوليل وكل من سجلماسة وأودغشت، بما يوحي أن المعلومات تعود في أصلها إلى منتصف القرن 4هـ/10م، إذ لا يمكن أن تبقى فائدة من توجه تجار بلاد المغرب إلى أوليل بعدما صار تجار السودان الغربي يقصدونها بالمراكب لتحصيل الملح، كما تقدم نقلا عن الإدريسي ذاته، ولكن استمرارية سلوك هـــذا المسلك قد تعود إلى أسباب أخرى غير تجارة الملح، وهي قوة سلطنة التكرور في القرن 6هـ/12م، وتفضيل بعض التجـــار لها على مدينة كومبي صالح (غانة القديمة)[4]، بعد تراجع دورمدن مملكة غانة، التي اضطربت أوضاعها بسبب ظهور قوة شعب الصوصو في الجنوب وبداية تهديده لأراضيها، وهوما صرف التجار إلى المناطق الشرقية الأكثر أمنا.

2- طريق سجلماسة – تامدلت – أودغشت – غانـــــــة :

---

[1]- المصدر نفسه ، ج1، ص:17. وانظر نموذجا لقوارب النقل النهري التقليدية ببلاد السودان الصورة رقم 15ص:140.

[2]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:91. الإدريسي ، المصدر السابق،ج1، ص:19.

[3]- المصدر نفسه ، ص:91. الإدريسي ، المصدر السابق،،ج1، ص:108.

[4]- يرى "عمربا" من خلال مقاربة لغوية، أن الاسم الحقيقي للمدينة هو كومبي ساري، وأن صالح هو إملاء و نطق خاطىء بسبب اختلاف مخارج الحروف العربية مع السودانية،والأصل هو ساري كومباSaare kumba، وساري بإمالة الراء يعني المدينة، ولا مبرر تاريخيا و لغويا لوجود لفظ صالح هنا. أنظر: عمر محمد صالح الفلاني، الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، بيروت،مؤسسة الرسالة،1993، ص:134، وبالتالي يصبح المعنى: مدينة كومب، وهو ما يتفق مع الرواية التاريخية السودانية التي أسمت المدينة "قنب"،أنظر:محمود كعت، المصدر السابق، ص:42، بينما فسر موريس دولافوس مدلول اللفظ بـــ:"التل الصغير أو الأكوام من الحجارة"،أنظر: Maurice Delafosse, Les noire De L'Afrique, op.cit.p:41

ومن خلال هذا التفسير يمكننا تجاوز الرأي الذي يربط اسم صالح بانتساب ملك غانة عهد الإدريسي (ج 1،ص:23)إلى صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وهو ما رده ابن خلدون في تاريخه (ج5، ص:495) حيث اعتبر بأن صالح من بني حسن مجهول، و أن أهل غانة منكرون أن يكون عليهم ملك لأحد غير صوصو، و لكن المؤلف نفسه في باب"الخبر عن نسب الطالبيين وذكر المشاهير من أعقابهم"(ج4،ص:145) قال: "من ولد حسن المثنى عبد الله الكامل (...) بنوا صالح بن موسى بن عبد الله الساقي و يلقب بأبي الكرام بن موسى الجون وهم الذين كانوا ملوكا بغانة من بلاد السودان بالمغرب الأقصى و عقبهم هنالك معروفون "؟؟، أما كيوك (Joseph Cuoq) فقد رأى أن هذا الانتساب غرضه دفاع ملك غانة عن شرعيته في مواجهة الصوصو، أنظر: Joseph Cuoq, Histoire de L'Islamisation…, op.cit.p :62-63.

ولكن يبدو لي أن ذلك كان في مواجهة مملكة التكرور المسلمة التي توسعت على حساب مملكته، إذ لا فائدة من ذلك مع شعب الصوصو الوثني.

ذكر اليعقوبي الطريق بين سجلماسة وأودغشت في النصف الثاني من القرن 3هـ/9م، وقدّر مسافته بمسيرة خمسين يوما، مشيرا إلى أنه يمر عبر مجالات أنبية قبل الوصول إلى أودغشت [1]، ويمكننـــا أن نقول بأنه يشير إلى نفس الطريق الذي يمر عبر تامدلت لأن تقدير المسافة يكاد يكون متطابقا.

ويعتبر البكري أحسن من قدم وصفا للطريق بين المدينتين، إذ بين ارتباط سجلماسة بتامدلت عبر طريق طوله11 مرحلة يمر عبر وادي ومدينة درعة[2]، ويبدو أن التوجه إلى تامدلت من أجل عبور الصحراء إلى أودغشت هو لأجل المياه الموجودة في هذا المسلك، وهي مجموعة الآبار التي حفرها عبد الرحمن بن حبيب الفهري.

وقد أوضح البكري مراحل هذا المسلك بالتدقيق، فنص بأنه ينطلق من تامدلت متبعا نقاط توفّر المـاء، حيث يمر ببئر الجمّالين التي حفرها عبد الرحمن بن حبيب، ومنها إلى جبل "أزور" فماء "تندفس"، ثم يعبر مجموعة الآبار الثانية التي أمر بحفرها عبد الرحمن بن حبيب أيضا، وبعد ثلاثة أيام يقطع المجموعة الثالثة، ومنها إلى آبار "وانزمين" حيث تجتمع مسالك بلاد السودان الغربي، ومن ثمّ يتوجه إلى بلد "واران"، ثم يعبر على بئر كبيرة في مجال بني وارث، و بعده يصل إلى ماء يقال له"أغرف" وهو آبار مالحة ، و بعد ثلاثة أيام يصل إلى "أقوتندي"،ثم إلى بئر "واران" ليبلغ أودغشت[3]، ويدل حساب المراحل التي ذكرها البكري أن هذا الطريق يمتد على مسافة 40مرحلة.

وعندما يصل هذا المسلك إلى أودغشت يتفرع إلى ثلاثة فروع : **أحدهـــا** يتصل بأوليل على مسيرة شهـــر واحد، وهو الذي أشرت له سابقا، و **الآخر** يتجه إلى مدينة غانة، وقد تباينت تقديرات الجغرافيّين حول مسافته، إذ اكتفى ابن حوقل بالقول أنها بضعة عشر يوما، وعند البكري أحد عشر يوما، أما الإدريسي فقدرها باثنتي عشرة مرحلة[4]، أما الفرع **الثالث** فيتّجه إلى مدينة يرسني التي تقع شرق غانة على مسيرة اثنا عشر يوما، وهي تبعد عن أودغشت بنفس المسافة[1].

---

[1]- اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص:151.

[2]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:346- 350.

[3]- المصدر نفسه،ج2، ص:342-344.

[4]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص: 91. البكري ، المصدر السابق ، ج 2، ص:355. الإدريسي ، المصدر السابق ، ج 1، ص:108. وبالنسبة للخلاف بين الجغرافيين في المسافات فيبدو أنه راجع إلى أن الطرق لا تسلك دائما نفس المسار، إذ المعتبر فيها فقط هو العبور على نقاط المياه، وتجنّب المناطق التي تفتقد للأمن، كما أن المناطق السودانية التي تصل إليها القوافل مثل غانة وتكرور وغيرهما أحيانا يقصد بها المدينة ذاتها وأحيانا كل المجال التابع لها، إضـــافة إلى أن حجم القافلة ونوعية السلع المحمولة، له دور كبير في تحديد المدة التي يستغرقهـــا السفر، وهو مـــا أشار إليه أحمـــد الشريشي – ت:619هـــ/1222م- عندما فرق بين طريق الذهاب وطريق العودة ، حيث اعتبر نفس الطريق يقطع في نصف المدة عند العودة من بلاد السودان، لأن من سافر بثلاثين جملا يعود بجمل واحد أو جملين يحملان التبر الذي بادل التاجر به سلعه. أنظر: الناصري ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تح:جعفر الناصري ومحمد الناصري،الدار البيضاء ،دار الكتاب ، 1997، ج5 ، ص: 99-100. وعن ترجمة أحمد الشريشي ينظر: السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحـــاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 2، دارالفكر،1979، ج1، ص:331. الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تح :

3- طريــق سجلماسة – وادي درعة – بلاد السودان :

وهو مسلك يقع غرب المسلك السابق، و يمر عبر صحراء نستر مباشرة دون المرور على أودغشت ، وبدأت الإشارة إليه مع ابن الفقيه، الذي قال إن محطة انطلاقه هي مدينة طرقلة من بلاد السّوس، مقدّرا المسافة بينها وبين مدينة غانة بثلاثة أشهر في مفاوز وقفار[2]، وقد قدم له البكري وصفا دقيقا محددا لمراحله والمناطق التي يعبرها، فمن سجلماسة إلى وادي درعة، إلى وادي تارجا الذي يعد أول الصحراء، ثم يتجه إلى بئر تزامت التي "يزعم قوم أن بني أمية صنعتها"[3]، إلى جبل أدراران، حيث يمشي المسافرون فيه في مجابة دون ماء لمدة ثمانية أيام تسمى:" المجابة الكبرى"، قبل أن يصل الطريق إلى آبار ماء لبني نيستر، ومنه إلى قرية مدوكن اللمتونية، ومنها إلى بلاد السودان نحو عشر مراحل[4]، وهذا الطريق عند تأمله بمثابة خط مستقيم أحد طرفيه سجلماسة والآخر غانة، وقد قدر البكري مسافته بخمسة وستين يوما، خمسة منها بين سجلماسة ووادي درعة [5]، وأشار الزّهري والإدريسي وابن سعيد المغربي إلى استمرار سلوك هذا الطّريق في القرن 6هـ/12م[6].

ولا شك بأن القوافل كانت تغامر بسلوك هذا الطريق من أجل العبور على مملحة تاتنتال (تغازة)، والتي تبعد بــ 20 يوما عن سجلماسة حسب البكري و 25يوما حسب ابن بطوطة[7]، وهي في مجال قبيلة مسوفة، ويعتقد أن استغلال هذه المملحة بدأ منذ القرن 2هـ/8م ، ليبلغ ذروته في القرن 5هـ/11م[8].

ومن المحتمل أن يكون هذا الطريق قد ازدهر أكثر منذ القرن 5هـ /11م ، لأن تراجع دور أودغشت، ثم ظهور تنبكت في أواخر هذا القرن كمركز تجاري إلى جانب نمو مدينة جني، قد ركز حركة القوافل أكثر في الجهة الشرقية من هذه المنطقة، وساعد على ذلك الاضطرابات التي عرفتها غانة على حدودها الجنوبية[9].

4- طريق نول لمطة – أزكي – بلاد السودان :

أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، بيروت ، دار إحياء التراث، 2000 ، ج7، ص:107. الزركلي ، الأعلام، ط 15، بيروت، دار العلم للملايين، 2002،ج1، ص:164.

1- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:19-20.

2- ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص:87.

3- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:350-351.

4- المصدر نفسه ،ج2، ص:350-351.

5- المصدر نفسه ، ج2، ص: 333.

6- الزهري ، المصدر السابق ، ص:125. الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1، ص: 105. ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص:112.

7- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:358. ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:684.

8- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:278.

9- الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص:316.

تراجـــع دور أودغشت الاقتصادي بعد قيـــام دولـــة المرابطين، فمنـــذ استعـــادتهم لهـــذه المدينة سنة 446هـ/1054م عملـــوا على تهميش دورهـــا السيـــاسي والاقتصادي،كمـــا أن انفصال جدالة عن الحلف الصنهاجي الثالث جعلهم يصرّفون ملح أوليل مباشرة إلى بلاد السودان دون المرور عليها، ومما يبرز تراجع دور أودغشت، الصورة التي قدمهـــا الإدريسي عنها حوالي منتصف القرن 6هـ/12م ،فقد أفاد أنها "مدينة صغيرة وعامرها قليل وليس بها كبير تجارة" [1] وكانت لمتونة قد أسست حصنا في آزكي في النصف الأول من القرن 5هـ/11م[2]، لتتحول مع أبي بكر بن عمر إلى حاضرة للفرع الجنوبي لدولة المرابطين، ومن ثم تحول الطريق من أودغشت إلى آزكي لمن قصـــد غانة وبلاد التكرور على حد سواء.

وأول إشارة إلى هذا الطريق نجدهـــا عند الإدريسي، حيث اعتبر مدينة أزكي أول مراقي الصحـــراء ، وأن الوصول إلى بلاد سلى وتكـــرور وغانة من بلاد الســـودان لا يتم إلا بالعبور عليها [3]، وهي تبعد بـــ7 مراحل عن مدينة نول، و13 مرحلة عن مدينة سجلماســـة ، وعندما يصل الطريق إليهـــا يتفرع منـــه طريقان فرعيان: **أحدهمـــا** باتجاه بلاد التكرور، يسلك مجـــال قمنورية على مسافة 28 مرحلة: 12 إلى قمنورية، و 16 بين قمنورية والتكرور[4]، أما **الآخر** فيتجه إلى غانـــة، ولم يقدر الإدريسي ولا من جاء بعده مسافته [5]، ويمكننا أن نستشف من تقدير ابن سعيد المغربي للمسافة بين تغازة وآزكي بـــ: 7أيام[6] ، بأن فرعا **ثـــالثا** لهذا الطريق كان يتجه إلى تغازة، وهو احتمال كبير جدا، لما تمثله هذه المملحة من أهمية كبيرة للتجار العابرين إلى بلاد السودان، ولأهل آزكي ذاتهم من أجل توفير أهم سلعة صحراوية من سلع التبادل مع السودانيين.

ويبدو أن هذا الطريق لم يستطع منافسة الطريق السابق، ذلك أن الإدريسي وصف جزئه الرابط بين قمنورية وتكرور بأنه"طرق مجهولة الآثار دارسة المسالك قليلة السالك ماؤها غائر وعلامتها خفية" [7]، وربما يعود هذا التراجع إلى قلة من يعرفون هذه المجالات، لأنها كانت لأهل قمنورية الذين أفناهم المرابطون مع بداية عملياتهم العسكرية، أو أن الجزء المرتبط بغانة كان أنشط، بينما بقيت التجارة مع التكرور تتم أكثر عبر الطريق الساحلي.

---

[1]- الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص:108.

[2]- البكري ، المصدر السابق ، ج1، ص:354،355. حيث يذكر أن أزكي حصن للمتونة بناه يانو الحاج بن عمر اللمتوني.

[3]- الإدريسي، المصدر السابق ،ج1، ص:224.

[4]- المصدر نفسه ، ج1، ص:106، وقارن بما ذكره ص:18-19، إذ نجد اختلافا يسيرا في تقدير هذه المسافات. الحميري ، المصدر السابق،ص:28.

[5]- المصدر نفسه ،ج1، ص:224. ابن سعيد ، المصدر السابق، ص:112. الحميري ، المصدر السابق ، ص:28.

[6]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص:113.

[7]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:106.

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن هذا المسلك غالبا ما كان ينتهي شمالا في مدينة نول دون مدينة سجلماسة، التي تراجع دورها التجاري في عهد الإدريسي، حيث قدم لها صورة قاتمة، بسبب الثورات التي أتت على أكثرها هدما وحرقا[1]، في الوقت الذي وصف مدينة نول بكونها مدينة كبيرة عامرة [2]، كما استفادت هذه الأخيرة من تطور المسالك الساحلية التي تمتد من نول لتمر بسبتة ووهران وتنس حتى تصل إلى مدينة طرابلس، ومن ثم أصبحت نقطة التقاء المسالك الصحراوية بالمسالك الساحلية[3].

ولكن يبدو أن مدينة نول لمطة لم تستطع الحفاظ على مكانتها الاقتصادية كثيرا، ذلك أن عبد الواحد المراكشي(ت:621هـ/1224م)أشار إلى أن التجـــار لا يقصدونها، ولا يسافر إليها إلا أهلها خاصة [4]، وهي إشارة هامة إلى تحول المحور الغربي للطرق الصحراوية من محور رائد إلى محور ثانوي.

ج- المسالك الغربية من الريادة إلى التراجع:

أكبر ما يدل على الأهمية الكبيرة التي احتلتها المسالك الصحراروية الغربية منذ القرن 2هـ/8م هي شبكة الطرق التي كانت تربط سجلماسة بمدن المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، مثل فاس وتيهرت، وتلمسان، والمسيلة، وطبنة، وباغاية، ومجانة، وسبيبة، والقيروان، وغيرها [5]، بالإضافة إلى الجاليات الكبيرة التي استوطنتها من بلاد المغرب والمشرق والأندلس، وقد اعتبر لفيتسكي (T.Lewicki) إشارة ابن الصغير عن نشاط المسالك السودانية المنطلقة من تيهرت في القرن 3هـ/9م، وتواجد تجار القيروان والكوفة والبصرة فيها، دليلا على النشاط الكبير لسجلماسة، لأن مسالك تيهرت كانت تمر عليها [6]، بل إن أغلب المسالك التجارية بالمغرب الإسلامي كانت تنتهي إلى هذه المدينة، وهو ما دفع جون دوفيس (J.Devisse) إلى اعتبارها تمثل الميناء الذي تجمع فيه السلع في التجارة العابرة للصحراء[7].

وقد استمر نشاط المسالك الغربية مدة طويلة، وأدى ذلك إلى ثراء عدة مدن ببلاد المغرب والسودان، لكن التنافس على المدن الواقعة في نهاية الطرق شمالا، أدى إلى نشوب صراعات دامية بالمغرب الإسلامي طيلة القرن

---

[1]- المصدر نفسه ، ج1، ص:225.

[2]- المصدر نفسه ، ج1، ص:226.

[3]- يوسف عابد، المرجع السابق ،ج2، ص:569.

[4]- عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح : محمد زينهم محمد عزب، القاهرة ، دار الفرجاني، دت، ص:292.

[5]- محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، الدار البيضاء،دار الثقافة،1985، ص:277.

[6]- Tadeusz Lewicki, "Le role du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud", HISTOIRE GENIERALE DE L'AFRIQUE , UNESCO,1990, T:3 , P:307-308.

وهو يشير في نفس الموضع إلى طريق آخر يربط تيهرت ببلاد السودان عبر واحات وادي ريغ أو وارجلان.

[7]- Jean Devisse ,op.cit.p :408-409.

4هـ/10م، ويتجلى ذلك في حرص الدولة الفاطمية على السيطرة على مدينة سجلماسة وتيهرت وفاس وغيرها، وتدخل الأندلس الأموية بجيشها من أجل حماية مصالحها بالمنطقة، واستمرار تدفق الذهب والعبيد من السودان الغربي إليها، كما قاد أيضا إلى استفحال الصراع بين الحلف الصنهاجي وغانة في الصحراء حول أودغشت، والذي انتهى باحتلال غانة للمدينة في نهاية القرن 4هـ/10م، لكن كل ذلك لم يؤدّ إلى تراجع النشاط التجاري، كما يدل على ذلك الوصف الذي قدمه ابن حوقل والمهلبي والبكري لكل من سجلماسة وأودغشت.

ثم تعززت أهمية هذه المسالك في القرن 5هـ/11م، إذ تمكن المرابطون من توحيد منابع ومصادر ومواد وطرق وأسواق"تجارة العبور"بين الشمال والجنوب، بفضل وحدة الغرب الإسلامي التي أنجزوها[1]، وأسهم تأمينهم للطريق من قطاع الطرق ورفع الضرائب على السلع في بداية دولتهم إلى تنشيطه، في الوقت الذي كان الطريق الشرقي يعاني من غياب الأمن بعد الغزو الهلالي، والطريق الأوسط يدفع ضريبة السياسة الفاطمية التي لجأت إلى تدمير مدنه بعد عجزها عن السيطرة عليها[2]، ونلحظ ذلك بجلاء مثلا في حالة تيهرت التي كتب عنها ابن الصغير (ت:بعد 294هـ/906م) قائلا: " ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه (...) واستعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة"[3]، بينما يصفها ابن حوقل منتصف القرن 4هـ/10م بأنها تغيرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر فقراء، بسبب الفتن المستمرة، ودوام القحط[4]، وكل هذا أعطى دفعا كبيرا للمحور الغربي من الطرق الصحراوية.

وبدأ هذا المحور يفقد دوره الريادي منذ النصف الثاني من القرن 6هـ/12م[5]، ولكن دون أن تتخلى عنه القوافل مطلقا، لمادلت عليه بعض الإشارات المصدرية من استمرار سلوك طريق سجلماسة نحو غانة[6]، وانتقلت الريادة بالتدريج نحو المحور الأوسط[7] ثم الشرقي، لأسباب سياسية وديموغرافية واقتصادية عديدة، ترتبط بالتحولات بالتحولات التي حدثت في حوض البحر المتوسط، كما سبب ذلك التحول في مراكز توفر الذهب والعبيد في

---

[1]- محمود إسماعيل، فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، القاهرة ، مكتبة مدبولي، 1988، ص:61.

[2]- عز الدين عمر موسى ، دراسات إسلامية غرب إفريقية ، مرجع سابق ، ص:57-63.

[3]- ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، تح : محمد ناصر و إبراهيم بحاز، الجزائر ، المطبوعات الجميلة 1986، ص:32-33.

[4]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص: 93.

[5]- أنظر مناقشة ذلك عند: هوبكنز، المرجع السابق، ص:166-167.

[6] - Adamou Aboubaca, Les relations politiques et Culturelles entre le Maroc et le Mali a travers les ages, Rabat, institut des Etudes Africaines, 1991,p:8.

[7]- عن استمرار أهمية الطريق الأوسط أنظر : العياشي، الرحلة العياشية (1661-1663م) ، تح: سعيد الفاصلي وسليمان القرشي، أبوظبي، دار السويدي،2006، ج1، ص:79-80، وذلك بسبب استمرار منطقة بوري في إنتاج الذهب، وهو ما يعزز اعتبار إنتاج الذهب أحد أهم الأسباب في تحول الطرق بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي .

السودان الغربي، وفي نهاية القرن 6هـ/12م ، بوصول عرب معقل إلى الصحاري الغربية و بداية صراعاتهم مع صنهاجة الصحراء.

ولكن هذا الطريق لم يكن ليشتهر، ويختص بتسيير أغلب القوافل التجارية في مرحلة ريادته، لولا الدعم الذي قدمته قبائل صنهاجة الصحراء لسالكيه، وقيامهم بتذليل الصعوبات الكبيرة التي كانت تكتنف عبوره، مثل نقص المياه واختفاء معالم الطرق بسبب العواصف الرملية وغيرها، فكيف أسهم الملثمون في تيسير حركة القوافل العابرة عبر مجالهم؟

2- صعوبات المسالك الصحراوية ودور الملثمين في تيسير حركة القوافل.

- توطئـــــة.

لقد استطـــاع الطريق الغربي الذي يربط بين بلاد المغرب الإســـلامي والســـودان الغربي أن يجذب إليه أغلب التجـــار الرّاغبين في عبور الصحراء، وذلك لعدة اعتبـــارات، ربمـــا أهمهـــا أن المجالات التي كان يمر عبرها كانت توفر أهم سلعة مطلوبة لدى السودانيين، وهي الملح ، وهو ما لا توفره مجـــالات الطريقين الأوسط والشرقي بكميات كافية، كما أن نهـــايات هـــذا الطريق كانت إلى غـــاية النصف الأول من القرن 6هـ/12م تقع عند أهم منـــاطق الذهب والعبيد السودانية، وهما أهم سلعتين مطلوبتين من تجار المغرب الإسلامي، إضـــافة

إلى استفـــادته من توقف طريق مصر إلى بلاد السودان عبر الواحـــات منذ القرن 3هـ/9م، والذي رد ابن حوقل أسبـــاب انصراف التجـــار المشـــارقة عنه إلى الرياح التي أهلكت عدة قوافل وأتت على الكثير من التجـــار، بالإضـــافة إلى قطـــاع الطرق الذين سلبوا وقتلوا الكثير من عـــابري هذا المسلك، وهو مـــا دفعهم إلى التحول نحو طريق سجلمـــاسة[1]، وإضـــافة إلى ذلك فقد كان هذا الطريق شـــاقا جدا ومفتقدا إلى المياه على مســـافات طويلة، فقد نص صـــاحب حدود العـــالم بأن إحدى مراحله مسيرة ثمـــانين يومـــا على البعير، لا يوجد المـــاء والكلأ فيه سوى بموضع واحد[2].

وليس معنى هذا أن السفر عبر المحور الغربي كان يتم في ظروف مســـاعدة، بل إنه كان أحيانا أشبه بالمغـــامرة ، فالمسلك صعب والاستعداد شـــاق جدا، والوصول لا يتم إلا بعد معـــاناة عظيمة [3]، وعلى رأس هذه المشـــاق المنـــاخ القاسي، فالمدى الحراري اليومي والفصلي كبير جدا، فقد ترتفع الحرارة إلى خمسين درجة في النهـــار وتنخفض إلى عشرين درجة تحت الصفر ليلا [4]، ولكن الأرباح النـــاتجة عنه هي التي تدفع إلى سلوكه وتحمل الأخطـــار المحيطة بذلك، وقد أشـــارت المصـــادر العربية إلى هذه الأخطـــار التي تكتنف عبور المحور الغربي من المسالك الصحراوية، وأبرزت أهمية الدور الذي تقوم به قبـــائل صنهـــاجة الصحراء في تيسير حركة القوافل، إلى الحد الذي يمكننا القول بأن هذه التجـــارة لم تكن لتوجد لولا حرص قبائل الصحراء على تنشيطها، لأنها كانت أهم دعامة الاقتصاد الصحراوي.

أ- ندرة المـــاء و دور الملثمين في توفيره:

ركزت جميع المصادر على ندرة المياه في مسالك الطريق الغربي، فهذه المنطقة حسب ابن حوقل: "مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه، متعذرة المراعي، لا تُسلك إلا في الشتاء، وسالكها في حينه متصل السفر دائم الورد والصدر"[5]، وكلها تفتقد إلى الماء في عدة مجابات، فطريق تامدلت أودغشت فيه مجابة خالية من الماء على مسافة أربعة أيام[6]، وفي صحراء نستر مفازة ينعدم فيها الماء لمدة أربعة عشر يوما[1]، كما أن طريق درعة ـــ بلاد السودان

[1]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:65. ورفض جون دوفيس (J.Devisse) تعليل ابن حوقل لانقطاع طريق مصر إلى بلاد السودان بالظروف الطبيعية، واعتبر ذلك مرتبطا بتحولات اقتصادية عميقة. أنظر: Jean Devisse, op.cit.p:404.

[2]- مجهول ، حدود العالم ، مصدر سابق ، ص:148.

[3]- الإصطخري ، المصدر السابق ، ص:39. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،ج2، ص:12.

[4]- لطيفة بشاري بن عميرة، الرق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين (ق. 1-4هـــ/7-10م)، أطروحة دكتوراه، إشراف بوبة مجاني، جامعة الجزائر ،2008، ص:222.

[5]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص: 103. ونشير هنا إلى أن الأمطار في هذه الصحارى نادرة، وقد تمر عدة سنوات دون أن تنزل في بعض المناطق، كما يبلغ معدل التساقط في بعضها (مثل: الصحارى الواقعة على شاطىء الأطلسي حيث مجالات جدالة) مستويات تصل إلى 20ملم في السنة فقط، أنظر: إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 14-15.

[6]- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:343.

السودان مباشرة على الصحراء، فيه المجابة الكبرى التي يضطر المسافرون فيها إلى الاعتماد على ما يحملونه من الماء لمدة ثمانية أيام[2]، ونفس المشكل بالنسبة لطريق أزكي إلى التكرور، فهو قليل الماء، وما فيه من الآبار صارت غائرة على عهد الإدريسي[3]، كما أن بعض الآبار الموجودة في هذه المسالك، والتي يضطر المسافرون لاستعمالها، تتوفر على مياه مالحة لا تصلح للشرب، أو فاسدة يؤدي استعمالها إلى مرض وإسهال التجار وإبلهم على السواء[4].

وقد يضطر التجار من أجل تحصيل الماء إلى حفر الآبار التي زعم بعضهم أن عمقها قد يبلغ إلى 150قامة![5]،ويبدو أن هذا العمل كان مما تختص به قبائل صنهاجة الصحراء، التي تكون قد طورت تقنيات خاصة بها تسمح بالحفر العميق بحثا عن الماء، ولكن الاستفادة من الآبار لم تكن تطول كثيرا بسبب تهدم بعضها [6]، ولذلك يضطر التجار إلى حمل الماء على ظهور الجمال، وكل ذلك لا يكفي لولا قبائل صنهاجة الصحراء التي توفر الماء، وتستعمل طرقا مبدعة في الحصول عليه.

وقد كانت أماكن توفر المياه في مختلف الطرق الصحـــراوية، تتبع قبيلة من قبائل صنهـــاجة الصحـــراء، فرغم حيـــاة الترحال المستمرة التي يحيونهـــا فهم ينتقلون بين هـــذه الآبار، فقد كانت مسوفة وشرطة وسمسطة تمتلك ميـــاه طريق سجلمـــاسة إلى أودغشت [7]، و يملك بنو نيستر الميـــاه الواقعة بعد المجابة الكبرى بين سجلماسة وغانة، والتي تعد بالـــغة الأهمية، إذ لا يمكن للتجـــار الانحـــراف عنهـــا بعد مفازة طويلة لا ماء فيها مسيرة ثمانية أيام[8]، كما كانت لمتونة تسيطر على مكانين هـــامين بهمـــا مـــاء وفير قرب بلاد السودان، همـــا أمطلوس وتاليوين[9]، وكان لا بد على السالكين لطريق سجلمـــاسة ــ غـــانة مباشرة، من المرور على هـــذه الآبار لحمل المـــاء.

بالإضافة إلى هذه الآبار والعيون التي يسيطر عليهـــا الملثمون، فإن لهم دراية كبيرة في الدلالة على مناطق وجود الميـــاه، فقد وصف ابن حوقل مسوفة بالمهـــارة في الدلالة على المـــاء بالصفة والمذاكرة [10]، وأشـــار

1- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:18. العمري ، المصدر السابق ،ج ، ص:211.

2- البكري ، المصدر السابق ، ج2،ص:350-351.

3- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:108.

4- البكري ، المصدر السابق،ج2،ص: 343،351. ياقوت الحموي ،المصدر السابق ،ج2،ص:12. الوزان ، المصدر السابق ،ج1،ص:148-149

5- السلفي ، معجم السفر ، تح: عبد الله عمر البارودي، مكة المكرمة ، المكتبة التجارية ، دت، ص290.

6- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:343.

7- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:98.

8- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:350-351.

9- المصدر نفسه ،ج2، ص:351.

10- ابن حوقل ،المصدر السابق، ص:98.

الإدريسي إلى أن أحد أهل "بغامة"[1] كان برفقة إحدى القوافل في أرض خالية رملة ليس بها أثر للمـــاء ولا لغيره، لغيره، فأخذ غرفة من ترابهـــا، ثم اشتمه وقال لأهل القافلة: احفروا ها هنا، فحفر الناس في ذلك الموضع أقل من نصف قـــامة فخرج إليهم المـــاء الكثير والعذب[2]، وكان هذا من أهم أسبـــاب استصحـــاب للقوافل للأدلة من من قبـــائل صنهاجة الصحراء.

ومن مهارة أهل الصحراء في تحصيل المياه العبور على أماكن وجود شجر "الياوباب" المجوف العظيم، حيث يجتمع ماء الأمطار شتاءا في تجاويفها فتبقى كالحياض إلى زمان الصيف، وبذلك تحل الشجرة محل البئر[3]، كما أنهم أنهم يلجئون إلى ذبح جمـــالهم، أو البقر الوحشي الذي يصطادونه من أجل التزود بالمـــاء الذي في بطنه[4]، بعد أن أن يعملوا على تحليته، بأن يعلقوا المـــاء الموجود في كروشهـــا، ويوقدون تحته النـــار فإذا صفي تركوه حتى يبرد ويشربونه[5].

ولأن قبائل صنهاجة الصحراء يعرفون محطات راحة القوافل وحـــاجتهم الملحة للمـــاء ، فإنهم كانوا يقصدونهم في هذه المحطـــات من أجل بيعه لهم[6]، وهو مـــا يجعل التجـــار في غنى عن البحث عنه، أو الاضطرار إلى إطـــالة الطريق من أجل العبور على بعض الآبار البعيدة، فيختصرون بذلك الطريق ويوفرون الجهد ويقتصدون في المئونة.

ب- الريـــاح وضياع الطريق ومهارة الملثمين في الدلالة بالصحراء:

كانت الرياح الرملية الصحراوية الحارة تشكل خطرا كبيرا على القوافل التجارية، ذلك أنها تنشف المياه داخل الأسقية التي يحملها التجار على جمالهم[7]، ما يدفعهم إلى خياطة التلاليس عليها[8]، كما أنها تغطي الآبار التي تمثل محطات ضرورية للقوافل[9]، أما أكبر الأخطار التي تسببها هذه العواصف الرملية فهو تغيير معالم الطرق الصحراوية،

[1]- بغامة: إحدى قبائل صنهاجة الصحراء، كانت تسكن قريبا من قبيلة مداسة بالقرب من ثنية نهر النيجر، وحسب نص الإدريسي فإن مجال بغامة يقع إلى الشمال من مجال مداسة. أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج1،ص: 25.

[2]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:27-28.

[3]- القزويني ، المصدر السابق ، ص: 57. ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص: 688. حسين مؤنس ، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، القاهرة، دار المعارف ،1980، ص:230-231.

[4]- ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،ج2، ص:12. ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:685. الوزان ، المصدر السابق ،ج1، ص:76.

[5]- أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم شنقيط ، القاهرة/موريتانيا، مكتبة الخانجي/مؤسسة المنير،1989، ص:441.

[6]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:686.

[7]- ياقوت الحموي ،المصدر السابق ،ج2، ص:12.

[8]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:685.

[9]- الوزان ، المصدر السابق ،ج1، ص:76.

الصحراوية، وذلك بنقل كثبان الرمال من مكان إلى آخر [1]، وهو ما يؤدي إلى ضياع القافلة، فقد ذكر ابن حوقل عن تجار طريق مصر إلى بلاد السودان عبر الواحات أن الرياح أهلكت الكثير منهم [2]، كما أشار المالكي إلى أن إحدى القوافل أسفت عليهم الريح فدفنتهم أجمعين[3]، ولذلك كانت القوافل إذا بدأت الريح الصحراوية كفت عن الحركة، لأنها ترفع التراب حتى لا يفرق بين السمـــاء والأرض، وهذا ما يؤكد الحـــاجة إلى دليل حـــاذق مـــاهر خبير بدروب الصحراء ومتمرس في فيافيهـــا، وهو الدور الذي قام به الملثمون، لأن قبائل صنهـــاجة الصحراء قد استطاعت أن تتكيف مع هذه الظروف الطبيعية القاسية، وتستثمر خبراتها في تيسير حركة القوافل التي تعبر مجالها.

لقد وصف ابن حوقل مهارة مسوفة في الدلالة على طرق الصحراء بأن فيهم "المعـــرفة بأوضاع البر وأشكاله والهداية فيه، والدلالة على ميـــاهه بالصفة والمذاكرة ، ولهم الحس الذي لا يدانيه في الدلالة إلا من قـــاربهم وسعى سعيهم"[4]، وكـــانت بعض الطرق لا يمكن سلوكهـــا إلا بدليل من صنهـــاجة الصحـــراء، مثل طريق مصر ـــ سجلماسة عبر الصحراء الليبية [5]، وكان الأدلاء من خلال خبرتهم يستطيعون تمييز الأماكن عن طريق المعالم الثابتة، فكانوا يهتدون بالجبال والنجوم [6]، ويقدرون سرعة أو بطء السير لكي ينتهوا إلى أماكن الراحة في الوقت المناسب، إذ أن المسير في الصحراء كان يتم وفق أسلوب دقيق، لا شك بأنه انتقل من صنهاجة الصحراء إلى جميع التجار الذين صاروا يعبرون مجالاتها.

وقد قدم لنا الإدريسي صفة السير في صحراء نيسر بأن التجار:" يوقرون أجمالهم في السحر الأخير، ويمشون إلى أن تطلع الشمس ويكثر نورها في الجو ويشتد الحر على الأرض، فيحطون أحمالهم ويقيدون أجمالهم ويعرسون أمتعتهم، ويخيمون على أنفسهم ظلالا تكنهم من حر الهجير وسموم القائلة، ويقيمون كذلك إلى أول وقت العصر، وحين تأخذ الشمس في الميل والانحطاط في جهة المغرب يرحلون من هناك، ويمشون بقية يومهم ويصلون به المشي

1- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:18.

2- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:65.

3- المالكي ، المصدر السابق، ج2، ص:102.

4- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:98.

5- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج 1، ص:345-346. وربما كان ذكر الإدريسي لهذا الطريق إشارة إلى أن التجار عادوا لاستعماله بعد الانقطاع الذي تحدث عنه ابن حوقل.

6- دهينة عطاء الله ،"العلاقـــات التجـــــارية بين المغرب و الســــــودان عبر الصحراء من القرن 6إلى القرن8هـــ ودور تلمســـــان في هذا الميدان"، الأصالة،26(1975)، ص:99-100.

إلى وقت العتمة، ويعرسون أينما وصلوا، ويبيتون بقية ليلهم إلى أول الفجر الأخير ثم يرحلون، وهكذا التجار الداخلون إلى بلاد السودان على هذا الترتيب لا يفارقونه"[1].

ولا شك أن الدليل لخبرته بالصحراء سيعمل على اختيار أحسن أماكن الراحة، ويتجنب الأماكن غير الآمنة سواء من قطـــاع الطريق أو من الحيوانات المتوحشة والحيات القاتلة، ويمكننا أن نلاحظ في هذا المجـــال أن قبيلة مسوفة كانت متميزة في عمل أفرادهـــا كأدلة للقوافل في الفترة المدروسة، وهو الدور الذي استمر بعد ذلك، ففي رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان سنة 753هـ/1352م كـــان مقدم القافلة رجل من مسوفة، ودليلهـــا إلى ولاته وإلى مالي من مسوفة أيضا، كمـــا كان أصحـــاب القوافل يكترون رجالهـــا لقص أثر الأفراد المتخلفين أو الضائعين[2]، وإذا كان يبدو لأول وهلة أن العمل كدليل للقوافل يعتبر مبادرة عمل فردية من الملثمين، لكن ليفتسكي (T.Lewicki) يقترح أن القيام بهذا الدور إنما كان يتم تحت إشراف زعامة الحلف الصنهاجي في الصحراء[3].

ج- خطـــــر الوحوش و الهوام وخبرة أهل الصحراء في الوقاية منها:

كان تجار المغرب الإسلامي العابرون لمجالات صنهاجة الصحراء باتجاه السودان الغربي ـــ إلى جانب ما قدمناه عن معاناتهم مع الحرارة ونقص المياه و الرياح ـــ، يعانون أيضا من الحيوانات المتوحشة والحيات الموجودة في الصحراء، حتى أن بعض المناطق اشتهرت بها، فقد كان جبل أزوز على بعد مرحلتين من تامدلت كثير الثعابين [4]، وكذلك جبل الكاف شرق مجال لمتونة الذي كان التجـــار لا يقتربون منه لكثرة ثعابينه [5]، وفي صحراء نيسر التي التي يعبرهـــا مسلك درعة – سجلماسة "حيات كثيرة، طوال القدود غلاظ الأجسام" [6]، ولم يكن الطريق الساحلي أحسن شأنا، إذ أن أحد جباله كله حيات مهلكة، حتى سمّي من كثرتها بالجبل اللمّاع [7]، وبعد المجابة الكبرى بين تامدلت و أودغشت يوجد جبل كثير الوحوش [8]، وكل هذا يدفع التجار بالضرورة إلى عدم المغامرة بعبور هذه المسالك دون رفقـــاء من أهل الصحراء، كي يسلكوا بهم ممرات بعيدة عن هذه الأخطـــار، فقد ذكر

---

[1]- الإدريسي ،المصدر السابق ،ج1، ص:107-108.
[2]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:684،685،688.
[3] - Tadeusz Lewicki ," Le role du Sahara et des Sahariens…"op.cit.p :309.
[4]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:342.
[5]- ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص:114.
[6]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:107.
[7]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق ، ص:112.
[8]- البكري ،المصدر السابق ،ج2، ص:343-344.

ابن سعيد ــــ نقلا عن إبن فاطمة ــــ أن جــــدالة أنقذت بعض المسافرين الضائعين من الجبل اللمّاع بعدما كانوا عــــازمين على العبور من خلاله[1].

ومما يؤكد أن صنهاجة الصحراء كانوا يجيدون التعامل مع هذه المواقف الخطيرة، أن طول المعاناة لها قد عرفهم بأساليب عديدة لتجنب خطر هذه الحيات، فقد ذكر ابن بطوطة أن أحد رفقاء رحلته لسعته حية في أصبعه، فداوته مسوفة بأن كُويت يده لإزالة ألمه، ثم أمروه أن ينحر جملا ويدخل يده في كرشه، وأن يتركها كذلك ليلة كاملة، فلما فعل ذلك تناثر لحم أصبعه، فقطعها من الأصل، ونجا من الموت [2]، أما الوحوش فكان الأدلاّء يتجنبون العبور على المجالات التي توجد بها، وعندما يضطرون لذلك يسرعون السير، أو يستعملون مهاراتهم في الصيد للتصدي لها، مع ما عرف عنهم من الشجاعة والإقدام .

د- خطــر قطـــــاع الطـــريق وخفارة صنهاجة الصحراء للقوافل:

قطع الطريق من الأخطار التي كانت تؤرق التجار، لأن اللصوص كانوا يضطرونهم إلى تغيير خط السير الأيسر خشية من الوقوع في أيديهم، وهو ما يعني فقدانهم لكل ما غامروا بالرحلة من أجله، وربما فقدان أرواحهم أيضا، وفي بعض الأحيان كان قطاع الطريق يكتفون بمقدار من المال يؤخذ من القافلة مقابل السماح لها بمواصلة السير[3]، والمطّلع على كتب الرحلات التي عبرت مجالات صحراوية يلحظ أن هذا الهم كان مسيطرا على الرحالة طول الطريق، خاصة عندما تفتقد الصحراء إلى سلطة حقيقية تضبط الأمن فيها.

وقد كانت الطرق التي تمر على مجال صنهاجة الصحراء غير آمنة من هذا الخطر في فترات عديدة، ولا ريب أن ذلك مرتبط بمدى قوة وضعف الحلف الصنهاجي، الذي يعتبر قطع الطريق الصحراوي الغربي حرمانا له من عائدات التجارة الصحراوية، التي كانت حواضره من أهم المستفيدين منها مثل أودغشت وأزكي وغيرها، وبالتالي فلا يمكننا الركون إلى الرأي الذي يدعي بأن اقتصاد الحلف ذاته كان قائما على نهب القوافل، بل أن ذلك كان تصرفا من فروع قبلية مستقلة أو جماعات متمردة على زعامتها، أو في فترات انفراط عقد هذا الحلف، كما

---

[1]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق ، ص:112.

[2]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص: 686. ومما يدل على إلفهم لهذا النوع من الحياة القاسية، أن بعض المصادر أشارت إلى أن صنهاجة نيسر وجدالة كانوا يصيدون الحيات ويأكلونها؟ أنظر: الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص،107. ابن سعيد، المصدر السابق ، ص :111.

[3]- جاء في جـــامع مســـائل الأحكام للبرزلي:"سئل سحنون عن رفقة من بلد السودان يؤخذون بمـــال في الطريق ، لا ينفكون عنه فيتولى ذلك بعضهم و يأخذ من الباقي، فقال لا نجد الخلاص إلا بذلك، فهي ضرورة لا بد لهم منها و أراه جائزا ".البرزلي ، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، تح: محمد الحبيب الهيلة، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 2002، ج5، ص:202. الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي ، بيروت، دار الغرب الإسلامي ،الرباط ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،1981ج9، ص:567.

حدث بين سنتي 306هـ -340هـ عند تشرذم الحلف الأول ، وكذلك بين انفراط الحلف الثاني وقيام الحلف الثالث حوالي 366هـ- 424هـ، دون نفي وجود جماعات تمتهن قطع الطريق كمصدر رزق لها.

وقد أشار البكري إلى قطع لمطة وجزولة للطريق بين تامدلت وأودغشت، مستغلين ضرورة عبور القوافل على أحد مواضع الماء الهامة الذي يعتبر ملتقى جميع طرق بلاد السودان، كمـــــا تقطع السودان الطريق في مرحلة سيطرتهم على أودغشت على بعد أربعة أيام منها إلى الشمال [1]، ويمكننا أن نخمن أن هذه لم تكن رغبة ملك غانة كذلك، و إذا كان المرابطون قد عملوا على تأمين الطريق الغربي وجعلوه في حمايتهم، فإن هذه الظاهرة سرعان ما عادت للظهور في الفترة الموحدية، إذ تدل المعلومات الواردة في المصادر إلى قطع طريق سجلماسة غانة [2]، بل ورد ما يدل على الاستيلاء على قافلة كاملة متجهة إلى هذه الحاضرة السودانية سنة 594هـ/1197م[3].

إن هذا الخطـــر هو الـــذي دفع بالتجـــار إلى استصحـــاب حمـــاية لقوافلهم غالبا ما كانت تتمثل في العبيد المسلحين، ولكن الأهم من ذلك الاستعـــانة بخفر القوافـــل من صنهـــاجة الصحـــراء الذين يعرفون الطرق الآمنة، ويميزون المناطق المفتقدة إلى زعـــامات تسيرهـــا عن غيرها، بل ويستغلون قوة قبائلهم وانتظـــامها تحت قيادة موحدة في ضمـــان أمن القوافل، وإيصـــالها ســـالمة برجـــالها وسلعهـــا إلى مقصدهـــا ببلاد المغرب أو السودان الغربي، ولذلك كان التجـــار يعتبرون وجود حرس للقوافل من الملثمين، من أهم مستلزمـــات عبور الصحراء، لأن قطـــاع الطريق المستعدون للدخول في مواجهة مع القوافل العـــابرة للصحراء، ليس بإمكانهم مجـــابهة القبائل الصحراوية في مجالهـــا والدخول معهـــا في صراع مستمر، خاصة إذا نظرنا إلى أن هذا العمل كان يتم تحت وصـــاية قيادة الحلف الصنهـــاجي، التي تضمن أمان الطريق للقوافل، وتكلف خفرها بالسير بالقافلة في المناطق المؤمنة[4].

لقد كانت خفـــارة القوافل من أهم الأدوار التي قامت بها صنهاجـــة الصحراء منذ بدايات هذا النشـــاط الاقتصادي، وكانت تفرض مقابل ذلك ضرائب على التجار، تبدو كأنها أجرة على الحماية، ويتم تقديرهـــا بحسب عدد الجمال والأحمال، وهو بذلك يحقق خدمة مزدوجة للتجـــار ولصنهاجة الصحراء التي تجد في ذلك مصدر رزق لهـــا، فقد نص ابن حوقل على أن هذه الضرائب بها "قوام بعض شؤونهم" [5]، كما يمكن اعتبار هذه

1- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:342-343.

2- المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، بيروت ، دار صادر، د ت ،ج3، ص:107.

3- الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ،1997، ج43، ص:399.

4 - Tadeusz Lewicki , "Le role du Sahara et des Sahariens…" op.cit.p :309.

5- ابن حوقل، المصدر السابق،ص:99. ويرى عبد الله العروي أن خفارة القوافل يعتبر العمود الفقري للنظام الاجتماعي لدى قبائل الجمّالة، ولا ريب أن ذلك لكونه حاجة ملحة لمعاشهم، ومن ثم فمن غير المنطقي أن يوصف سكان الصحراء بكونهم يعيشون على نهب التجار، لأن ذلك في الحقيقة تضييع لأساس حياتهم الاقتصادي ،أنظر: عبد الله العروي ، المرجع السابق ، ص: 214-215.

الضريبة مقابل عبور المجال واعترافا ضمنيا بسلطة هذه القبائل على المسالك العابرة لأرضها [1]، ولا ريب أنه لولا عمل صنهـــاجة الصحراء على حماية القوافل ، والحرص الشديد على ذلك لصارت الصحراء كلها خاضعة لقطاع الطرق، وذلك ما يقود إلى توقف النشاط التجاري، ما ينعكس بالضرر على التجار والملثمين على حد سواء.

وقد أسهم قيام الدعوة المرابطية ودولتها في نشر الأمن في ربوع الصحراء، خاصة أن ابن ياسين لم يتهاون في تطبيق حد الحرابة على من استوجبه من أفراد قبائل صنهاجة الصحراء، و هو ما يحيل إلى حرص المرابطين منذ البداية على تأمين السبل، وحمـــاية القوافل التجارية العابرة للطريق الغربي، الأمر الذي عزز من أهمية هذا الطريق، وجعله رئة الاقتصاد المرابطي، وهو ربما ما دفع عبد المؤمن بن علي في ثورته على المرابطين إلى السيطرة على منطقة السوس الأقصى، ما أدى إلى تراجع النشاط التجاري كما تنص على ذلك إحدى رسائل الجنيزة التي فيها :" منذ احتل الخارجي [يقصد عبد المؤمن بن علي] السوس ساد الركود وضرب بروحه الأرض"[2]، وهو ما يوضح الأثر الكبير لانعدام الأمن على النشاط التجاري.

لكن يبدو أن ظاهرة قطع الطريق قد عادت إلى صحراء الملثمين بعد سقوط دولتهم وعجز فرعها الصحراوي عن توحيد كل المجال تحت سلطته، كما يدل عليه قتل والي سجلماسة أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن (ت بعد 600هـ/1203م) "للخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة" [3]، و لأن الوالي لا يمكنه أن يحمي كل الطريق الغربي، فيمكن أن يكون هذا الأمر من أسباب تراجع هذا الطريق منذ النصف الثاني من القرن 6هـ/12م، بما يظهر بجلاء الأثر السلبي لانفراط عقد الحلف الصنهاجي على التجـــارة العابرة للصحراء في محورها الغربي.

إضافة إلى كل ماسبق، كانت قبائل الملثمين توفر الجمال للقوافل، فكانوا يكترونها منهم، خاصة من مدينة أودغشت، حيث بلغت أعداد الجمال لدى أهلها أرقاما كبيرة، كما أن سكان مدينة نول لمطة كانوا يصنعون السروج و اللجم و الأقتاب المعدة لخدمة الإبل[4]، فكان التجار يشترونها للتجهز لبلاد السودان، كما كانت بعض

---

[1]- عند الوزان نستشف هذا البعد في الضريبة، فقد قدّر ما أنفقه أحد شيوخ إحدى القبائل الصحراوية على إكرام إحدى القوافل بما يساوي عشرة أضعاف ما دفعته له كضريبة على العبور ، الوزان ، المصدر السابق ،ج1، ص:60.

[2]- أمين توفيق الطيبي ، دراسات و بحوث في تاريخ المغرب و الأندلس، تونس ، الدار العربية للكتاب ،1997، ص:159.

[3]- المقري ، نفح الطيب، مصدرسابق ،ج 3، ص:107. والمقصود بالخوارج هنا قطاع الطرق الخارجين عن سلطة الدولة الموحدية، وليس الخوارج بالمفهوم العقائدي المذهبي.

[4]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:224.

القوافل تحرص على كراء أفراد من صنهاجة الصحراء من أجل تسيير إبلها، ولجمها إذا نفرت [1]، ومداواتها إذا مرضت، لما عرف عنهم من التحكم الجيد بها.

وليس معنى ما تقدم أن دور صنهاجة الصحراء في التجارة الصحراوية كان إيجابيا دائما، لكننا ندافع عن إيجابيته عندما يكون للملثمين زعامة تجمعهم وتنظم أمورهم، وبالتالي تعمل على ضمان مصدر هام من مداخيلهم، وهو ما يتضح بجلاء في الأحلاف الصنهاجية الثلاثة والدولة المرابطية، أما عندما يختل نظام القبائل وتسودها الفرقة والاختلاف، فإن هذا الدور قد ينقلب إلى تفكير في أفق ضيق، يبحث عن توفير الحاجيات عبر السلب والنهب، وهو ما يمثل الاستثناء وليس القاعدة في المرحلة المدروسة.

إن هذه التسهيلات التي قدمتها صنهاجة الصحراء للقوافل التجارية المارة على طول المحور الغربي إلى بلاد السودان، هو ما شجع التجار المغاربة والعرب على تسيير قوافلهم[2]، فقد وصف ابن حوقل تجارة مدينة سجلماسة منتصف القرن 4هـ/10م بأنها "غير منقطعة إلى بلد السودان وسائر البلدان وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة" [3]، وزعم البكري بعده بقرن أن الذهب فيها "جزاف بلا وزن"![4]، وهذا ما لم يكن ليحدث لولا ما وفره الملثمون من مياه ودلالة على الطرق وحماية من قطاع الطريق، وتوظيف لخبراتهم المتراكمة في الصحراء من أجل تنقل هذه القوافل التي نقلت البضائع و الأفكار والحضارة بين بلاد المغرب والسودان.

وبعض استعراض أهم مســالك المحور الغربي، وبيان الصعوبات التي كانت تعترض القوافل العــابرة له ، والخدمات التي قدمتها لهم قبائل صنهاجة الصحراء من أجل تنشيط التواصل التجاري مع بلاد السودان الغربي عبر مجالاتها ، فيجدر بنا الآن التعرف على أهم السلع التي كانت تنتقل عبر هذه الصحراء .

3- سلع بلاد المغرب إلى السودان الغربي عبر مجالات صنهاجة الصحراء.

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق،ص: 99. وقد ذكر من مشاهداته ما يبرز مهارة صنهاجة الصحراء في ذلك فقال:"ورأيت من بعض هذا القبيل وقد أثيرت جمال أراد هذا الرجل بعضها وقد قعد على طريقها وهي نافرة شاردة، وكانت بأجمعها فحولا بزّلا، فقبض على كراعه وهو نافر وقد ساواها في العدو فمنعه الحركة إلى أن ضرب به الأرض ونحره، فكأنه نحر عنزا أو قصد جديا".

[2]- صباح إبراهيم الشيخلي، "النشاطات التجارية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري"، تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث و الدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، بغداد، 1984، ص:37.

[3]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:96.

[4]- البكري ،المصدر السابق ،ج2 ،ص:337.

– **توطئة:**

شهدت مجالات صنهاجة الصحراء نشاطا تجاريا كثيفا في الفترة بين ق2هـ/8م و7هـ/13م، حيث كانت القوافل تعبر هذا المجال حاملة مختلف السلع المغربية والأندلسية والمشرقية والهندية وغيرها، وذلك بسبب الأرباح الكبيرة التي تجنيها عن طريق مبادلتها بالذهب في السودان الغربي، والذي يفوقها كثيرا من حيث القيمة بالنسبة للتجار الشماليين، وقد أسهمت قبائل صنهاجة الصحراء وحواضرها الصحراوية إسهاما بارزا في انتقال هذه السلع، حيث كان الكثير من التجار يكتفون بالوصول إلى الحواضر الصحراوية فيبيعون بضائعهم فيها، ليقوم الملثمون بحملها إلى بلاد السودان، كما أن الخدمات التي كانت تقدمها هذه القبائل للقوافل العابرة لمجالها يعتبر بذاته مشاركة هامة في انتقال السلع بين ضفتي الصحراء.

لقد قدر أحد علمـــاء النصف الثاني من القرن 6هـ/12م أن التجارة مع السودان تحقق ما يزيد على عشرة أضعاف من الربح [1]، الأمر الذي دفع بالمقري للقول في مرحلة لاحقة، بأن هؤلاء التجار يذهبون بسلع بسيطة ويأتون"بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع"[2]، وهو توصيف قريب مما ذكره العمري، عندما اعتبر التجار يذهبون إلى بلاد السودان بما لا قيمة له، ثم يعودون بالذهب الصامت وقر ركابهم[3]، وهذا ما يبرز حجم عائدات هذه التجارة.

وقد ذهب بعض الدارسين الغربيين إلى اعتبار هذه التجارة بمثابة عملية استتراف منظم من الشمال للجنوب، لأنها تجارة تجلب الذهب بقيمته العالية في اقتصاديات العصر الوسيط، مقابل سلع لا تعدوا كونها سلع ترف [4]، ولكن بيان هذه السلع التي كان يحملها تجار الشمال يبرز أن بعضها من الضروريات وبعضها من الكماليات، ذلك أن المرحلة الحضارية التي كان السودان الغربي يمر بها، وعدم اكتمال المفهوم الإداري للدولة، هو الذي قاد الملوك إلى عدم الاعتراض على هذا النوع من التبادل، ليبقى الدور الأساسي للإسلام هو التحول الفكري الذي فرضه من خلال الدعوة والمعاملة الحسنة، والذي قاد أخيرا إلى اندماج تام لبلاد السودان في دار الإسلام، ويظهر أن مثل هذه الأحكام تريد التسوية بين الحضور الإسلامي في السودان الغربي، وما فعله الأوروبيون الاستعماريون في المنطقة من عمليات اختطاف واستعباد ونهب وتصفية عرقية، وهي المقارنة التي لا يمكن أن يصل إليها البحث العلمي النزيه.

أ– الملـــــــــح:

[1]– الذهبي ، تاريخ الإسلام ، مصدر سابق،ج43، ص:399.

[2]– المقري ، نفح الطيب، مصدر سابق ،ج5، ص:206.

[3]– العمري ، المصدر السابق ،ج4، ص:211.

[4]– بانيكار ،المرجع السابق ، ص: 16–17،29–31.والملاحظ على هذا الكتاب أن صاحبه عمل جاهدا على إبراز الوجود الإسلامي في السودان الغربي في صورة سلبية تماما على المستوى الاقتصادي، مع الحرص على تقزيم الدور الثقافي للمسلمين.

كـــــان الملح أهم سلعة يحملها تجار الشمال إلى الجنوب، وقد كان يمثل بالنسبة للسودانيين ما يمثله الذهب لتجار الشمال، ذلك أن الحاجة إليه كانت ملحة والنقص فيه كان فاحشا [1]، وكان يشارك في هذه التجارة إلى جانب قبائل صنهاجة الصحراء، أغلب التجار المتجهين من بلاد المغرب إلى السودان الغربي [2]، ذلك أنهم كانوا يختارون العبور على ممالح أوليل وتاتنتـــال (تغـــــازة) وتوتك وغيرها من أجل التزود به من القائمين عليه، ومن ثم حمله إلى مدن سلى والتكرور وغانة وكوكو وغيرها.

لقد كانت جميع الممالح الصنهاجية فاعلة في هذا النشاط، ويعتقد بأن مملحة أوليل كانت أسبق إلى ذلك من غيرها ،إذ كان تجار القرن 4هـ/10م، يمرون عليها من أجل حمل الملح دون أن نجد إشارة إلى مملحة أخرى، إلى غاية حديث البكري (منتصف القرن5هـ/11م) عن مملحة تاتنتال، والتي يبدو أن استغلالهـــا كان سابقـــا لهذه الفترة، ولكنه لم ينشط إلا بعد انشقاق جدالة عن المرابطين، وقد تمكنت مملحة تاتنتال في مرحلة لاحقة أن تصبح أهم الممالح، وذلك بحكم موقعها وكثرة إنتاجها، فقد كانت في منتصف القرن 8هـ/14م"يتعامل فيها بالقناطر المقنطرة من التبر"![3]،و بقي دور مملحة أوليل مع من يجاورها من مدن التكرور.

ويعتبر الملح مادة مفقودة ببلاد السودان الغربي، فإذا كان سكان المنطقة المحاذية للأطلسي يستطيعون الحصول عليه من خلال غلي ماء البحر، أو بالتبخر الطبيعي، فإن المناطق الداخلية كانت لا تمتلك مصدرا خاصا بها [4] مع حاجتهم الملحة إليه، ذلك أنه قوام طعامهم، خـــــاصة أنهم يدخرون ما يصطادونه من السمك الذي كـــــان طعام أكثر السودان المحاذين للنهـــر بعد تمليحه كي لا يفسد [5]، وتزداد أهميته عند المعتمدين على النشـــاط الزراعي في تغذيتهم، إذ لا يمكنهـــــم الاستغناء عن الملح في طهي الحبوب وغيرها من المنتجات، فالملـــــح يعتبر رحيق الحيـــاة خاصة في المناطق الحارة، إذ يؤدي التعرض الدائم للشمس الحارقة إلى خروج الخزين الملحي الذي يتحصن به جسم الإنسان، وإذا لم يقم بتعويضه تعرض للعلل والأمراض، التي تؤدي إلى موت حتمي[6].

---

[1]- Marian Malowist," Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan occidental au Moyen Age",Annales Èconomies, Sociètès, Civilisations,6 (1970) ,p:1633.

[2]- مجهول ، حدود العالم ، مصدر سابق ، ص: 148. بوفيل، المرجع السابق ، ص: 131. وقد ورد عند الونشريسي إشارة إلى أن تجار الملح كانوا يقطعونه ألواحا كألواح الرخام ، يحمل الجمل الواحد لوحين، وهذه القطع مختلفة الأنواع مختلفة في الكبر، وتختلف أثمانها باختلاف أنواعها وحجمها، والغالي منها ما كان سالما من الكسر، والكسر الكثير يعيبها.أنظر: الونشريسي، المصدر السابق، ج5،ص: 136-137.

[3]- ابن بطوطة ، المرجع السابق ، ص:684. وصيغة المبالغة هذه دالة على ضخامة الصفقات التجارية التي كانت تعقد في هذه السبخة التي كانت تتبع مجالات قبيلة مسوفة. أنظر موقع السبخة في الصورة رقم:10ص:137 من هذه الدراسة.

[4]- هوبكنز ، المرجع السابق ، ص:92.

[5]- الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1،ص:20.

[6]- جوان جوزيف، المرجع السابق ، ص:52.

كما استخدم السودانيون الملح لعلاج الكثير من الأمراض التي كانت متفشية بينهم، لارتباط غالبيتها بنقصه لديهم، بالإضافة إلى علاج الأمراض التي تصيب حيواناتهم ذات الأعداد الكثيرة، وهذه الحاجات الضرورية الملحّة هي التي دفعت ابن حوقل ليكتب عن ملوك غانة قائلا:"وحاجتهم إلى ملوك أودغشت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به" [1]، كما أشار المهلبي إلى أن الملح يمثل أكثر أموال بيوت ملك كوكو على سعتها[2].

وقد كان السودان إلى جانب استعمالاتهم المعاشية والطبية للملح يستعملونه كعملة يتبايعون به، ويقيّمون به مختلف السلع[3]، فقد أشار ابن بطوطة إلى أنهم يتصارفون به كما يتصارف بالذهب والفضة، حيث يقطعونه قطعا ويتبايعون به[4]، وفي الغابات الاستوائية كان يقطع لوح الملح إلى 12 قطعة متساوية لتستخدم في تلك المناطق عملة يتم على أساسها التبادل، وكانوا يسمون هذه العملة المحلية " الكوكوتلا"[5].

ونظرا لأهمية الملح البالغة في بلاد السودان فقد كان يبدل بالذهب [6]، وذكرت بعض المصادر أن سكان السودان الغربي إذا لاحظوا كثرة تجار الملح بادلوه وزنة بوزنتين!!، وإذا لا حظوا قلتهم رفعوا من الثمن وقبلوا بمقايضته وزنة بوزنة!! [7]، وقد اعتبر كولين ماكيفيدي (K.Makividi)هذه المقايضة متوازنة، وذلك بسبب الأخطار الجسيمة التي يتكبدها تجار الملح في قوافل الصحراء[8]، أما ابن حوقل فقد أشار إلى أن ثمن حمل الملح "في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار" [9]، وقدر جون دوفيس (J. Devisse)حمل الجمل بما بين 125 و150 كيلوغرام، وإذا كانت قيمة الدينار في المتوسط 3,80 غرام، فنحن بالتالي أمام ثمن غال جدا يساوي في حده الأدنى 750غرام من الذهب، وفي حده الأعلى 1140 غرام[10].

1- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:98.

2- المهلبي ، المصدر السابق ، ص:55. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،ج4، ص:495.

3- المقدسي ، المصدر السابق، ص:241. البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:360.

4- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:360،363. ابن بطوطة ، المرجع السابق ، ص:684.

5- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:339-340.

6- البكري ، المصدر السابق ، ج 2، ص:361-362. الحميري ، المصدر السابق ، ص: 438. الزهري ،المصدر السابق ، ص: 122. العمري ، المصدر السابق ،ج4، ص:128. القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، دار الكتب المصرية ، ج5، ص:291.

7- أبوحامد الأندلسي الغرناطي ، تحفة الألباب و نخبة الإعجاب ، نشر Ferrand ، المجلة الآسيوية 1925، نقلا عن : دهينة عطاء الله ، المرجع السابق ، ص:99-100.

8- كولين ماكيفيدي، المرجع السابق ، ص:75.

9- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:98. و أشار القزويني إلى أن ثمن الوقر 100دينار ، القزويني ،المصدر السابق ، ص:25-26.

10- محمد زنيبر ،"تجارة القوافل في المغرب"، تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد، معهد البحوث و الدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1984، ص:179.

وكل ما سبق يبرز الدور المحوري التي كانت تقوم به سباخ الملح الواقعة في مجال صنهاجة الصحراء في تعزيز العلاقات بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، لأنها كانت تسمح بالتواصل بين المنطقتين، وتوفر بذلك لسكان السودان الغربي أحد أهم مستلزمات حياتهم، و لم يحتكر تجار صنهاجة الصحراء هذه التجارة لأنفسهم فقط، بل جعلوها في متناول تجار بلاد المغرب الذين كان الملح بالنسبة لهم أهم سلعة يمكنها تحقيق أكبر قدر من الربح.

ب-النحـــــــاس:

كان النحاس من أهم السلع التي يحملها تجار الشمال لبلاد السودان، ويأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد الملح[1]، وقد أشارت المصادر إلى الاتجار فيه منذ النصف الثاني من القرن 2هـ/8م[2]، فقد كان يسبك، وأحيانا وأحيانا يصنع على شكل سلاسل وحلي كالأساور والخواتم، لأنه كان حلية نساء السودان اللائي كن يلبسنه في الأيدي والآذان والأنوف، كما يتزين بحلقه في شعورهن [3]، بل كانت بعض السودانيات يفضلن حليته على الذهب[4]، كما أنهم استعملوه كعملة كذلك، حيث كانت أودغشت تصدره لهم على شكل مسامير يتبايعون بها[5]واستعمل بعض التكرور حلق النحاس كعملة للتبايع[6]، وبعدما صاروا يستخرجونه من تكدا كانوا يجعلونه على على شكل قضبان يشترون برقاقها اللحم والحطب، وبغليظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح [7]، إضافة إلى استعماله لصنع الأواني المنزلية، ولوازم الخيول كاللجام وحلقة القدم من السرج، وصنعوا منه أيضا الأقفال وحلق الأبواب[8].

ومع أن تادمكة قد أصبحت منذ حوالي نهاية القرن 6هـ/12م موطنـــا هاما للنحـــاس تقوم بتصديره إلى عـــدة مناطق، فيبدو أنها لم تغطّ حاجة بلاد السودان منه [9]، أو أنها بقيت أقرب في تعاملها إلى ممالك السودان الأوسط، وإذا كان يخشى من كون المصادر العربية كثيرا ماتنقل عن بعضها البعض مما يصعب من مهام المؤرخ في تحديد الإطار الزمني الدقيق لأنواع المبادلات، فإننا نستطيع أن نؤكد باطمئنان أن النحـــاس قد بقي من صادرات

1- الناني ولد الحسين، المرجع السابق،ص:444.

2- المالكي ، المصدر السابق ،ج1، ص:182.

3- المسعودي، أخبار الزمان، مصدرسابق،ص: 88. البكري ، المصدر السابق ،ج 2، ص: 345،349،367. الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص:20،232. مجهول ، كتاب الاستبصار ، المصدر السابق ، ص:212. ياقوت الحموي ، المصدرالسابق ،ج2، ص:12. القزويني ، المصدر السابق، ص:19. الحميري ، المصدر السابق ، ص:435.

4- الدمشقي ، المصدر السابق ، ص:268.

5- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:444.

6- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:360.

7- ابن بطوطة، المصدر السابق ، ص:705.

8- عبد القادر زبادية، المرجع السابق ، ص:33.

9- بانيكار ، المرجع السابق ، ص:414.

شمال إفريقيا إلى بلاد السودان إلى غـــاية القرن 6هـ/12م ، كمـــا تدل على ذلك القـــافلة التي عثر عليهـــا بالصحراء الموريتانية، وكانت القضبان النحـــاسية هي أهم حمولتهـــا، وقد قدر الأثريون تاريخ هلاكهـــا بالقرن 6هـ/ 12م[1].

وكما كانت أودغشت حـــاضرة صنهاجة الصحراء تصدر بعض ما تستورده من النحاس المصنع من بلاد المغرب[2] إلى السودان الغربي، فقد كانت تؤدي دورا كبيرا في تعدين النحاس وتصديره أيضا، أو بيعه للتجار العابرين لها للإتجار به، خاصة وصنهاجة الصحراء كانت تملك في مجاله ـــا منجمين مهمين له هما: تيحمـــامين وتنودادن، واستمر هذا الدور إلى غاية منتصف القرن 5هـ/11م، إذ بعدما أعاد المرابطون السيطرة عليها سنة 446هـ/1054م، كان من أهم ما عاقبوا أهلها به بسسب قبولهم البقاء تحت سلطة غانة الوثنية، نقل محطة تعدين النحاس الأساسية إلى مراكش[3]، التي صارت ملتقى التجار وكان موقعها دافعا لتراجع الطريق عبر أودغشت أودغشت إلى أزكي الحاضرة الجديدة للملثمين في الصحراء.

ج-المنسوجـــــات:

كانت المنسوجات من السلع الهامة التي يحملها تجار المغرب الإسلامي إلى بلاد السودان، وإذا كانت ظاهرة العري المنتشرة في الكثير من المناطق الداخلية بالسودان الغربي تجعل هذه السلعة ليست ذات أهمية فيها، فإن انتشار الإسلام قد أسهم بالتدريج في التخفيض من هذه الظاهرة، فالمسلمون كانوا يعتبرون ذلك أمرا مخالفا لتعاليم دينهم الآمرة بالستر والحشمة، وغيرهم من سكان المدن كانوا يرون في التجار المسلمين نموذج الرفعة، وذلك ما شجعهم على اقتناء اللباس الذي يجلبونه والتشبه بهم في هذا المجال، ويدل على ذلك استمرار ظاهرة التعري في المناطق البعيدة عن الحواضر التي كان يترلها المسلمون، وما بقي من التعري في المدن كان مرتبطا ببعض الأعراف الاجتماعية، وطقوس الدخول على الملوك، ومن ثم فلم تكن ظـــاهرة عامة في المجتمعـــات السودانية المسلمة.

لقد استقبل السودان الغربي مختلف أنواع المنسوجات والثياب من الحرير والخز والكتان والصوف والقطن، والثياب المصبوغة بالزرقة والحمرة، والعمائم والأزر وأصناف الأكسية[4]، وجميع المنسوجات المختلفة ذات الجودة

---

[1]- ديفيدو فيلبسون، المرجع السابق ، ص:348.

[2]- البكري، المصدر السابق، ج2،ص:345.

[3]- فريدة بنعزوز ،"قراءة في أبحاث تاديوش لفيتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب و بلاد الأندلس"،أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، (مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة)،طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية،1999، ص:459.

[4]- البكري ، المصدر السابق، ج2،ص:364،345. الزهري ، المصدر السابق ، ص: 127،123. الإدريسي ، المصدرالسابق، ج1، ص:23،18. ابن سعيد المغربي، المصدر السابق ، ص:91.

الجودة الرفيعة التي عرفها العالم الإسلامي يومئذ [1]، ولأهمية الثياب الراقية عند ملوك السودان كان رد أحد الخلفاء الموحدين على هدية ملك غانة إلى جانب الخيل البلق والجواري الروم، نوعا من الثياب الراقية يعرف بالأشكري[2].

ومع أن السودانيين قد عرفوا الصناعة النسيجية وازدادت أهميتها عندهم كلما احتل الإسلام مجـــالات أوسع، فإن إنتاجهم كان لا يفي بالحاجة المحلية إلا جزئيا، كما أن الصناعة النسيجية قد اقتصرت على بعض الحواضر فقط مثل: جنى وولاتة وتمبكت وكوكو [3]، ولا شك أن التطور الذي عرفته الصناعات النسيجية ببعض الحواضر المغربية يجعل إنتاج السودانيين عاجزا عن منافستها، ومع ذلك طورت مدينة كوكو إنتاجها من الثياب القطنية إلى الحد الذي صارت تصدره إلى صنهاجة الصحراء[4]، مع استمرار تدفق الأقمشة بأنواعها الأخرى من بلاد المغرب.

وقد أدى التقدم الحاصل في الصناعة النسيجية ببلاد المغرب الأقصى في العهد المرابطي وخاصة في مدينة فاس، إلى رواج هذه التجارة[5]، حيث كان العاجزون عن السفر إلى بلاد السودان يختارون الثياب كسلعة يرسلونها مع التجار من أجل الحصول على التبر، ولا ريب أن ذلك حسب الاتفاق بين مالك السلعة والمتاجر بهـــا[6].

ومما يدل على مساهمة صنهاجة الصحراء في هذه التجارة، ما ورد عند البكري من أن تجار بلاد المغرب كانوا يحملون إلى أودغشت الثياب المصبوغة بالحمرة والزرقة[7]، وهو ما يسمح للملثمين بالتجارة فيما زاد عن حاجتهم، حاجتهم، كما أن بعض التجار كانوا يكتفون بالوصول إلى حواضر صنهـــاجة الصحراء ويبيعون سلعهم فيها، ليتركوا للملثمين السفر بها إلى السودان الغربي.

د- المصنوعات الزجاجية :

أشارت المصادر العربية كثيرا إلى حمل التجار نظم وخرز الزجاج إلى بلاد السودان[8]، و النظم هو الحلي من الزجاج[9]، إذ كانت أغلب حلية السودان من الزجاج والنحاس [10]، أما الخرز فهي عبارة عن حبات صغيرة من

---

[1]- بشار قويدر ،" القوافل التجارية المغاربية (طبيعة التجارة و آثارها)"، طريق القوافل ،الجزائر ، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ، 2001،ص:14.

[2]- ابن نظيف الحموي ،المصدر السابق ، ص:103.

[3]- عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص:35.

[4]- الدمشقي ، المصدر السابق ، ص:239.

[5]- جمال أحمد طه ،المرجع السابق ، ص:238

[6]- التادلي ، المصدر السابق ، ص:282.

[7]- البكري، المصدر السابق،ج2،ص: 345.

[8]- مجهول ، حدود العالم ، مصدر سابق ، ص: 148. الزهري ،المصدر السابق ، ص: 127. الإدريسي،المصدر السابق ،ج1، ص:18،20،232. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،ج2، ص:12. القزويني ، المصدر السابق ، ص:19.

[9]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:689.

[10]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:20.

النحاس تستعمل كمسابح أو كعقود للزينة[1]، ومن المصنوعات الزجاجية أيضا فوانيس وكؤوس وغيرها من الأواني المترلية[2]، وقد عثر الأثريون في مدينة كومبي صالح على قطع من الزخارف الزجاجية من نفس الصنف الذي اكتشف في رقادة عاصمة الأغالبة،كما عثر بنفس المدينة على موازين صغيرة للذهب مصنوعة من الزجاج[3].

وقد أسهمت أودغشت حاضرة صنهاجة الصحراء في الاتجار بأنواع عديدة من المصنوعات الزجاجية، إذ عثر في أطلالها على مواد زجاجية ذات ألوان وأشكال مختلفة، ومن أهمها: القوارير والأواني والكؤوس والقداح، فضلا عن مختلف أشكال الحلي الزجاجي، ومما يدل على أن بعض هذه المواد كان يتاجر به في بلاد السودان، وجود مواد شبيهة بها في أطلال كومبي صالح[4]، بما يؤكد لنا أن صادرات بلاد المغرب إلى صحراء صنهاجة لم تكن موجهة فقط لتوفير حاجيات الملثمين المختلفة، بل إن الكثير منها كان يسافر به تجار صنهاجة الصحراء إلى السودان الغربي، مسهمين بذلك في التواصل الاقتصادي بين ضفتي الصحراء.

هـ -الودع:

وهو نوع من الأصداف، كان يعد أنفق سلعة يحملها تجار الشمال إلى مدينة كوغة السودانية حسب البكري، ذلك أنه كان يستعمل كعملة في التبادل[5]، ويبدو أنه فرض نفسه كعملة أولى في المبادلات الصغيرة بالتدريج، فيمكن أن يكون استعماله الأول كان للزينة فقط[6]، ثم انتبه السودانيون إلى صلاحيته ليكون من عملاتهم، ليصبح بعد ذلك من أهم السلع التي تدر أرباحا طائلة على التجار[7].

والنجاح الذي حالف الودع يسهل تفسيره، فحجمه وشكله كانا يجعلان تناوله يسيرا، وعده مريحا، وتزييفه مستحيلا، كما أن درجة متانته وتحمله كانتا تعينان على ادّخاره في أمان لسنوات كثيرة دون الخوف من تلفه[8].

[1]- الشيخ الأمين عوض الله ، "تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي و آثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي" ، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث و الدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، بغداد، 1406هـ/1984م، ص:86-87.

[2]- عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص:34.

[3]- إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص:290. وانظر أمثلة عن هذه المصنوعات في الصور رقم:5و8 ص:134و136من هذه الدراسة.

[4]-Jean Devisse , op.cit.p :445 ,447.

[5]- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:367. الزهري ،المصدر السابق ، ص:127.

[6]- المسعودي ، المصدر السابق ، ص:88.

[7]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:702. العمري ، المصدر السابق ،ج4، ص:122،211. القلقشندي ، المصدر السابق،ج5، ص:292.

[8]- هوبكنز، المرجع السابق ، ص:138.

وقد كان الودع من المواد التي تاجرت فيها قبائل صنهاجة الصحراء مع السودانيين، بعد أن تشتريه من تجار بلاد المغرب الذين كانوا يتجهزون به إلى أودغشت منذ القرن 3هـ/9م، وهو ما يدل عليه العثور على بقايا حمولة منه كانت قادمة من الشمال في الطريق المتجه إلى أودغشت، لكنها هلكت في أعماق الصحراء[1].

والودع في أصله مجلوب من جزر المالديف إلى منطقة ملبار بالهند، حيث كان يستعمل كعملة هناك، ومنها حمله التجار إلى مصر، ومنها يجلب إلى السودان الغربي عبر صحراء الملثمين[2]، فهو بذلك أحد البراهين على انخراط انخراط التجارة العابرة للصحراء في فلك التجارة العالمية.

و-الحجارة الكريـــــمة :

أشارت المصادر العربية إلى مكانين في الصحراء تتوفر فيهما أنواع من الحجارة الكريمة: **أحدهما** على ساحل الأطلسي، توجد فيه أحجار كثيرة ذات ألوان شتى، وصفات مختلفة يتنافس في أثمانها أهل الصحراء ويتوارثونها بينهم[3]، و**الآخر** في الطريق بين غدامس وتادمكة، حيث يوجد معدن حجارة تسمى: "تاسي النمست"، وهي حجارة تشبه العقيق، وربما كان في الحجر الواحد منها ألوان من الحمرة والصفرة والبياض، وكانوا يعثرون أحيانا على نوع كبير منها لكنه نادر[4].

وقد رأى جون دوفيس (J.Devisse) أن الحجارة الكريمة قد انخرطت في التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي عبر أودغشت منذ مطلع القرن 4هـ/10م، مستندا إلى التنقيبات الأثرية التي كشفت عن نوع من هذه الحجارة في أحد المواقع الأثرية بمنطقة تكانت قرب تجكجة الموريتانية [5]، كما عثر الأثريون في أودغشت على عينات عديدة من حجارة تاسي النمست، مما يجعلنا نفكر أن تلك المدينة كانت تستجلبها لتعيد تصديرهـــا إلى بلاد السودان وغانة منها بصفة خاصة، هذا فضلا عن أنواع أخرى من الحجارة الكريمة، كانت تصل إلى أودغشت من المغرب الأقصى، حيث كان يوجد لها معدن على الطريق الذي كان يربط سجلماسة بأغمات، وقد عثر على بقايا لأشكال عديدة من هذا النوع من الحجارة الكريمة في خرائب أودغشت ، من الراجح أنها وصلت إليها من السوس الأقصى [6]، وقد كانت هذه الحجارة من أهم السلع التي يتنافس عليها السودانيون، فقد ذكر

---

[1]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق،ص: 298-299. وهو يذكر أنه تم تعيين ما يقارب 3260من تلك الأصداف في هذه القافلة، نسبة 90% منها من عينات الودع المستخدم كعملة.

[2]- بانيكار ، المرجع السابق ، ص:51-52،407-408.

[3]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:105.

[4]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:371.

[5] - Jean Devisse , op.cit.p :449.

[6]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:443-444.

البكري أنها إذا وصلت إليهم غالوا في ثمنهـــا وبذلوا فيه أفضل مـــا يمتلكونه، لأنهم يعتبرونهـــا أفضل مـــا يكسبه الواحد منهم[1].

ز- المصنوعـــات الحديدية و الجلدية:

صدرت بلاد المغرب للسودان الغربي عبر مجـــالات صنهاجة الصحراء "آلات الحديد المصنوع" [2]، وأغلبها كان مما يستعمل لتجهيز الخيل كالأزمة والحدب، وقسم منها مما يستعمل للحصاد والحرث كالمناجل والسكك، وقسم آخر كان حلق الأبواب، بالإضافة إلى السيوف، كما صدرت أنواعا من الجلود المصبوغة التي تصنع منها السروج وتغلف بها أغماد السيوف [3]، ويبدو أن صنهاجة الصحراء كانت تحصل على حاجياتها من هذه المصنوعات بواسطة صلاتها التجارية مع بلاد المغرب، لأن النشاط الحرفي بها لم يكن يوفر لها كل احتياجاتها،ثم تقوم بتصدير فائضها إلى السودان الغربي.

ح- الأواني الفخـــــارية :

لم تشر المصادر العربية إلى تجارة الفخار بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي، ولكن التنقيبات الأثرية أثبتت أن الطريق الغربي العابر لمجال صنهاجة الصحراء قد عرف هذا النوع من التجارة، فقد كشف التنقيب الأثري في أودغشت بأن الأواني الفخارية كانت من السلع المحمولة إليها من بلاد المغرب [4]، بل ووصلت عبر تجار صنهاجة الصحراء وغيرهم إلى مدن السودان الغربي، حيث عثر المنقبون على الأواني الفخارية السجلماسية في عدة مواقع في غرب إفريقيا تعود إلى نهاية القرن 5هـ/11م، أي إلى أوج ازدهار سجلماسة تحت الحكم المرابطي، ورغم الصعوبات التي تكتنف نقل الفخار بسبب سهولة انكساره، فإن الأرباح الكبيرة التي كانت تحققها هذه البضاعة هي التي دفعت تجار صنهاجة الصحراء و بلاد المغرب إلى المغامرة بذلك[5]،

ط- الخيـــول :

لم يرد في المصادر ما يدل صراحة على إسهام صنهاجة الصحراء في تجارة الخيول مع بلاد السودان في الفترة المدروسة، لكننا نستطيع أن نعتمد في ذلك على بعض المعلومات المتأخرة [6]، ذلك أن الحاجة إلى الخيل في بلاد

---

[1]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:371-372.

[2]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:232. الحميري ، المصدر السابق ، ص:46.

[3]- عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص:34،37. الهادي المبروك الدالي ،المرجع السابق ، ص:331-332.

[4]- النايي ولد الحسين ، المرجع السابق، ص:291-292. وانظر أمثلة لهذه الفخاريات في الصورتين رقم:6و7ص:135من هذه الدراسة.

[5]- لحسن تاوشيخت ،"سجلماسة كمحطة للتواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء "، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، (مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة)، طرابلس ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية 1999، ص:236-237.

[6]- الوزان ، المصدر السابق ،ج1، ص:62، ج2، ص:130. القلقشندي ، المصدر السابق ،ج5، ص:287.

السودان كانت حاضرة دائما، لأن نوع الخيل التي يملكونها كانت قصارا جدا، كما وردت الإشـــارة إلى إهداء أحد الخلفاء الموحدين للخيل البلق إلى ملك غانة [1]، ويبدو أن ذلك تم من خلال مجالات صنهاجة الصحراء، كما أن بعض الخيول التي كان يستخدمها التجار كمطايا في رحلتهم إلى بلاد السودان كانوا يبيعونها عند وصولهم، لما يجنونه من الأرباح الكبيرة في ذلك، فقد كانت الخيول من السلع التي يتنافس ملوك السودان في الحصول عليها، من أجل قوة جيوشهم وأبهة مجالسهم [2]، وقد ذكر محمود كعت ما يدل على ذلك عندما تحدث عن أحد ملوك غانة أن له:" ألف خيل مربوطين في داره عادة معروفة، إن مات واحد منهم في صبح جاء بآخر مكانه عوضه قبل المساء، وفي الليل كذلك، ولا ينام واحد منهم إلا على زربية، ولا يربط إلا بحرير في عنقه وفي رجله"[3].

كما كان يعبر صحراء صنهاجة باتجاه بلاد السودان سلع أخرى مثل :التمر، والزئبق والزعفران، والقطران، والعطور والأفاويه، وعقد خشب الصنوبر [4]، والفربيون[5]، كما يمكننا التخمين بوجود تجارة للحبوب، لما قدمناه من ضعف الإنتاج الزراعي السوداني، ولكن المصادر لم تقدم لنا ما يدعم ذلك عبر المجال المدروس[6].

بعد بيان أهم السلع المصدرة من بلاد المغرب إلى السودان الغربي عبر صحراء صنهاجة، يمكننا القول أنها تعتبر سلعا بالغة الأهمية بالنسبة للسودانيين، وليست فقط سلع ترف كما زعم بانيكار (Panikar) وغيره من الباحثين الغربيين في تاريخ المنطقة، لأنه من غير الموضوعي تقييم السلع من حيث الأهمية إلا لمن يطلبونها، فحاجة السودانيين للملح لم يكن رغبة في توفير الكماليات، بل كان ضمانا للحياة الاقتصادية، دون أن نغفل السلع ذات الاستعمال العسكري كالخيول، وذات الاستعمال المتعدد كالنحاس، والذي يعتبر استعماله في التاريخ القديم من معايير التحضر، وفي المقابل، ماهو دور صنهاجة الصحراء وحواضرها في انتقال سلع السودان إلى بلاد المغرب؟

---

[1]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:366. ابن نظيف الحموي، المصدر السابق ، ص:103.

[2]- النابي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:444-445.

[3]- محمود كعت ،المصدر السابق، ص:41.

[4]- الإدريسي ، المصدر السابق،ج1، ص:20،232، الزهري ، المصدر السابق ، ص:123،127، ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،ج2، ص:12.

[5]- ويسمى أيضا الغربيون واللبانة المغربية ، وأجوده ما انحل في الماء سريعا ، وتعد جبال درن الموطن الأكبر لشجره، وكان يستعمل لعلاج الكثير من الأمراض ولسع الهوام وعض الكلاب، اعتبره البكري من أنفق السلع التي يتجهز بها إلى مدينة كوغة من بلاد السودان، أنظر حوله: النويري ، المصدر السابق ،ج11، ص: 199-200. الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس ، تح: دار الهداية، دم، دار الهداية ، د ت، ج 35، ص: 500 . الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، بيروت ،مؤسسة الرسالة ، د ت ، ص1576. البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:367.

[6]- أفاد البكري بأن مدينة أودغشت يجلب لها القمح والزبيب من بلاد الإسلام، ويبدو أنه بالأساس للاستهلاك المحلي، خاصة وقد أشرنا سابقا إلى أن النشاط الزراعي كان متواضعا جدا في حواضر صنهاجة الصحراء، لكن هذا لا ينفي احتمال تصدير كميات من هذه الحبوب إلى السودان الغربي، خاصة إذا كانت توفر أرباحا كبيرة.أنظر: البكري، المصدر السابق،ج 2،ص: 344. ويمكننا التخمين أن العابرين للمسالك الغربية كانوا يفضلون حمل الملح على غيره، أما المسالك الوسطى والشرقية المفتقدة إلى السباخ فقد حمل تجارها الحبوب إلى بلاد السودان، وقد ذكر الإدريسي أن الحنطة كانت من صادرات وارجلان إلى زغاوة ، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج1،ص:111.

4- سلع السودان الغربي إلى بلاد المغرب عبر مجالات صنهاجة الصحراء.

كانت سلع السودان الغربي المميزة هي ما أغرى تجار المغرب الإسلامي بعبور المفاوز الشاسعة، والتعرض للأخطار الكبيرة، والقبول بالمغامرة عبر مجالات صنهاجة الصحراء، ذلك أن هذه التجارة كانت تحقق لأصحابها أرباحا كبيرة تصل إلى أرقام لا يمكن تحقيقها في أماكن أخرى، حتى صارت تجارة السودان عنوانا لثراء الكثير من المدن الفاعلة فيها مثل تيهرت وسجلماسة وأغمات ونول لمطة وأودغشت وغيرهـــا، ومع أن هذه التجـــارة كانت منتظمة منذ القرن 2هـ/8م ، فإن جون دوفيس (J.Devisse) يرى أن الأرباح التي حققهـــا التجـــار في القرنين 4و5هـ/10و11م، أكبر بكثير من تلك المحققة في القرنين 2و3هـ/8و9م[1].

و لم تكن السلع المجلوبة من السودان الغربي على درجة واحدة من الأهميـــــة، ولذلك كان أغلب التجار يرغبون في مبادلة سلعهم بالذهب أو العبيد، إذ أن أكبر الثروة كانت في هذين السلعتين، وقد كانت لقبائل صنهاجة الصحراء وحواضرها دور فعال في هذه التجارة، الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى اعتبار أودغشت وغيرها بمثابة محطات تجميع الذهب والعبيد، وملتقى تجار التصدير والاستيراد بين ضفتي الصحراء.

أ- الذهـــــــب.

كثيرا ما قرنت المصادر العربية بين الذهب والتجارة مع السودان الغربي، وذلك لكونه يمثل سلعة مغرية للتجار، ورأى بعضهم أنهم يحصلون عليه مقابل سلع لا تماثله من حيث القيمة، ومما عزز أهميته استمرار الطلب عليه من المشرق والدول الأوروبية والأندلس الإسلامية [2]، وإذا كان يبدو لأول وهلة أن التجار كانوا يكتفون بمبادلة سلعهم بالذهب في الحواضر الكبرى التي يصلونهـــا، فإن البعض منهم كان يغـــامر بالبحث عنه في دواخل بلاد السودان[3].

وقد كان ملك غانة إذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها لنفسه، وإنما يترك للناس التبر الرقيق، خوفا من أن يكثر الذهب في أيدي الناس فيهون [4]، و قد ذكر البكري أنه كان يحتفظ في قصره بلبنة من الذهب كالحجر الضخم يربط إليها فرسه، ويفخر بها على سائر الملوك، وقد توارثها من جاء بعده[5].

---

[1] - Jean Devisse , op.cit.p :443.

[2]- عبد الواحد المراكشي،المصدر السابق، ص:293. حيث نص على أن ذهب الأندلس" مجلوب إليها من بلاد السودان"، وهو النص الوحيد الذي ذكرت فيه بلاد السودان في هذا الكتاب، ما يدل على تراجع الاهتمام بهذه المنطقة لدى مؤرخي العهد الموحدي.

[3]- مجهول ، حدود العالم ، مصدر سابق ، ص:148.

[4]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:364.

[5]- المصدر نفسه، ج2ص:364. الإدريسي،الصدر السابق، ج1،ص:23. ابن سعيد المغربي، المصدر السابق،ص:92.

كما كان هذا الملك يفرض ضرائب على ما يخرج من بلاده من التبر، وهذا ما يؤكد أن تجارة الذهب خصوصا والتجارة عموما كانت مراقبة من طرف ملوك السودان، و لم تكن تترك لعموم الناس يشتغلون فيها بما بدا لهم، فلا يخرج من الذهب سوى فتاته، وهذا الأخير تفرض عليه ضريبة كي يستفيد الملك من هذا النشاط المربح[1].

وتشير المصادر إلى بعض الأرقام المتعلقة بتجارة الذهب عبر المحور الغربي تتمثل في[2] :

التـــــــــــاريخ	المبلـــــــــــغ	الــــــــــوزن	الموضــــــــــوع	المصــــــــــدر
340هـ	42000دينار	178.50كلغ	صك بين رجل من أودغشت و آخر من سجلماسة[3]	إبن حوقل ،صورة الأرض، ص:65
أواســط ق 6هـ	8000دينار	34كلغ	التاجر من أغمات له 8000دينار،4000يصرفها و4000يمول بها تجارته	الإدريسي ،نزهة المشتاق، ج1،ص:83.

ويتبين لنا في المثال الأخير المتعلق بالعهد الموحدي، أن الطريق الغربي رغم بداية تراجعه لم يزل يشهد نشاطا هاما، وأن كمية الذهب في قافلة واحدة تجاوزت الطن!، و إذا اعتبرنا حمولة الجمل تتراوح بين 100-120 كلغ، فإن هذه الكمية احتاجت 10جمال لحملها[4].

وقد قدر ريمون موني(R. Mauny) كمية الذهب التي تنقـــل سنويا من بلاد السودان إلى الشمال بحوالي 9 طن، بينما رفض جون دوفيس (J.Devisse) هذا الرقم، مستندا إلى بعض الإشارات المصدرية عن عدد الدنانير المضروبة في الأندلس الأموية ، ومصر الطولونية، لينتهي إلى أن غرب إفريقيـــا لم يكن يصدر إلى الشمـــال أكثر من 3أطنان[5]، بينما رجح محمد حسن أن تصل الكمية إلى 10 أطنان سنويا ، استنادا إلى أعداد المغاربة الذين يسافرون سنويا إلى بلاد السودان والذين قدرهم بحوالي:15000[6].

---

[1]- الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص:320.

[2]- محمد حسن ، المدينة و البادية بإفريقية في العهد الحفصي ، تونس ، منشورات جامعة تونس الأولى،1999،ج1،ص:507.(بتصرف)، وقد اعتمد في تقدير الوزن على دينار عبد الملك بن مروان الذي يزن: 4.25غرام.

[3]- يعتقد محمد أبو صوة أن القراءة الصحيحة لنص ابن حوقل، تدل على أن الصك هو لرجل من القيروان . أنظر : محمد أبو صوة ، تاريخ العرب الاجتماعي و الاقتصادي في العصر الوسيط قراءة مغايرة ، مالطا ، منشورات ELGA،2002، ص:75-76.

[4]- محمد حسن،المرجع السابق ،ج1، ص:508.

[5]- Jean Devisse , op.cit.p :418 note :137,419.

[6]- محمد حسن ، المرجع السابق، ص:508.

ويشير موني(R.Mauny) بأن قافلة نقل الذهب كانت متميزة بتشديد الحراسة عليها، وأن نقل هذه المادة الثمينة لم يكن سوى مرة واحد في السنة، في قافلة تتكون من 40-50 جملا لحمل الذهب [1]، والخشية من قطاع الطريق هي التي تدفع تجار الذهب إلى الانتظام في قافلة واحدة، وعدم المغامرة بالسفر في رفقة قليلة.

ومع أن الإشارات المصدرية لا توفر لنا بالتدقيق قيمة ما كان يدفعه التجار المغاربة مقابل الحصول على الذهب ــ سوى ما تعلق بمبادلته بالملح ــ، وحجم الأرباح التي كانوا يحصلون عليها بعد نقله إلى الشمال وتصديره إلى أوروبا والمشرق، إلا أن الثراء الذي عرفته المدن المعروفة بهذه التجارة، ويسار التجار المغامرين بالسفر إلى بلاد السودان، يحيل إلى أن التجارة فيه كانت تدر أرباحا طائلة[2].

وقد كانت أودغشت حاضرة صنهاجة الصحراء تساهم في تجارة الذهب بأن تقوم بصياغته بعد جلبه من بلاد السودان، وتجعله خيوطا مفتولة من الذهب الإبريز، وقد عُدَّ ذهبها أجود ذهب أهل الأرض وأفضله [3]، وكان بعض تجار الشمال يكتفون بالوصول إلى أودغشت ومبادلة سلعهم فيهـــا، حيث كان التبر هو عملة التبادل بها[4].

بها[4].

ويرى موني (R.Mauny) أن تجـــار الإيراد والتصدير المسلمون قد استقروا في أودغشت منذ القرن 2هـ/8م، ونمت مع وجودهم صناعـــات مرتبطة بالذهب، خاصة تصفيته من الشوائب، لأن التبر كان يصلها خامـــا،كما كان القائمون على تلك الصناعة يتثبتون من وزن الذهب ونوعيته قبل أن تتم قولبته فيها على شكل"خيوط مفتولة"، ويرى بعض الباحثين أن تلك الخيوط هي عبارة عن أساور حلزونية ذات وزن كبير، وأن ثمن الذهب الذي كان يمر بمراحل الفحص والتنقية والقولبة أعلى بكثير من الذهب الخام[5].

ويعتقد جون دوفيس (J. Devisse) أن مدينة أودغشت لم تكن المكان الوحيد في الصحراء الذي يتم فيه تجميع الذهب وتهيئته للتصدير إلى الشمال، وإنما كانت إلى جانبها أسواق مختلفة، إحداها كانت في شمال موريتانيا في بداية الفترة الوسيطة[6]، وكل ذلك يبرز الدور الكبير الذي كانت تقوم به صنهاجة الصحراء في تجارة الذهب.

ولعل مـــا يبرز الأهمية الكبيرة لتجـــارة الذهب عند دول بلاد المغرب، أنهـــا استعملته في سك عملتهـــا، فقد اشتهرت سجلمـــاسة المدرارية بجودة عملتهـــا [1]، وعرفت العملة الذهبية المغربية ازدهـــارا وشهرة في عهد

---

[1]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:453.

[2] - Marian Malowist,op.cit.p :1635.

[3]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:345. وانظر مثالا للخيوط والسبائك الذهبية في أودغشت في الصورتين رقم 3و4ص:133.

[4]– المصدر نفسه ،ج2، ص:344.

[5]– الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص: 453.

[6]– المرجع نفسه: ص:453.

المعز الفاطمي، وصارت تمثل دعـــامة أساسية من دعـــائم السياسة الفاطمية، كما أصدر أمويو الأندلس ابتداء من القرن 4هـ/10م عملتهم الذهبية، بعدما أصبح ذهب السودان يصل قرطبة عبر المسالك الغربية [2]، أمـــا العملة المرابطية فيكفي دلالة على قيمتهـــا، أن العملة الذهبية بقيت لعدة قرون تسمى "المرابطي" في مجموع غرب حوض المتوسط[3]، كما استفادت الدولة الموحدية كثيرا من هذه التجارة، وأصدرت في عهد الخليفة يعقوب المنصور (580-595هـ/1184-1198م) أكبر دينـــار سك في تاريخ المغرب أواخر القرن 6هـ/12م، إذكان يزن:4.72غ، وهو الذي حمل بعد ذلك اسم الضبلون أي المضعف[4].

ب- الرقيـــــق.

كان الرقيق من أهم السلع المجلوبة من السودان الغربي إلى بلاد المغرب ، بل اعتبره بانيكار (Panikar)أهم من تجارة الذهب التي رأى أن الأرقام المقترحة حولها فيها الكثير من المبالغة، ذلك أن حاجة المغرب الإسلامي إلى الرقيق متنوعة، فمنهم الجنود في الجيوش، والخصيان لحراسة الحريم، ورقيق زراعة الأرض (الأقنان)، والإماء للتسري أو الخدمة، ولأجل ذلك كان التجار يتحملون أعباء نقلهم طمعا في أرباحهم [5]، وقدكان التجار المغاربة يتعاملون مع تجـــار بلاد السودان الغربي بالمق ـــايضة، وكانت السلع التي يقدمونها مقابل العبيد سلعا زهيدة القيمة[6]، فقد أفاد الإدريسي أنهم يشترونهم بالبخس من الثمن [7]، بل إن البعض ذكر أن العبد الأسود كان يباع بنعله ملحا، أي يجعل تحت قدم العبد من الملح مقدار نعله فيكون ذلك هو ثمنه[8].

ويمكن تعليل اهتمام بني أمية بإصلاح طريق تامدلت إلى أودغشت عبر حفر الآبار لأجل تيسير حركة القوافل، إنما كان الدافع إليه هو الحاجة إلى العبيد بعد أن عم الإسلام بلاد المغرب، وانقطع السبي منه [9]، ومن ثم فقد يكون هذا المشروع هو مشروع مؤسسة الخلافة ذاتها، بما يعزز أهمية الرقيق في المجتمعات الوسيطية.

ومما يبرز صعوبات نقل العبيد من بلاد السودان، ما ذكره الوسياني في رواية لأبي محمد عبد الله بن محمد السدراتي(من أهل القرن 5هـ/11م) أن خاله أبا محمد سافر إلى القبلة، فجعل تجارته صامتا(أي ذهبا)، واشترى

---

[1]- محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، مرجع سابق، ص:283.

[2]- الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص:177.

[3]- عبد الله العروي، المرجع السابق، ص:293.

[4]- محمد زنيبر، المرجع السابق،ص:184.

[5]- بانيكار ، المرجـــــع السابق ، ص:396.

[6]- لطيفة بشاري ، المرجع السابق ، ص:262.

[7]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:109-110.

[8]- أحمد الأمين الشنقيطي ، المرجع السابق ، ص:493.

[9]- لطيفة بشاري ، المرجع السابق ، ص:214.

جملا لركوبه ومعه رجل حضري ، "جعل تجارته رقيقا، فقفلوا إلى أهليهم ، فكان أبو محمد لا تعب عليه، ولا نصب، إذا ارتحل الناس ركب جمله، وإذا نزل الناس ضرب خيمته ويستريح، وكان الحضري يتعب وينصب في الخدم والرقيق، هزلت هذه، ومرضت هذه، وهربت هذه، وضرب العرق المدمر هذه، فإذا نزلوا اشتغلوا في حوائجهم والحضري متعب مغتم، (...) وأبو محمد جالس في الظل، و ماله صرّة في سره لا تعب معه"[1].

ولا شك بأن قافلة نقل العبيد كانت تحتاج إلى إمكانيات ضخمة، خاصة ما تعلق بالطعام والمياه، إذ أنها كانت تقطع مسافة الطريق في وقت أطول، وتحتاج إلى عدد كبير من الحراس خشية فرار العبيد، وهو ما يبين صعوبة هذا النوع من التجارة، و يشير إلى ما ينبغي توفره لصاحبها من الإمكانيات لأجل القيام بها.

وحاولت بعض الدراسات تقدير أعداد العبيد الذين كان التجار المسلمون ينقلونهم من بلاد السودان، وقد أشار الإدريسي إلى كثرتهم بقوله : "يخرجونهم إلى أرض المغرب الأقصى، ويباع منهم في كل سنة أمم وأعداد لا تحصى"[2]، وقدر موني(R. Mauny) هذا العدد بحوالي 20000سنويا، وهو رقم اعتبره هوبكنز(Hopkins) هوبكنز(Hopkins) مبالغا فيه، وباعثا على الدهشة [3]، وشكك "فيج جي دي" (J.d.Fage)في إمكانية نقل أكثر من 10000 منهم في السنة[4]، بينما دافع الباحثون المسلمون عن ضآلة أهمية هذه التجارة، معتبرين الأرقام السابقة مجرد اجتهادات لا تستند إلى أسس صحيحة [5]، مبررين الدافع وراء تضخيم موني(R.Mauny) وغيره لأعداد العبيد المنقولة إلى الشمال، بمحـــاولة تسوية ما فعله المسلمون بما ارتكبه الأوروبيون مطلع العصر الحديث بغرب إفريقيا، من عمليات استعباد واسعة منذ وصول البرتغاليين إليها، و لذلك رأى عبد العزيز العلوي والناني ولد الحسين وأحمد الشكري أن أعداد العبيد لم تكن تتجاوز بضع مئات خلال السنة، معتبرين طبيعة الصعوبات التي تكتنف هذه التجارة لا تشجع على اشتغال العديد فيها، إضافة إلى ارتفاع تكلفة نقلهم، بما يجعل من أثمانهم غير قادرة على منافسة عبيد أوروبا مثلا[6].

---

[1]- الوسياني ،سير الوسياني ، تح : عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة ، مسقط، وزارة التراث والثقافة ،2009،ج1، ص:446-447.

[2]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:109-110.

[3]- هوبكنز ، المرجع السابق ، ص:164.

[4]- فيج جي دي، المرجع السابق ، ص:170.

[5]- عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس،بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 2004،ص:190.

[6]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:457-459. أحمد الشكري ، الإسلام و المجتمع الإسلامي ، مرجع سابق ، ص:63-64.

ويبدو أن النقاش التاريخي في هذه المسألة ملغم بالأبعاد الحضارية والدينية، ولذلك يصعب الاطمئنان إلى هذه التقديرات في غياب إشارات واضحة في المصادر، وعدم كفاية الموجود منها لتبني رقم بعينه، و إن كان ما أشار إليه هوبكنز (Hopkins)من عدم وجود خلف كبير لهؤلاء في المناطق المسلمة أمر بالغ الأهمية[1].

وما يمكن تقريره باطمئنان هو أن تجارة الرقيق قد ازدهرت في القرنين 5و6هـ/11و12م ويدل على ذلك:

أ- كثرتهم المتدرجة في الجيش المرابطي ثم الموحدي، فقد اشترى يوسف بن تاشفين سنة 464هـ/1071م ألفين من العبيد السود، واشترك معه في الزلاقة (479هـ/1086م) أربعة آلاف أسود، وبلغ العدد مع النـــاصر الموحدي في العقاب (609هـ/1212م) ثلاثين ألفا[2].

ب- الإشارات المصدرية التي تبرز وجود أعداد كبيرة منهم ببلاد المغرب، فقد فرض علي بن يوسف سنة 523هـ/1128م - إستعدادا للجواز إلى الأندلس - قسطا على الرعية من سودانهم، وكان قسط أهل فاس منهم ثلاثمائة، وقتل عبد المؤمن في عام البحيرة نحو ثلاثة آلاف من سودان أهل أغمات، كما كان ليوسف بن سليمان أحد أصحاب ابن تومرت عبيد كثير في السوس، واقتنى العرب الطارئون آنذاك عبيدا كثيرين[3].

وقد ذكر البكري عن أهل أودغشت حاضرة صنهاجة الصحراء، أن الواحد منهم كان يملك ألف خادم وأكثر[4]، ومن الواضح أن امتلاك ما يزيد على ألف خادم بالنسبة للفرد الواحد يتجاوز حدود الأغراض المتعلقة بالخدمة، ولا يمكن تفسيره إلا بأن التجار المستقرين هنالك كانوا يشترون العبيد ويجمعونهم في انتظار قدوم القوافل التي تبحث عنهم لتصديرهم إلى الشمال[5].

وكان إسهام صنهاجة الصحراء في هذه التجـــارة لا يقتصر على جلب العبيد، لكن يتجـــاوزه إلى تعليمهم ما يرفع من ثمنهم، فقد أفـــاد البكري بأن ثمن الأمة السودانية المحسنة للطبخ بأودغشت يتجـــاوز مائة مثقال [6]، ولا شك أن هذا الثمن يحقق أرباحا طائلة لصاحبه، خاصة وقد أشرنا إلى الثمن الزهيد للعبيد ببلاد السودان.

ولم يكن الرقيق المجلوبون يبـــاعون في بلاد المغرب فقط، بل يحملون إلى مختلف منـــاطق دار الإسلام في مصر والشام و الحجاز[7]، والأندلس وصقلية وبلاد فارس، وقد كانت مصر تعتبر الموزع الرئيسي تجاه الشرق إلى جميع

1- هوبكنز، المرجع السابق ، ص: 165.

2- عزالدين أحمد موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، القاهرة ، دار الشروق 1983، ص:117.

3- المرجع نفسه، ص: 117.

4- البكري ، المصدر السابق ، ج2،ص:355.

5- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:457.

6- البكري، المصدر السابق ،ج2، ص:345. وعن أسعار الرقيق ببلاد المغرب ينظر: عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص: 234-239.

7- الإصطخري، المصدر السابق ، ص:40. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:94-95. مجهول ، حدود العالم ، مصدر سابق ، ص:117-118.

أنحاء العالم الإسلامي [1]، بالإضافة إلى أوروبا وغيرها، وقد رأى بعضهم أن رقيق السودان الغربي كان أكثر رقيق بغداد منذ القرن 2هـ/8م[2].

ج- العـــاج.

كان العاج موجودا بكثرة ببلاد السودان، وهو من السلع التي اهتم تجار بلاد المغرب بجلبها[3]، وكان يستخدم يستخدم في مجالات صناعية وفنية عديدة، إذ صنع بعض الناس منه أواني الشرب وزينوا به الخيول، ولذلك وفرته حواضر صنهاجة الصحراء لمن يطلبه من تجار المغرب الذين يقصدونها [4]، ومع أن تجارة العاج كانت مربحة، فإن استعماله في صنع الأواني من كؤوس وصحون وملاعق جعل الفقهاء يتحرجون من المال الذي يرد من تجارته، فقد تنازل أبو الفضل أحمد بن علي التميمي عن ألف دينار من تركة أبيه لأنها كانت من تجارة العاج [5]، وربما كان موقف الفقهاء هذا هو سبب عدم احتلال تجارته أهمية كبيرة، لأنه كان موجها غالبا للتصدير نحو أوروبا والهند والصين[6].

د- الجلـــود .

ذكر أبوحامد الأندلسي أن التجار يحملون من السودان"أنواعا من جلود الماعز مدبوغة دباغة عجيبة، الجلد الواحد يكون غليظا كبيرا لينا محببا في لون البنفسج إلى السواد، يتخذ منه الأخفاف للملوك، لا يبل بالماء ولا يبلى ولا يفنى مع لينه ونعومته وطيب رائحته، يباع الواحد منه بعشرة دنانير" [7]، كما يجلب من السودان المجنّات المصنوعة من جلد حيوان يسمى "لبطي"لا يخترقها الحديد البتة، وكانت غالية الثمن، إذ بلغ الواحد منها ثلاثين دينارا[8]، إضافة إلى الأسواط المسماة "السرياقات" التي تصنع من جلد حيوان يدعى:" قفوا" [9]، والتي وجدت سوقا سوقا رائجا للحاجة إليها في ركوب الإبل [10]، إضافة إلى جلد النمور، وهو هام في صناعة السروج، وقد كان

---

[1]- موريس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى،تر:عبد الرحمن حميدة ،دمشق ،دار الفكر1982،ص:265.

[2]- خالد حسين محمود، الرقيق والحياة الاجتماعية ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام،القاهرة، مصر العربية للنشر، 2009،ص:40.

[3]- الزهري ، المصدر السابق ، ص:117-118،123.

[4]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق،ص: 380.

[5]- القاضي عياض ، تراجم أغلبية ، تح: محمد الطالبي ، تونس ، الجامعة التونسية 1968، ص:322.

[6]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:460.

[7]- بان علي محمد البياتي ، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن 3-5 هـ/ 9-11م ، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف صباح إبراهيم الشيخلي ، جامعة بغداد ، 2004، ص:88.

[8]- القزويني ، المصدر السابق ، ص:26.

[9]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:360.

[10]- الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص:323.

يحمل إلى المشرق فيسمى البربري الموشح [1]، ويبدو أن تجار صنهاجة الصحراء كانوا يحملون هذه الجلود إلى حواضرهم لعرضها على تجار الشمال، بعد أن يقوموا بصباغتها من أجل رفع ثمنها، مستغلين وجود شجر الصمغ في مناطق عديدة من مجالهم [2]، خـــاصة أنهم كانوا مهتمين بها، مثل اهتمامهم بجلود الفنك واللمط التي كانت تصنع منها الدرق التي لم يتحصن المحاربون بمثلها، والتي كانت من أهم السلع الصحراوية إلى بلاد المغرب[3].

هـ - الحيـــــوانات.

كانت بعض حيوانات بلاد السودان من السلع المجلوبة ، مثل النمور والزرافات، وربما كان بعض ما تضمنته هدية زيري بن عطية منهـــا إلى قرطبة مجلوبا من هناك، لأن فيها دابة من دواب المسك و مهاة وحشية تشبه الفرس وحيوانات غريبة[4]، ومن المرجح أنها كانت تجلب وهي صغيرة ثم تتم تربيتها ببلاد المغرب.

إضافة إلى ماسبق تبرز لنا المصادر العربية أن التجار كانوا يحملون من بلاد السودان الغربي عبر المحور الغربي العابر لمجالات صنهاجة الصحراء الأبنوس[5]، وبعض البهارات والأفاويه التي تستعمل كأدوية[6]، كما أن سلعا أخرى أخرى وردت في مصادر متأخرة لم يثبت أنها كانت من سلع التبادل في الفترة المدروسة، مثل جوز الكولا والفول السوداني، وقد نبه جون دوفيس (J.Devisse) إلى أن بعضها بدأ الاتجار فيه متأخرا[7].

ومما يؤكد المساهمة الفعالة لصنهاجة الصحراء في جلب سلع بلاد السودان، أنهم كانوا يقصدون هذه المنطقة باستمرار لأنها تمثل أحد مصادر غذائهم، فقد كانوا يستوردون منها أحد أصناف الذرة يسمى "أنلي"[8]، ويحصلون ويحصلون من التكرور على بعض الملابس القطنية [9]، كما جلبوا العسل الذي سبقت الإشارة إلى وفرته بالسودان الغربي[10]، إضافة إلى سعي صنهاجة الصحراء لتوفير أهم السلع السودانية لتجار بلاد المغرب الذين كانوا يوفرون

1- جودت عبد الكريم يوسف ، المرجع السابق ، ص:229.

2 - Jean Devisse , op.cit.p :450.

3- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 431-432.

4- جودت عبد الكريم يوسف ،المرجع السابق ، ص: 230. ودابة المسك هي قط الزّباد، وهو حيوان كان يصدر بأعداد كبيرة إلى الشمال لأنه كان ينتج أحد أهم وسائل الترف العربي وهو المسك، ويتم الحصول عليه بضرب القط حتى يفرزه، أنظر: بانيكار ، المرجع السابق ، ص: 397.

5- الزهري ، المصدر السابق ، ص:118.

6- جودت عبد الكريم يوسف ، المرجع السابق ، ص299-300.

7 -Jean Devisse , op.cit.p :412.

8- إبن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:684.

9- الدمشقي ، المصدر السابق ، ص:239.

10- البكري، المصدر السابق، ج2،ص:344.

لهم الكثير من حاجاتهم من القمح والتمر والزبيب [1]، ما يجعل هذه التجارة بالنسبة للملثمين ليس فقط مجرد تبادل لتحقيق الأرباح الطائلة ، بل أيضا لضمان استمرار تدفق مختلف مستلزماتهم من المغرب الإسلامي.

مما سبق ندرك أن صنهاجة الصحراء كان لها دور كبير في تحصيل تجار المغرب الإسلامي لسلع السودان الغربي، وفي مقدمتها الذهب والعبيد، حيث مثلت حواضر صنهاجة الصحراء وخاصة أودغشت سوقا للتبادل ضم سلع الشمال والجنوب، وأدى هذا الدور إلى حدوث تكامل اقتصادي بين المنطقتين، عززه الاندماج التدريجي للسودان الغربي في المنظومة الثقافية لبلاد المغرب.

5- وســـــائل التبـــادل.

أ- المقايضـــــــــة.

كانت المقايضة هي أساس العمليات التجارية التي تتم في التجارة العابرة للصحراء، حيث كان التجار يبادلون سلعهم بتبر الذهب أو بقطعه أحيانا[2]، ولم يقتصر الاعتماد على المقايضة بالتبر على التجار الذين يصلون إلى المدن السودانية، فقد كانت أودغشت حاضرة صنهاجة الصحراء تقيم معاملاتها على هذا النوع من التبادل التجاري، إذ ذكر البكري في الحديث عن ثراء أهلها بأنهم " أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة وسوقها عامرة الدهر كله ، لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتبر وليس عندهم فضة"[3].

وقد كان التبر في بلاد السودان غالبا ما يقايض بالملح، وهو ما ذكرته المصادر، ولا ينفي هذا مبادلته بسلع أخرى ذات أهمية معتبرة مثل الملابس المصبوغة والخيول، فإذا كان الملح هو أهم سلعة يحملها تجار الشمال فهو قابل للمقايضة بجميع السلع السودانية، أما التبر فهو قابل للمقايضة بجميع السلع الشمالية، ومن ثم فإن السلع ذات الأهمية الأقل كانت تقايض بمثيلاتها بين الطرفين .

ومما استعمله التجار الشماليون بكثرة في عمليات التبادل النحاس، وهو ما يدل عليه الكشف الأثري المتعلق بالقافلة التي ضاعت في صحراء موريتانيا في القرن 6هـ/12م ،حيث وجد بها 1000 قضيب من النحاس يزن

---

[1]- المصدر نفسه،ج2،ص:344.

[2]- أنظر في ذلك : البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:361-362. الحميـــــري ، المصدر السابق ، ص:438. القلقشندي ، ج5، ص:291.

[3]- المصدر نفسه ،ج2، ص:344.

الواحد منها 276غرام أو 716غرام مجتمعة في شكل حزمات[1]، ولا شك أنها كانت تمثل إحدى وسائل التبادل، خاصة إذا علمنا أن النحاس كان أداة للتعامل التجاري ببلاد السودان.

وحسب ابن بطوطة فقد كان التـــاجر الشمـــالي من أجل الحصول على حاجياته اليومية ببلاد السودان يحمل" قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم، وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم، فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بأنلي [نوع من الذرة السودانية] واللبن و الدجاج ودقيق النبق والأرز والعصيدة ودقيق اللوبيا، فيشتري منهن ما أحب من ذلك" [2]، ويبدو أن التجار استعملوا الودع من أجل توفير الحاجيات البسيطة، خاصة عندما فرض نفسه كعملة للتبادل.

وكان الذهب إما أن يبادل تبرا وهو دقيق الذهب قبل تصفيته، أو بعد تصفيته ويسمى المثقـــال [3]، وهو يساوي وزن 72 حبة من حبات القمح أو الشعير المتوسطة الحجم، ويقال أن المثقال منذ وضع لم يختلف في جاهلية ولا إسلام[4]، ويقدر وزنه بحوالي 4.72 غرام من الذهب[5]، وهو ما تقترب منه قيمة دينار عبد الملك بن مروان الذي يساوي 4.25غرام ذهب، و يقابل المثقال الواحد 30000 ودعـــة[6].

وقد كان دور الوسطاء من صنهاجة الصحراء مهما في هذا النوع من التبادل، إذ أن خبرتهم بالتعامل مع تجار المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وقيام بعضهم بدور المترجم بينهم، جعل من حضورهم في المبادلات التجارية أمرا بالغ الأهمية، وتعززت هذه الأهمية بعد تأسيس مدن تنبكت و ولاتة وغيرها، التي جمعت بين الملثمين والسودانيين.

و لم نعثر في بحثنا عن وجود عملة مسكوكة ببلاد السودان، إلا ما ورد عن أهل تادمكة الذين لهم دنانير تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة [7]، أما ما ورد عند ابن حوقل في تقدير ثمن حمولة الملح ببلاد السودان

---

[1]- شعباني نورالدين ، علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي و آثارها الحضارية بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين / 10و15م، رسالة ماجستير في تاريخ العلاقات بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي، إشراف موسى لقبال ، جامعة الجزائر ،2006، ص:125.

[2]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:689.

[3]- هو بكتر ، المرجع السابق ، ص: 134.

[4]- أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص:404.

[5]- النايي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:284.

[6]- الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص:337.

[7]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:370-371. وانظر مناقشة الأمر عند: Jean Devisse , op.cit.p :416.

بالدينار، وحديث البكري عن ضرائب ملك غانة على حمل الملح و النحاس والمتاع بالدينار [1]، فيبدو أن المقصود به المثقال الذي اعتبره هوبكنز(Hopkins) تسمية بديلة للدينار ببلاد السودان[2].

ب- التجـــارة الصامتــــــة.

تحدثت الكثير من المصادر عن التجارة الصامتة كأسلوب للتعامل بين تجار الشمال وتجار التبر في دواخل السودان، بما يدل على أن بعض التجار كانوا يتجاوزون المدن السودانية إلى المناطق التي يستخرج أهلها الذهب، وقد أفادنا الحموي بالطريقة التي يتم بها هذا التعامل فقال أن التجار "إذا وصلوا ضربوا طبولا معهم عظيمة تسمع من الأفق الذي يسامت هذا الصنف من السودان (...)، فإذا علم التجار أنهم سمعوا الطبل أخرجوا ما صحبهم من البضائع المذكورة، فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك،كل صنف على جهة، ويذهبون عن الموضع مرحلة، فيأتي السودان ومعهم التبر فيضعون إلى جـــانب كل صنف منهـــا مقدارا من التبر وينصرفون، ثم يأتي التجـــار بعدهم فيأخذ كل واحد مـــا وجد بجنب بضـــاعته من التبر، ويتركون البضـــائع وينصرفون بعد أن يضربون طبولهم"[3]، طبولهم"[3]، أما إذا لم تعجب التجار قيمة التبر فإنهم لا يأخذونه طلبا للزيادة حتى يحدث الرضا بين الطرفين، أو يغيرون الموضع إلى مكان آخر[4].

وقد حاول بانيكار(M.Panikar) تفسير الأسباب الداعية إلى هذا النوع من التبادل، رافضا اعتباره حاجز اللغة الذي كان يمكن التغلب عليه، أو الخوف الذي يعد مانعا من التواصل التجاري ذاته، معتبرا أن السبب المعقول الوحيد هو أن تجار الذهب السودانيين كانوا يرفضون الكشف عن مكان ثروتهم، وبالتالي فإن أفضل طريقة للحفاظ على هذا السر هو تجنب الاتصال المباشر بالتجار[5].

و لكن هوبكنز(Hopkins) رفض وقوع هذا النوع من التبادل، معتبرا أن الروايات الواردة في التجارة الصامتة لا تصمد أمام النقد[6]، ويمكننا أن نلحظ بأن هذا النوع من التبادل لم يذكر عن شعوب السودان فقط، بل

---

[1]- ابن حوقل ، المصدر السابق، ص: 98. البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:364.

[2]- هوبكنز ، المرجع السابق ، ص:134.

[3]- ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،ج2، ص:12-13.

[4]- من المصادر العربية التي تحدثت عن هذا النوع من التبادل مع السودان : المسعودي ، أخبار الزمان ،مصدر سابق ، ص: 88. القزويني ،المصدر السابق، ص:19. العمري ، المصدر السابق ،ج4، ص:128. القلقشندي ، المصدر السابق ،ج5، ص:291. كما نجد صدى هذا النوع من التبادل في إحدى النوازل الإباضية ، حيث نص الشيخ أبو محمد عبد الله بن مانوح اللمائي الهواري أنه " إذا رأى المشتري الشيىء ورضيه ، ورأى البائع الثمن فرضيه فذلك رضا بالبيع ، لأن حقيقة البيع التراضي وهي مسألة السودان". أنظر : الوسياني ،المصدر السابق ،ج1، ص:319.

[5]- بانيكار ، المرجع السابق ، ص: 391.

[6]- هوبكنز ، المرجع السابق، ص: 132-133. ويرى جون دوفيس(J.Devisse) أن تجار المغرب لم يبلغوا مناطق استخراج الذهب و لم يتواصلوا مع مستخرجيه ، بل كان ذلك مختصا بالتجار من السودانيين في حواضر السودان الغربي الشمالية، أنظر: Jean Devisse , op.cit.p :454.

بل ورد عند هيرودوت ما يشير إلى أن التجار الفينيقيين مارسوه مع سكان الشمال الإفريقي في التاريخ القديم، كما أن تجارة الحرير مع الصينيين قد اعتمدت على ذلك أيضا[1].

وما دامت هذه المعاملة قد اختصت بالمنـــاطق السودانية البعيدة عن الحواضر، فقد يكون للأدلاّء من الملثمين دور في إيصـــال التجـــار إلى هذه المناطق، لأن مثل هذه الطريقة التقليدية ضـــاربة في عمق التـــاريخ، وبالتالي فقد مارسهـــا السودانيون مع الملثمين قبل أن يصل تجـــار بلاد المغرب، الذين تلقوهـــا عن تجـــار وأدلاّء صنهاجة الصحراء.

ج- الصكـــــــوك .

إنفرد ابن حوقل بالحديث عن التعامل بالصكوك في التجارة الصحراوية العابرة للطريق الغربي، ولا شك أن ذلك يدل على ازدهار هذه التجارة ودور الحواضر الصنهاجية ـــ وخاصة أودغشت التي مثلت لفترة طويلة دور الوسيط بين الشمال والجنوب ـــ في ذلك، فقد قال:" رأيت بأودغشت صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغشت، وهو من أهـــل سجلماسة باثنين وأربعين ألـــف دينـــار، وما رأيت و لا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبيها ولا نظيرا، ولقد حكيتها بالعراق وفارس فاستطرفت"[2].

ولا شك بأن اللجوء إلى استعمال الصكوك قد دفع إليه كثرة الأموال الناتجة عن أرباح التجارة الصحراوية ، بالإضافة إلى طول الطريق وصعوبته والخوف من قطاع الطريق، و يمكننا التأكيد على أن هذا النوع من التعامل لم يكن شائعا وإنما اقتصر على التجار الكبار بين أودغشت وسجلماسة، وهما أهم حاضرتين فاعلتين في المحور الغربي من الطرق العابرة للصحراء لمدة طويلة[3]، وهو يبرز الأهمية الكبيرة التي قامت بها حواضر صنهاجة الصحراء في التواصل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي.

بعد بيان وسائل التبادل وعقد الصفقات التجارية، ودور صنهاجة الصحراء فيها، ينبغي إعطاء أمثلة للأهمية التي مثلتها حواضر صنهاجة الصحراء في قيام هذا النشاط التجاري بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي ، واستمراره.

[1]- بانيكار ، المرجع السابق ، ص: 391.

[2]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:96،65،27، وينبغي الإشارة هنا إلى أن لفتزيون (N.Levtzion) قد شكك في وصول ابن حوقل إلى مدينة أودغشت، معتبرا غياب وصف للطريق الذي سلكه دليل على أنه تلقى معلوماته عن التجار السالكين له ،أنظر:
Nehemina Levtzion, Ibn- Hawgual , The cheque, and Awdgost ,The Joournal of African history, vol. 9, No. 2(1968).P:223-233.

[3]- نورالدين شعباني ، المرجع السابق، ص:129-130.

6- المراكز التجـــارية في صحـــراء الملثمين.

أدت حواضر صنهاجة الصحراء دورا مهما في التواصل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، فقد كانت محطات استراحة للمسافرين ، وتزود بالمياه والأكل والعلف، ومراكز للتبادل التجاري عند الكثير من التجار الذين يكتفون بالوصول إلى الحواضر الصنهاجية من أجل الحصول على السلع السودانية، و لم تكن هذه الحواضر تؤدي دورا على قدر واحد من الأهمية، إذ أن ذلك متعلق بالموقع الجغرافي والقرب من المســالك الرئيسية، إضافة إلى أن بعضها لم يؤسس إلا في فترات لاحقة من استعمال المسلمين للمحور الغربي من الطرق التجارية، مما يبرز الأثر الكبير لهذه التجارة، كما أن العديد من التحولات في الشمال والجنوب كانت تؤثر على مدى أهمية الحواضر، إذ كان مجال صنهاجة الصحراء متأثرا دائما بمختلف التطورات الحاصلة في بلاد المغرب وفي السودان الغربي على حد سواء، ويمكننا أن نختار حاضرتين من حواضر الملثمين كان لهما دور بارز في النشاط الاقتصادي في المرحلة المؤرخ لها، من أجل تقديم صورة عن الدور الذي لعبه الملثمون ومجالهم في هذا النشاط.

أ- أودغـــــــشت[1] :

تعد أودغشت أهم مدينة في مجال صنهاجة الصحراء إلى غاية منتصف القرن 5هـ/11م، فقد كانت قاعدة ملك الحلف الصنهاجي، وملتقى بضائع الشمال والجنوب، ولذلك اعتبرها جون دوفيس (J.Devisse) بمثابة

[1]- أنظر الصورتين رقم 1و2ص:132 من هذه الدراسة اللتين تمثلان بقايا مسجد وبعض دور المدينة.

الميناء الصحراوي الذي يجمع سلع الشمال والجنوب [1]، ولا شك أن هذه الأهمية هي التي أدت إلى الصراع العسكري حولها، بعدما رغبت القبائل المنتمية إلى مجموعة زناتة في الشمال ومملكة غانة في الجنوب في السيطرة عليها، حيث اشتد هذا الصراع في القرن 4هـ/10م، وأدى إلى سقوطها في يد غانة في تاريخ غير واضح نهاية هذا القرن، حدده دولافوس(Delafosse) بـ:380هـ/990م[2]، و انتشرت بها القبائل الزناتية وغيرها من القبائل المنتمية إلى المذهب الإباضي، ماجعل البعض يتحدث عن تحالف إباضي غاني، ضد صنهاجة الصحراء، ولم يسترجعها الملثمون إلا سنة 446هـ/1054م،[3]بعدما قامت حركة المرابطين في صحرائهم ، وجعلت من استرجاع أودغشت أولى أعمالها بعد توحيد قبائل صنهاجة الصحراء.

وتقع أطلال مدينة أودغشت في الموقع الذي يعرف اليوم باسم "تغداوست"، وتبعد تلك الأطلال مسافة 34كلم إلى الشمال الشرقي من مدينة تامشكط بمنطقة الحوض في موريتانيا، ويعتقد موني(R.Mauny) اعتمادا على رسوم ونقوش وكتابات غير إسلامية وجدت في الموقع وحواليه، أن المدينة عرفت استقرار جماعات ذات صلة بسكان البحر المتوسط منذ فترة غير محددة قبل الميلاد، بينما يعتقد ناعمي مصطفى أنها قد أصبحت منذ القرن 2هـ/8م، عاصمة الضفة الجنوبية للصحراء[4].

وأول الإشارات الواردة عن أودغشت في المصادر العربية قدمها لنا اليعقوبي، الذي أسماها غسط وقال في وصفها بأنها: "واد عامر فيه منازل" [5]، ولم يشر للنشاط التجاري فيها، وقد قدم ابن حوقل والمهلبي وصفا لموقع المدينة منتصف القرن 4هـ/10م بأنها: "مدينة بين جبلين"مبرزين المسالك التجارية التي تتصل بها من الشمال والجنوب بما يبين الأهمية التجارية لها [6]، والتي تحدث عنها المهلبي عندما أفاد بأنها مصر جليل له أسواق كبيرة، والسفر متصل إليها من كل بلد [7]، أما ابن حوقل فقد أوضح ازدهار النشاط التجاري بها من خلال حديثه عن الصك الذي رآه فيها بقيمة 42000دينار، إلى الحد الذي تعجب من قيمته تجار المشرق[8].

ويبدو أن المدينة قد شهدت تطورا كبيرا ما بين منتصف القرن 4هـ/10م ومنتصف القرن 5هـ/11م، عندما قدم لها البكري وصفا يدل على أنها صارت من الحواضر الكبيرة وذات الأهمية والثراء البالغين، فقد وصفها

---

[1] - Jean Devisse , op.cit.p :450.
[2] - Maurice Delafosse, Haut- Sènègal-Niger,T2, op.cit.p:32.

[3]- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:355.
[4]- النايي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:322.
[5]- اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص:151.
[6]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:91. المهلبي ، المصدر السابق ، ص:45. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،ج1، ص:277. أبو الفداء ، تقويم البلدان ، نشره رينود والبارون دي سلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، 1840، ص:125.
[7]- المهلبي ، المصدر السابق ، ص:46.
[8]- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص:96،65،27.

بأنها مدينة كبيرة آهلة، بها مبان حسنة ومنازل رفيعة، وحولها بساتين النخيل، وأنها تضم جامعا ومساجد كثيرة عامرة[1]، ووصف أهلها بأن لهم أموال عظيمة ورقيق كثير، وأن الرجل منهم كان يمتلك ألف خادم وأكثر [2]، وقد قـاد التنقيب الذي قـام به جون دوفيس (J.DEvisse) إلى تقدير عـدد سكـان المدينة بالآلاف، وهو رقم كبير بالنسبة لتلك الفترة، وبالنظر إلى طبيعة الحواضر الصحراوية [3].

وهذا الثراء كان سببه التجارة العابرة للصحراء، فقد كانت أودغشت تعتبر ملتقى أغلب القوافل التي تنطلق من سجلماسة أونول لمطة أو درعة عبر تامدلت، بالإضافة إلى ارتباطها جنوبا بمملحة أوليل ومدينتي غانة ويرسني كما تقدم، وهذه الشبكة الكبيرة من الطرق التي تمر بها جعلتها ملتقى سلع الشمال والجنوب. حيث يقصدها تجار الشمال إما لحمل ملح أوليل معهم إلى بلاد السودان لمن لا يرغب في العبور على المملحة، أو للحصول على سلع السودان لمن لا يريد إكمال السفر إلى الجنوب .

وقد أوضح البكري هذا النشاط التجاري بأودغشت عندما كتب بأن أهلها" أرباب نعم جليلة وأموال جليلة، وسوقها عامرة الدهر كله، لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله ، وتبـايعهم بالتبر"[4].

و لم تكن وظيفة مدينة أودغشت تقف عند كونها ملتقى السلع وموطن التبادل، بل كانت تساهم في هذه التجارة بتجارها المتمرسين على عبور الصحراء باتجاه بلاد المغرب وبلاد السودان، إضافة إلى عملهم على الاستثمار في السلع السودانية من أجل رفع ثمنها، فقد كانوا يقومون بتحويل التبر إلى ذهب إبريز خالص على شكل خيوط مفتولة[5]، وهو ما يرفع ثمنه و يسهل حمله، كما كانوا يدبغون الجلود السودانية بالصمغ الموجود في مجالاتهم القريبة من الأطلسي [6]، ويعملون على تعليم العبيد وتدريبهم على بعض الحرف والصناعات، حيث كان يصل سعر السودانيات الطباخات المحسنات إلى 100مثقال للأمة الواحدة[7].

ولكن يبدو أن دور أودغشت قد تراجع بعد استرجاع المرابطين للمدينة، وبالتالي يعتبر النصف الثاني من القرن 5هـ/11م نهاية مرحلة الدور الريادي لها كمحطة للتبادل التجاري بين ضفتي الصحراء [8]، ولا ريب أن

---

[1]– البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:344.
[2]– المصدر نفسه ،ج2، ص:355.
[3] - Jean Devisse , op.cit.p :445.
[4]– البكري، المصدر السابق،ج2، ص:344.
[5]– المصدر نفسه ،ج2، ص:345.
[6] - Jean Devisse , op.cit.p :450.
[7] – البكري، المصدر السابق، ج2،ص: 345.
[8] - Laurence Garenne-Marot, "Le commerce médiéval du cuivre : la situation dans la Moyenne Vallée du Sénégal d'après les données archéologiques et historiques", Journal des africanistes,T65, fascicule 2 (1995), p: 50.

المعاملة القاسية التي تعرضت لها أودغشت على يد جيش عبد الله بن ياسين قد دفعت الكثير من الناجين إلى الفرار منها،كما أن الخلاف بين جدالة والمرابطين وانقطاع طريق أودغشت أوليل بسبب ذلك،ـــ حيث أصبح الجداليون يصرفون ملحهم إلى بلاد التكرور مباشرة ـــ،قد أدى إلى تراجع دور أودغشت في تجارة الملح الذي كان أهم ما يحمل إلى بلاد السودان، ثم عزز هذا التراجع بداية مرحلة الإنتاج الوفير في سبخة تغازة بمجال مسوفة، وهو ما يصرف التجار عن طريق أودغشت[1]، إلى طريق وادي درعة إلى بلاد السودان عبر المفازة الكبرى.

والصورة التي قدمها الإدريسي للمدينة حوالي منتصف القرن 6هـ/12م يبرز هذا التراجع، حيث وصفها بأنها مدينة صغيرة عامرها قليل، و ليس بها كبير تجارة، ولأهلها جمال يتعيشون منها[2]، وهو دليل على فقدان المدينة المدينة لدورها السابق، واعتماد ما تبقى من ساكنتها على تربية الإبل في معاشهم، بعدما تجنبتها الطرق التجارية، ما فتح المجال لتحول الريادة إلى مدن أخرى كانت أقل منها أهمية.

ب – أزكـــي[3]:

حدد ليفيتسكي (T. Lewicki) موقع مدينة أزكي في الجنوب الغربي من مدينة شنقيط الموريتانية في مجـــال قبيلة لمتونة[4]، وقدر الإدريسي المسافة بينها وبين سجلماسة بـــ: 15يوما، و بينها وبين سلى وتكرور من مدن السودان الغربي 25 يوما[5]، وعند الحميري أن المسافة بينها وبين نول لمطة 7 مراحل[6]، وقد ورد الحديث عنها لأول مرة عند البكري، إذ ذكر بأن أركي حصن بناه يانو بن عمر الحاج اللمتوني، وكان حوله عشرين ألف

---

[1]- ولد آل الشيخ سيدي محمد ،"دور طرق القوافل في ازدهار المدن الموريتانية القديمة"،طريق القوافـــــل ، الجزائر ، منشورات المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ ،2001، ص:97-98.

[2]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:108.

[3]- وتكتب أيضا :أركي / أزقي /أرقي/ آزقي /آزكي / أنظر : البكري ، المصدر السابق ،ج 2، ص:354-355. الزهري ، المصدر السابق، ص:117،125. الإدريسي ، المصدر السابق ،ج 1، ص:18،106،224. ابن سعيد المغربي، المصدر السابق ، ص: 112.ا لحميري ، المصدر السابق، ص:28. ابن عذارى ، المصدر السابق ،ج4، ص:14.

[4]- Tadeusz Lewicki," Un État soudanais mèdièval inconnu : le royaume de Zàfun", cahiers d'etudes africaines , vol 11, n: 44 1971, p :502.

وقد أشار ليفتسكي في دراسة أخرى له أن أزكي هي نفس المدينة التي يسميها السودانيون: "كوكدم"، ولكن هذا الرأي يصطدم بالكثير من الإشكالات أكبرها ما ورد عند ابن سعيد المغربي عن كوكدم أنها " في شمال أزقي وغربيها، وبينهما ثمانية أيام، وهي لمسوفة من المسلمين". أنظر: ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 112، وقارن بما ذكره ليفتسكي في:

Tadeusz Lewicki ," Le role du Sahara et des Sahariens…"op.cit.p :309.

[5]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1، ص:18-19. وقد قدر المسافة بينها وبين سجلماسة ص: 224 بثلاثة عشرة مرحلة ، و اعتبرها في مجال مسوفة ولمطة ، ويبدو أن ذلك يعود لتوسع قبيلة مسوفة، في مجال لمتونة بعد نزوح العديد من اللمتونيين شمالا كما سبق ذكره ، ولا شك أن اسم الجبل الذي تقع فيه المدينة ذاته – جبل لمتونة – يبين أن المدينة في الأصل مدينة لمتونية.

[6]- الحميري ، المصدر السابق ، ص:28.

نخلة[1]، وهذا العدد الكبير للنخل دفع بالباحث النايي ولد الحسين إلى القول بأن وجوده في حيز جغرافي ضيق يتطلب تمرسا طويلا بالتعامل مع هذه النوع من الزراعة، ومعرفة التقنيات الكفيلة بالمحافظة على هذه الثروة [2]، وبالتالي فإن الاستقرار السكاني في المنطقة قديم، و الحصن فقط هو الذي يعود لعصر البكري.

و لم تظهر أهمية هذه الحاضرة إلا بعد تراجع دور أودغشت، واتخاذ المرابطين لأزكي قاعدة لدولتهم في الصحراء، حيث اعتبر الزهري أزكي مدينة وحاضرة المرابطين[3]، بعدما اكتفى البكري باعتبارها مجرد حصن محاط بالنخيل، واعتبرها الإدريسي مدينة ليست كبيرة ولكنها متحضرة، غير أنه أكد أن من أراد الدخول إلى بلاد سلى وتكرور وغانة من بلاد السودان لابد له من العبور عليها[4]، وهو نفس ما أكده ابن سعيد المغربي[5].

إن تأكيد المصادر على ضرورة العبور على أزكي يحيل إلى كونها محطة استراحة وتزود بالماء والأكل والعلف، خاصة إذا علمنا أن المنطقة الفاصلة بينها وبين بلاد السودان كانت طرقا "مجهولة الآثار دارسة المسالك قليلة السالك ماؤها غائر وعلامتها خفية" [6]، كما يبدو أنها أخذت دور أودغشت كمحطة لتبادل السلع، إذ لا يمكن لتجار صنهاجة الصحراء التخلي عن دور الوسيط التجاري، لما يوفره لهم من الحاجيات ويحققه من الأرباح، ولكن جون دوفيس (J.Devisse) يرى أن أزكي لم تصل إلى مستوى الازدهار الذي بلغته أودغشت، بل إن جميع الحواضر الأخرى في ساحل الصحراء الشمالي لم تتمكن من بلوغ مرتبتها، لأن أودغشت لم تحقق ذلك بمجرد دور الوساطة بين تجار بلاد المغرب والسودان الغربي، بل بتطويرها للكثير من الأنشطة الحرفية المتعلقة بالكثير من السلع التي كانت تصل إليها من الشمال والجنوب[7].

ما سبق ذكره يبرز أهمية حواضر صحراء صنهاجة في التواصل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وذلك لاستمرار حاجة القوافل التجارية إلى محطات الراحة وأسواق التبادل وتصريف السلع، وهو الدور الذي سمح باستمرار هذا النشاط، وعزز العلاقات بين ضفتي الصحراء، فهل كان لصنهاجة الصحراء دوركبير في التواصل الثقافي بين ضفتي الصحراء يوازي دورها الاقتصادي؟

[1]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:354-355.
[2]- النايي ولد الحسين ،المرجع السابق ، ص:46.
[3]- الزهري ، المصدر السابق ، ص:117.
[4]- الإدريسي ، المصدر السابق ، ص:114.
[5]- ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص:112.
[6]- الإدريسي،المصدر السابق ،ج1، ص:106.

[7] - Jean Devisse , op.cit.p :451.

الفصـــل الثـــالث

دور صنهـــاجة الصحـــراء في التواصـــل الثقـــافي بين المغرب الإســـلامي والســـودان الغربي من ق:2-7هـ/8-13م.

1 - الأثر الثقـــافي للنشـــاط التجـــاري العـــابر للصحـــراء.

2 - دور الملثمين الثقـــافي ببلاد السودان قبل قيام دولة المرابطين.

3- الدور الثقـــافي للمرابطين ببـــلاد الســـودان.

4- دور الحواضر الصنهاجية في تعزيز الثقافة الإسلامية بالسودان الغربي.

1 – الأثر الثقـــافي للنشـــاط التجـــاري العـــابر للصحـــراء.

لم تكن المسالك العابرة للصحراء مجرد ناقلة للسلع فقط، و لم يكن الملثمون وهم يقدمون مختلف التسهيلات لهذه القوافل مجرد مسهمين في تنشيط التبادل التجاري، وتحقيق التكامل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي فحسب، بل كان لهذا النشاط دور أكبر من ذلك بكثير، يتمثل في الإسهام في مختلف التحولات الثقافية في المجال السوداني، ولكن هذا الإسهام يحتاج إلى حفر في النصوص ومقاربات وتأويلات بسبب شح المادة المصدرية، التي لم توفر حوله سوى إشارات قليلة، ومع أن هذا الأثر قد استمر فاعلا طيلة التاريخ الوسيط والحديث، إلا أننا نقتصر هنا على الدلالات التي يمكننا اعتمادها في الفترة التي سبقت الحركة المرابطية، وذلك بسبب الأثر الكبير لها، والذي يجعلها محطة فاصلة بين مرحلتين متمايزتين.

أ– الحضور الإسلامي في المدن السودانية:

يعد البكري أحسن من قدم لنا معلومات عن الإسلام ببلاد السودان في النصف الأول من القرن 5هـ/11م ، وجاءت هذه المعلومات متنوعة في مضامينها، فبعضها يتعلق بحواضر الملوك، وأخرى بالمدن القريبة من المجال الصحراوي، وأخرى عن مدن داخلية، ولا شك في أن هذه الصورة لا تتعلق بتغيرات جذرية حدثت في القرن

5هـ/11م، ولكنها كانت نتيجة التفاعلات التي حدثت طيلة القرون السابقة [1]، و يمكننا أن نستشف منها أن الإسلام قد أصبح ظاهرة واضحة ببلاد السودان، ونضرب لذلك بعض الأمثلة من بينها ما هو سابق للبكري :

1- مدينة غانة حاضرة المملكة: قال عنها البكري: "مدينتان سهليتان، إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم (...)، وفي مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين، على مقربة من مجلس حكم الملك"[2].

2- مدينة غياروا:ـــ التي تبعد عن مدينة غانة بعشرين يوما إلى الجنوب ـــ، قال عنها البكري: " وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوما [إلى الجنوب] وفيها من المسلمين كثيـــــر"[3].

3- مدينة كوكو: قال عنها المهلبي منتصف القرن 4هـ/10م :"ملكهم يظاهر رعيته بالإسلام و أكثرهم يظـــاهر به (...) له مدينة على غربي النيل سكنهـــا هو ورجـــاله وثقاته، وبها مسجد يصلى فيه، ومسجد الجماعة بين المدينتين"[4]، وهي المعلومـــات التي أكدها البكري في قوله عن المدينة نفسها:" إذا ولي منهم ملك دفـــع إليه خـــاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم، وملكهم مسلم ولا يولون إلا المسلمين"[5].

تبرز لنا هذه المعطيات حضور المسلمين في المدن الساحلية والداخلية، وفي حواضر الملوك والمدن الأخرى، وانتشار الإسلام لدى الملوك والعامة على حد سواء، وكذا حجم الجالية المسلمة التي شكلت في مدينة غانة حاضرة كبيرة تضم اثنا عشر مسجدا من بينها المسجد الجامع، وبينت الحفريات التي تمت في المدينة أن أقدم مساجدها يعود إلى نهاية القرن 3هـ/9م[6]، ومن ثم فإن الإسلام قد أصبح حالة ثقافية واجتماعية بارزة، تحتاج إلى تقديم قراءة حول طريقة تبلورها.

إن المصادر لم تقدم لنا سوى إشارات قليلة يمكننا أن ننطلق منها لتفسير ظاهرة انتشار الإسلام، وهذه الإشارات تتعلق بدور التجار والدعاة في هذه التحولات، أما الروايات التي تتحدث عن وصول الفتوحات الإسلامية عهد عقبة بن نافع وعبيد الله بن الحبحاب إلى ماوراء الصحراء، فإنها لا تصمد أمام النقد التاريخي،

1- أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، مرجع سابق ،ص:81.

2- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:363.

3- المصدر نفسه ،ج2، ص:364.

4- المهلبي ، المصدر السابق ، ص:55.

5- البكري، المصدر السابق ،ج2، ص272-273.

6- Joseph Cuoq, Histoire de L'Islamisation…, op.cit.p:43.note.108.

خاصة أنها إما أن تكون قاصدة بالسودان مجالات صنهاجة الصحراء، أو أنها لا تعدو أن تكون روايات شفوية متأخرة ذات صبغة أسطورية، لا يمكن التسليم بها و البناء عليها.

ولكن تنبغي الإشـــارة إلى إحدى روايات البكري عن"قوم يسمون الهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفـــذوه إلى غـــانة في صدر الإســـلام وهم على دين أهـــل غانة، غير أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم (...) وبسلي أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان"[1]، ويبدو أن الرواية تتعلق بفرقة من جيش ابن الحبحـــاب الذي غزا الصحراء سنة 116هـ/734م[2]، ولكننا لا نستطيع اعتبـــار الهنيهين غزاة للمنطقة بل مجرد فرقة استطلاع أو جزءا من جيش ابن الحبحاب تاه في الصحراء، إذ أن عجزه عن حفظ دينه وذوبانه أو ذوبان خلفه في النمط الثقافي السوداني يوحي بقلة تعداده، وهو ما لا يسمح لنا باعتبـــاره أحد منطلقات التأسيس للثقافة الإسلامية بالمنطقة[3].

ب- دور التجـــار :

إن الإسلام دخل بلاد السودان كفكر محمول مع السلع التي يراد تبديلها بالذهب، حيث كان الوضع الديني المتخلف بالمنطقة حافزا لهذا الفكر لكي يجد البيئة التي تســـاعده على التحول إلى أحد المغريات التي يهتم بها السكـــان، كمـــا اهتموا بمختلف التحف واللطائف من الســـلع، ومن ثم فقد وصـــل الإسلام إلى حيث وصل التجـــار، ووجد لنفسه مكانا حيث صرفت سلعهم.

لقد كانت المعاملة التجـــارية وسيلة لبنـــاء الثقة بين التاجر المسلم وبين السكـــان الوثنيين الذين يرغب في تحويلهم إلى الإسلام، وكانت أخلاقه الفاضلة تنفي عنه كل ما يمكن أن يتهم به من دوافع استغلالية، وإذا ما دخل هذا التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه والتزامه بأداء صلاته وشعائره، وسيتمكن بفضل ما يتميز به من سمو عقلي وروحي من فرض احترامه على السكان المحليين، الذين يبدي لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في تزويدهم بما يمتلكه من المعارف والمزايا السامية، وهو ما يجعل تعرف السودانيين على الإسلام واعتناقه يتم بطريقة سلمية وسلسة[4].

[1]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:367.

[2]- عثمان برايما باري ، المرجع السابق ، ص:32.

[3]- أنظر موقفا مخالفا عند : أحمد الشلبي ، المرجع السابق ،ج6، ص:114.

[4]- توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، تر:حسن إبراهيم حسن وآخرون، القاهرة ، دار النهضـــة المصرية، 1971، ص:391.

لقد كان التزام التاجر المسلم بالأخلاق الفاضلة كالصدق في الحديث، والأمانة والنزاهة في المعاملة التجارية، والتواضع والسّمت الحسن، ممهدا لدخول السودانيين في الإسلام [1]، ذلك أن هذه الاستقامة الخلقية كانت تعتبر بمثابة ممارسة دعوية عملية، أقنعت السكان الأصليين بالحاجة إلى التعرف عن العقيدة التي تقف وراء بناء الفرد المسلم، وهو ما يقود في الأخير إلى التزام هذه العقيدة والتخلي عن الوثنية.

وما بيناه سابقا من دور الوساطة التجارية التي كان يقوم بها الملثمون بين ضفتي الصحراء، بالإضافة إلى العلاقات التجارية المباشرة بينهم وبين جيرانهم الجنوبيين، يؤكد الحضور التجاري الصنهاجي ببلاد السودان، وهو ما يمكن الانطلاق منه لمقارنة صورة التاجر الصنهاجي قبل اعتناق الإسلام وصورته بعدها في مخيال السودانيين، فالتاجر الذي عرفوه منذ الأزمنة القديمة كان أساس معاملته الكبرياء والغطرسة والتعالي، وعدم الاهتمام بمصدر المال بسبب الجشع، إضافة إلى عدم تحرجه من بعض الممارسات غير الأخلاقية، لم يبق بنفس المواصفات بعد اعتناق الإسلام، فقد لاحظ السودانيون هذا التحول التدريجي في السلوك والطباع والمعتقدات، وهو ما دفع بهم إلى البحث عن سبب هذا التحول ومن ثم الإعجاب بالإسلام واعتناقه [2]، وهذا ما يتيح لنا القول إن تأثير التجار بأخلاقهم كسبب من أسبـــاب انتشـــار الإسلام بالسودان الغربي، يبرز بجـــلاء بالنسبة لصنهـــاجة الصحراء أكثر من غيرهم.

وإذا كان بعض التجار المسلمين قد اختاروا السكن في مدن خاصة بهم من أجل الحفاظ على النمط الإسلامي لمعيشتهم، فإن ذلك لا يمكنه أن يمثل حـــالة شاملة في جميع المدن، بل يختص بالحواضر التي توجد فيها جالية إسلامية كبيرة[3]، وقد سمح تعايش المسلمين مع الوثنيين في مدينة واحدة بالتأثير فيهم، كما أدى إلى عقد زيجات مختلطة سمحت للتاجر المسلم بالتحول من غريب إلى عضو في الأسرة السودانية، بإمكانه ممارسة نشاط دعوي فيها،كما أن المولدين من هذه الزيجات يعتبرون من أهم عوامل التحول التدريجي إلى الإسلام في السودان الغربي[4].

بالإضافة إلى الجانب الأخلاقي والمعاملاتي، أثر التجار في ساكنة السودان الغربي بحكم انتمائهم إلى طبقة تعتبر راقية في المنطقة، وذلك بسبب الفوائد التي تذرها عليهم التجارة العابرة للصحراء، ومن ثم رأى بعض الباحثين أن بعض السودانيين كانوا يقبلون على اعتناق الإسلام لما يلاحظونه من الهيبة التي تلحق بمعتنق هذا الدين [5]، بل إن

[1]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:479.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق ، ص:101.

[3]- أنظر رأيا مخالفا عند : بانيكار ، المرجع السابق ، ص:387-388.

[4]- مصطفى بن شقرون،"دور التجار المسلمين في نشر الإسلام بغرب إفريقيا في العصر الوسيط"، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الإجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، (مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة)، طرابلس ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية 1999، ص:61.

[5] - Maurice Delafosse, Les noire De L'Afrique, op.cit. p :48.

السودانيين الذين يدخلون في الإسلام كان يمكنهم الشعور بالانتماء إلى هذه الفئة الراقية الموسرة المميزة[1]، والتي تنتسب إلى بلاد تعيش حضارة مزهرة، لا ريب في أن التجار كانوا يتحدثون إلى السودانيين عنها، معتبرينها أثرا من آثار التمسك بالإسلام، وهو ما يغري الناس بالرغبة في الانتساب إلى هذه الأمة عن طريق التزام دينها[2].

ومن الطبيعي أن تكون المجموعات السودانية الأكثر صلة بالتجار العرب والصحراويين المسلمين، أكثر انفعالا بتأثير الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي الأكثر تأهيلا لدخول الإسلام، وكان التجار السوننكيون هم أول وأكثر السودانيين اتصالا بجاليات التجار العرب والبربر في المدن التجـــارية الكبرى،كما كانوا يرافقون القوافل كأدلاء ومترجمين في مختلف المناطق السودانية، وفضلا عن ذلك كانوا يعملون لحساب كبار التجار الشماليين في المناطق التي لا يمكنهم وصولها لأسباب أمنية أو مناخية[3].

كما أن انتشار الإسلام لدى التكرور والسنغي يمكن أن يعود لنفس السبب الذي انتشر به لدى السوننكة، ذلك أن مدنهم قد احتضنت جاليات إسلامية كبيرة، وكانت تمثل نهايات طرق القرافل، ومن ثم فإن إسلام ملك كوكو سنة 400هـ/1009م[4]، وملك تكرور سنة 431هـ/1039م[5]،لا يمكنه أن يمثل بداية التحول إلى الإسلام، ولكنه خطوة متقدمة في تحول المجتمع بأكمله نحو الدين الجديد سلطة وعامة.

ويفترض بعض الباحثين أن كبار التجار العرب والبربر كانوا يشترطون على المتعاملين معهم من التجار السودانيين الدخول في الإسلام للحصول على ثقتهم، وبالتالي تسليمهم أموالهم ليسافروا بها بعيدا في دواخل غرب إفريقيا انتظار عودتهم ليدفعوا أثمانها، وقد يستمر غيابهم لمدة أشهر[6]، ولكن هذه الدعوى لا دليل عليها، خاصة إذا إذا علمنا بأن الإسلام لا يعد من شروط عقد القراض، وإن كان الفقهاء كرهوا مقارضة الكافر ومن لا يعرف الحلال من الحرام[7]، لأن الأصل في القراض أنه عقد يتعلق بالأمانة، ومن ثم لا يبق لهذا الرأي حظ من المصداقية، خاصة إذا علمنا بأن استمرار النشاط التجاري وتطوره دليل على حالة الثقة بين الطرفين.

إضافة إلى ماسبق تمكن التجار من الوصول إلى مناصب قريبة من الملك، وصاروا ضمن حاشيته، وقد نص البكري عند حديثه عن مدينة ملك غـــانة "تنكامنين" أن تراجمته وأغلب وزرائه وصاحب بيت ماله كانوا من

---

1 - Joseph Cuoq, Histoire de L'Islamisation…, op.cit.p :49.

2- بانيكار ، المرجع السابق ، ص:495.

3- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:478.

4- السعدي ، المصدر السابق ، ص:2-3.

5- ابن حزم الأندلسي، رسالة في جمل فتوح الإسلام ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي ، تح : إحسان عباس ،ط 2،بيروت ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، دت، ج2، ص:133.

6- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:478.

7- سحنون بن سعيد التنوخي ، المدونة الكبرى ، تح : زكريا عميرات ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، دت، ج3، ص: 645.

المسلمين، كما أن الملك الذي كان قبله "بسي" (ت455هـ/1053م) كان مؤثرا لهم على غيرهم [1]، وهذا ما سمح للتجار بالتأثير على محيط الملوك وعلى الملوك ذاتهم، وبسبب المكانة الرفيعة للطبقة الحاكمة عند السودانيين كان يعتبر إقناع أحدهم بالإسلام مكسبا عظيما في مسار انتشار الدين الحنيف بالمنطقة، لأن الرعايا كانوا يتبعون ملوكهم [2]، خاصة مع ما يعرف عن الشعوب البدائية من تقدير كبير لشيوخها وأعيانها، وصل في بعض الحالات إلى نوع من أنواع التقديس و العبادة.

و لم يقتصر التأثير الثقافي للتجار على إسهامهم في انتشار الإسلام بالمناطق التي حلوا بها، بل إنهم حملوا أيضا الطراز المعماري الإسلامي عندما أسسوا لأنفسهم منطقة خاصة في مدينة غانة، حيث تدل الحفريات التي أجريت في كومبي صالح أن مدينة المسلمين كانت مبنية على الطراز المغربي، ويبدو أن بناء مدينة على هذا الطراز داخل السودان الغربي، سيفرض نفسه كنموذج معماري راق، والتأثر به هو الذي قاد في مراحل لاحقة إلى طراز معماري يجمع الخصائص السودانية مع المؤثرات المغربية [3].

ج- دور الدعـــــاة:

يحيل شح المادة المصدرية المتعلقة بالموضوع إلى أن عدد الدعاة الذين كانوا يشاركون في النشاط التجاري كان قليلا، وقد ندلل على ذلك بعجز أبي عمران الفاسي عن إيجاد من يرافق يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الصحراء من طلبته بالقيروان، لأجل مشقة السفر البعيد والانقطاع في الصحارى [4]، فطابع حياة الفقهاء وطلبة العلم لم يكن يساعد على القيام بمثل هذه المغامرات، وقد وصف الجدالي المستوى العلمي لبعض من يصل الصحراء من طلبة العلم، أنهم معلمون لا ورع ولا علم بالسنة عندهم [5]، ولكن هذا لا يعدو أن يكون الحالة الغالبة وليست الدائمة، إذ أن المصادر تؤكد لنا مشاركة بعض هؤلاء في التجارة العابرة للصحراء، وإسهامهم الكبير في تحقيق التحولات الثقافية بالسودان الغربي.

لقد وصف البكري الجزء الإسلامي من مدينة غـــانة قائلا: "لها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهـــاء وحملة علم"، وهو مـــا يبرز حضورا دعويا بارزا، إذ أن هؤلاء قد يكونون قـــادمين بغرض التجـــارة،كمـــا أن بعضهم قد يكون دافعه الأساسي العمل على نشر الإسلام في المنطقة، وقد رأى بعض الباحثين أن كبار التجار المستقرين في المدن السودانية هم الذين عملوا على استقدام الفقهاء من أجل القيام بالدور التعليمي، ووفروا لهم

1- البكري، المصدر السابق ،ج2، ص:363،362.

2- عبد القادر زبادية ،"ملامح الحركة التعليمية في تومبكتو خلال القرن السادس عشر "، الأصالة ،53(1978)، ص:9.

3- محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة ، بيروت، دار الكتب العلمية ،2007،ص: 73.

4- البكري، المصدر السابق،ج2، ص:352. ابن عذارى ، المصدر السابق ،ج4، ص:8. ابن أبي زرع ،المصدر السابق ، ص:123.

5- المصدرنفسه ،ج2، ص:352.

لأجل ذلك ما يحتاجونه، وصرفوا لهم رواتب من أجل التفرغ لما استقدموا إليه[1]، ومع أننا لا نجد في مصادر الفترة المدروسة ما يدعم ذلك، فإنه لا يبدو مستبعد الوقوع.

وقد كان الدعاة من الجاليات الإسلامية ببلاد السودان يتوجهون بالدرجة الأولى إلى الملوك ورؤساء العشائر الذين كانوا يستقرون بالقرب منهم، ويربطون بهم علاقات صداقة، ويبذلون جهودا كبيرة من أجل إقناعهم باعتناق الإسلام، كما كان أولئك الدعـــاة يحرصون كلمـــا سنحت لهم الفرصة، على تربية أبنـــاء أولئك الملوك والرؤساء وفقا لتعاليم الإسلام وينشئونهم عليها[2].

ومن أبرز النماذج التي تبين دور الدعاة في نشر الإسلام في السودان الغربي قصة إسلام ملك ملل التي ذكرها البكري في مسالكه والتي ورد فيها :

" ملل، ملكهم يعرف بالمسلماني، وإنما سمي بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولا يزدادون إلا قحطا وشقاء، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن و يعلم السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال له: أيها الملك، لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك، وأن تعم الرحمة أهل بلدك، وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوئك، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه، وعلمه من الفرائض والسنن مالا يسعه جهله، (...) فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتم به فصليا من الليل ماشاء الله، والمسلم يدعو والملك يؤمن، فما انفجر الصباح إلا والله قد عمهم بالسقي، فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكوهم مذ ذاك بالمسلماني"[3].

وهذا النص فضلا عن دلالته الواضحة في تمكن هذا الفقيه من إدخال ملك ملل في الإسلام، في تاريخ غير محدد في النصف الأول من القرن 5هـ/11م[4]، فإنه يشير إلى وجود نشاط دعوي في مدن مشركة في دواخل بلاد

---

[1]– عطية مخزوم الفيتوري ،المرجع السابق ، ص:105-106.

[2]– سحر عنترمحمد أحمد مرجان، فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي(628-1000هــ/1230-1591م)، القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية،2011،ص:46.

[3]– البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:366- 367. وقارن ذلك بما عند :المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك ، تح:جمال الدين الشيال ، بورسعيد ، مكتبة الثقافة الدينية، 2000، ص:140-141. ولاريب أن نص البكري أولى بالتصديق من رأي الذي يرى أن أول من أسلم من ملوك ملل هو برمندانة/سرمندانة مطلع القرن 8هــ/14م، كما لا يمكن اعتبار هذا الأخير هو المسلماني ذاته كما ذهب إليه دولافوس، لأن برمندانة هو المؤسس الثاني في وقت كان الإسلام قد شمل مناطق عديدة بالسودان الغربي.

[4]– يرى دولافوس أن ذلك وقع سنة 442هــ،أنظر
Maurice Delafosse, Haut- Sènègal-Niger,T2, op.cit.p:175.
Maurice Delafosse, Les noire De L’Afrique, op.cit.p:48.

السودان، إذ أن مدينة ملل تبعد عن مدينة غانة بـــ 12 مرحلة إلى الجنوب حسب الإدريسي [1]، فهـــذا الفقيه قد وصف بكونه يقرأ القرآن ويعلم السنة، وهي إشارة إلى عدم ضيق ملوك بلاد السودان من النشاط الدعوي الإسلامي، وهو ما يسمح لهؤلاء بحرية العمل على تحويل الناس نحو الإسلام، بل إن رواية الدرجيني لهذه القصة تبرز المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها هذا الفقيه عند ملك ملل، الذي كان يتعجب من خلقه وخلقه وقلّما جلس مجلسا إلا أجلسه معه إكراما له[2].

كما أن النص يحيل إلى أن الطبقة الأرستقراطية الحاكمة هي التي كانت سباقة إلى اعتناق الإسلام، وأنها لم تعمل دائما على فرضه بالقوة على رعيتها، ولكن مجرد تبنيها له وحمايتها لدعاته مثّل دعامة كبيرة لاستمرار الانتشار التدريجي له، ولاشك أن القصة رغم إمكانية وجود حبكة مقصودة فيها، فإنها تتماشى مع التطور الذي عرفه الوجود الإسلامي في مدن السودان الغربي، ولذلك فلا داعي للتشكيك في وقوعهـــا كما ألمح إلى ذلك كيوك (J.Couq) في تعليقه عليها[3].

ومن الدلائل عند البكري عن وجود الفقهاء ببلاد السودان، أن أحدهم كان من مصادر رواياته التاريخية عن المنطقة، وهو الفقيه الأندلسي أبو محمد عبد الملك الذي سافر إلى مدينة بوغرات[4]، ويبدو أنه قد دخل مدنا غيرها، لأنها لا تعدو أن تكون مدينة صغيرة في الطريق بين غانة وتادمكة تسكنها قبيلة مداسة الصنهاجية .

وقد بلغ من إجلال الناس للدعاة المعلمين ببلاد السودان، أنهم كانوا يجولون في مختلف الممالك والمدن دون أن يتعرض لهم أحد، حتى لو انتقلوا بين ممالك لا يعادي بعضها بعضا فقط، بل توجد بينها حالة حرب، ذلك أنهم كانوا محترمين جدا، خاصة وهم يمثلون العلم في بيئة أمية جاهلة، ولذلك كانت نظرة الإعجاب والإجلال والتوقير ترافقهم أينما حلوا، سواء في المناطق التي وجدت بها جالية إسلامية، أو في المناطق الوثنية الخالصة[5].

لقد كان لانتظام المسالك التجارية بين ضفتي الصحراء أثر بالغ في التغيير التدريجي للمعتقد السوداني من الوثنية إلى الإسلام، مع ما ينجر عن ذلك من تحولات ثقافية عديدة، ذلك أنه مهد الطريق أمام الفقهاء والدعاة

[1]- الإدريسي ، المصدر السابق ،ج1،ص:22-23.

[2]- الدرجيني ،المصدر السابق ،ج2،ص:517-518.

[3] - Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:103.note.1.

[4]- البكري، المصدر السابق ،ج2، ص:370.

[5]- توماس أرنولد ، المرجع السابق ، ص: 392، و عن الجاليات الإسلامية ببلاد السودان الغربي ودورهم الثقافي أنظر : مسعود خالدي، الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء (السودان الأوسط والغربي) بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين /الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين، أطروحـــــــة دكتوراه، إشراف مسعـــــود مزهودي، جـــامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2009. يوسف عابد، الاتصالات والهجرة العربية المغربية إلى بلاد السودان الغربي خلال عهد الموحدين الأول (541-595هـــ/1146-1199م)، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية،13(2012)،ص:419-433.

المسلمين لارتياد المراكز التجارية والمدن السودانية، ولكننا ينبغي أن نشير إلى أن هذا التحول لم يكن سوى ظاهرة متسعة المجال لكنها محدودة التمركز ومخصوصة التأثير، لأنها كانت مقتصرة غالبا على المراكز التجارية، و لم تتوغل إلى المناطق الزراعية التي لا تعتمد على النشاط التجاري، كما أن قلة عدد الدعاة وجهلهم بمناطق البلاد وأحوالها فضلا عن اختلاف لغة التواصل، حد من فعاليتهم و أعاق مهمتهم[1].

ومن ثم، فإن خريطة انتشار الإسلام بالسودان الغربي قبل قيام الدعوة المرابطية هي نفس خريطة الطرق التجارية، وأن فاعلية التأثير التعاملي من التجار والدعوي من الفقهاء كان مرتبطا بالنشاط التجاري، و لم يكن مستقلا عنه[2]، وهذا كله قبل أن ينتقل السودانيون ذاتهم إلى دعاة للإسلام بعدما اعتنقوه وفهموا آدابه وأحكامه، وكان هذا أحد أهم الإنجازات التي حققها الإسلام بالمنطقة.

وإذا كانت هذه المقاربات والتخمينات قد سمحت لنا ببيان الدور الذي قام به مجال صنهاجة الصحراء في التحولات الثقافية بالسودان الغربي، من حيث كونه معبرا لهؤلاء التجار والدعاة الذين أثروا في السودانيين ودفعوهم إلى تبني العقائد والأحكام والآداب الإسلامية، فهل توفر لنا المادة المصدرية معطيات تسمح لنا بإبراز دور الملثمين كأفراد وقبائل وأحلاف في نقل التحولات الثقافية التي عرفوها إلى جيرانهم الجنوبيين قبل قيام الدعوة المرابطية؟.

[1] – أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني، مرجع السابق ، ص:93.

[2] – الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:488.

2 – دور الملثمين الثقافي ببلاد السودان قبل قيام دولة المرابطين.

لا شك في أن الحديث عن دور ثقافي للملثمين ببلاد السودان قبل قيام دولة المرابطين التي جددت دينهم ورسخت الإسلام بأحكامه وآدابه في المجال الصحراوي، يعتمد على ما قدمناه سابقا عند الحديث عن التحول الثقافي التدريجي الذي شهدته صنهاجة الصحراء، وهو ما يؤكد أن هذا الدور لم يكن واضحا، كما أنه لم يكن منظما، ولكن ذلك لا يمنع من تقديم بعض المقاربات التي تعتمد على محاولة القيام بقراءة عميقة للمادة المصدرية الشحيحة من خلال ربطها بالجوانب الاقتصادية و الجغرافية وغيرها.

أ– دور اللغة:

تعتبر اللغة أهم أداة في التواصل الثقافي بين الشعوب، لأنها الوعاء الحامل لمختلف القيم والأفكار والمبادىء، ولا يمكن ممارسة نشاط تثقيفي دعوي في أي مجتمع من المجتمعات إلا من خلال التواصل اللغوي معه، ولذلك اعتبر الباحثون إشكالية اللغة أحد أهم معوقات انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية، لأن هذه المناطق لم تتبنى اللغة العربية، بل حافظت على لغاتها ولهجاتها المتعددة [1]، وهو ما يجعل صنهاجة الصحراء تمثل وسيطا هاما لتبليغ

[1]– يوجد في غرب إفريقيا العديد من اللغات تنتمي إلى مجموعات متعددة، أهمها: مجموعة كوا: وتشمل أكثر من 300 لغة ، المجموعة الفولطية: وتحتوي على أكثر من 70لغة ، المجموعة الأطلسية الغربية: وتشتمل على ما يربو عن 40لغة، المجموعة الماندية: وتضم ما يزيد عن 20لغة، ولا شك بأن الكثير من التفاعلات السابقة في هذا المجال قد أسهمت في تبلور هذه اللغات التي تعود جذورها إلى فترات سابقة. أنظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور،ط4، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2008،ص:109.

الإسلام، بحكم معرفة بعض أفرادها باللغات السودانية، وقدرتهم على تأدية دور الوسيط بين المسلمين القادمين من بلاد المغرب والسودانيين.

ولذلك يمكننا القول بأن ما ذكره البكري عن غانة، من أن تراجمة الملك وأغلب وزرائه وصاحب بيت ماله من المسلمين[1]، قد يحيل إلى كونهم من صنهاجة الصحراء، ذلك أن هؤلاء فقط وبحكم قربهم من المجال السوداني وتعودهم على معاملة السودانيين، كان يمكنهم فهم لغتهم والتواصل معهم من خلالها، أو من خلال لغة تجارية هجينة تمزج لغتي صنهاجة الصحراء والسودان الغربي، وقد استطاع الملثمون الحفاظ على دور المترجمين في الممالك السودانية اللاحقة، بل مثلوا هذا الدور حتى في الوفود الملكية عالية المستوى مثل وفد ملك مالي منسى موسى (712-737هـ/1312-1337م) إلى السلطان أبي الحسن المريني (731-749هـ/1331-1348)[2]، وهو ما يمكننا من القول إنهم قاموا بهذا الدور منذ البدايات الأولى للوجود الإسلامي بالحواضر السودانية.

وتبدو قضية اللغة من القضايا التي أغفلتها المصادر عندما أرخت للعلاقات بين ضفتي الصحراء، ولا شك أن الانتباه إلى أهميتها يدفع إلى الاعتقاد بالدور الكبير الذي قام به الملثمون في نشر الثقافة الإسلامية ببلاد السودان، قبل أن تنتشر اللغة العربية كلغة دينية وتعليمية وإدارية بالمنطقة، ذلك أن التجار المسافرين إلى هذه المنطقة دون أن يستوطنوها لا يمكنهم تعلم لغتهم وتبليغ رسالة الإسلام من خلالها، مع ما يعرف عن التاجر عادة من الانصراف في معظم الوقت إلى أعماله التجارية، كما أن الجاليات المستقرة يعتقد أنها كانت تسعى إلى تعليم اللغة العربية أكثر من سعيها إلى تعلم اللغات المحلية، ويمكننا أن نستدل على ذلك بحالة بلاد المغرب الإسلامي.

وربما كان الانتباه إلى هذه المسألة هو الذي دفع بالمؤرخ الأفريقاني كي زيبرو (ki- zerbo) إلى القول بأن الفقيه الذي أقنع ملك مدينة ملل بدخول الإسلام هو أحد فقهاء قبيلة لمتونة[3]، وهو تخمين لا يبدو بعيدا لمن يستحضر إشكالية اللغة في التواصل الثقافي.

ب- المساجد والعمران:

يعد المسجد بالنسبة للمسلمين، بالإضافة إلى دوره التعبدي، مركز الإشعاع الفكري، ومنطلق النشاط الثقافي، فقد كان يؤدي الدور التعليمي، من خلال القيام بتعليم القرآن واللغة العربية وغيرهما من العلوم الشرعية والعقلية،

[1]- البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:363. وقد رأى بعض الباحثين أن صاحب بيت مال ملك غانة هذا هو الذي أدخل للمملكة نظام الضرائب العينية على البضائع المصدرة والمستوردة، نظرا لعدم وجود النقد المسكوك ، أنظر: محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق،ص:72.

[2]- ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج7، ص:352.

[3]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:485-486.

وكانت كثرة المساجد والمعلمين دلالة على الرقي المعرفي، وتمسك السكان بالآداب والقيم الإسلامية، وحرصهم على التفقه في الدين والإطلاع على مختلف العلوم، والمشاركة في الحراك الفكري.

إن أكبر ما يدلل على التحولات الثقافية التي شهدتها صنهاجة الصحراء قبل قيام دولة المرابطين، ما أشارت إليه المصـــادر عن الوضع الديني بمدينة أودغشت حـــاضرة الملثمين، فقد نص المهلبي (ت 380هـ/990) بأن"أهلها مسلمون يقرؤون القرآن ويتفقهون، ولهم مساجد وجماعات"[1]، كما وصفها البكري قبل أن يدخلها المرابطون بأن"بها جامع ومساجد كثيرة آهلة، في جميعها المعلمون للقرآن"[2].

ويبدو أن هذا الحضور للمساجد والفقهاء ووجود نشاط تعليمي بأودغشت قد أثر على السودانيين، خاصة السوننكة الذين سيطروا على المدينة في نهاية القرن 4هـ/10م، واستمرت سيطرتهم عليها أكثر من نصف قرن، ويبدو أن هذا التعرف على الإسلام في أودغشت من قبل السوننكيين هو الذي يبرر قبولهم بوجود جالية إسلامية كبيرة في مدينة غانة، والسماح ببناء المساجد ونشاط الفقهاء وطلبة العلم، فقد ضم الجزء الإسلامي من مدينة غانة إثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه، وضمت مدينة الملك مسجدا واحدا[3]، ما يشير إلى أن مدينة أودغشت مثلت نموذجا لغانة التي وجدت في الإسلام الدين المنظم لحياة الناس، والحافظ لحقوقهم، والضامن لاستمرارهم كأمة متميزة عن غيرها، وبالتالي يمكننا القول إن احتلال غانة لأودغشت تعد من النماذج التي تأثر فيها الغالب عسكريا بالمغلوب، لأن هذا الأخير كان غالبا له فكريا وحضاريا.

وقد رأى جون سورث (Jean Suret) أن تأسيس الحواضر السودانية ذاتها لا يعدو أن يكون أحد مظاهر تأثير صنهاجة الصحراء في جيرانها، إذ أن اتصال الملثمين بالمغرب الإسلامي جعلهم يتعرفون على نظام المدينة والمؤسسات الإدارية التي تحتاجها، وينقلون ذلك إلى الصحراء، فلفت ذلك نظر الزعماء السود وعملوا على تقليده، وهوما يجعل أودغشت ملهمة لكل الحواضر السودانية، وسبب تبلور نظام اجتماعي وسياسي في بلاد السودان الغربي[4]، ولأن أودغشت ذاتها هي علامة التأثر الصحراوي بالحواضر المغربية الإسلامية، فهذا يجعل منها وسيطا في حركة التأثير المغربي في السودان الغربي.

ج- المثاقفة عبرالمجال:

---

[1]- المهلبي ، المصدر السابق ، ص:46.

[2]- البكري، المصدرالسابق،ج2،ص:344.وانظر صورة مسجد أودغشت الذي كشف عنه التنقيب الأثري في الصورة رقم 1ص:132.

[3]- البكري، المصدر السابق، ج2،ص:363.

[4]- محمد الغربي ، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، الكويت ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، 1982، ص:29. وانظر بعض المنازل التي كشف عنها التنقيب الأثري في أودغشت في الصورة رقم2ص:132من هذه الدراسة.

لقد كان قرب بعض مجالات صنهاجة الصحراء من بلاد المغرب، وتعاملها التجاري مع سكانه هو السبب الرئيسي لانتشار الإسلام في صحراء الملثمين كما سبق بيانه، وهذا ما تكرر بين صنهاجة الصحراء والسودان الغربي، حيث كان للتداخل بين المجالين الغربي دور كبير في التحول الثقافي نحو الإسلام لدى السودانيين، وقد لاحظنا في الفصل الأول أن هذا التداخل يمتد على طول المجال الجغرافي بينهما من الشرق إلى الغرب، وهو ما يفسر لنا أسبقية الشعوب السودانية الواقعة على الشريط "الحدودي" إلى اعتناق الإسلام.

ورغم امتلاكنا دلائل على وجود حالة من الحرب بين الحلف الصنهاجي ومملكة غانة الوثنية، فإن ذلك لا يمثل كل المشهد في الفترة التي سبقت قيام دولة المرابطين، بل ربما كانت تمثل الاستثناء من القاعدة، ومما يبرز كون العلاقة السلمية كانت غالبة على حالات التوتر، مـــا أشـــار إليه البكري من قصة المهـــاداة بين أحد ملوك مدن السودان (مملكة الفرويين) وبين ملك من ملوك المسلمين المجاورين له –لا شك أنه أحد زعامات قبائل صنهاجة الصحراء– وقد سمحت هذه الصلات الطيبة للملك السوداني بالإطلاع على الأحكام الإسلامية المتعلقة بالزواج رغم وثنيته[1]، ومن ثم فإن طبيعة العلاقات كانت تسمح بالمثاقفة، ولا ريب أن الإسلام الذي هو دين صنهاجة الصحراء كان قادرا على التأثير في القبائل السودانية الملتزمة بديانات وثنية تقليدية.

فمدينة كوكو التي انتشر بها الإسلام قبل نهاية القرن 4هـ/10م حسب نص المهلبي[2]، كانت شهدت هجرة لقبيلة لمطة الصنهاجية منذ القرن 2هـ/8م، وبالتالي حدث اختلاط لمطة الصنهاجية بشعب السنغي، سهله جوارهما ومعرفة كل منهما بتقاليد وأعراف الآخر، وهو ما قاد إلى انتقال الإسلام من الملثمين إلى السنغي [3]، وصار دين الملك والرعية على حد سواء، بل أشار البكري في نص غامض إلى أنهم يتبعون أمير المؤمنين، دون أن يحدد الأمير المقصود، هل العباسي أم الفاطمي؟[4]

كما أن التكرور بحكم قربهم من مجال قبيلة جدالة كانوا من الشعوب السودانية الأولى التي اعتنقت الإسلام، بل وعملت على نشره من خلال إعلان الجهاد على المدن الوثنية المجاورة لها، ومع أن المصادر لا توفر لنا مادة تاريخية تدلل على هذا التأثير، فإن الأهمية الكبيرة لملح أوليل الواقع في مجالها بالنسبة للتكروريين، تجعل من التواصل

---

[1]– البكري ، المصدر السابق ، ص: 361–362. والرواية بتمامها عند البكري أن " مملكة الفرويين، من غريب ما فيها نبات أصوله أبلغ شيء في تقوية الباءة و العون عليها ، وقد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدايا نفيسة ، واستهداه شيئا من هذا النبات فعارضه على هديته وكتب إليه يقول : إن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا قليل ، وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء ألا تقدر على إمســـاك نفسك فتأتي بما لا يحل لك في دينك ، ولكني قد بعثت إليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له ".

[2]– المهلبي ، المصدر السابق ، ص: 55. ومن ثم فاعتماد يوسف كيوك على الرواية الشفوية المتأخرة التي دونها السعدي والقول أن بداية انتشار الإسلام في المنطقة تأخر إلى القرن 5هـــ/11م يعد قولا مردودا .Joseph Cuoq, Histoire de L'Islamisation…, op.cit.p:133-134

[3]– النابي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:482.

[4]– البكري ، المصدر السابق ،ج2، ص:372–373.

مع جدالة أمرا مستمرا، وهو الذي دفع بكيوك (J.Couq) إلى اعتبار هذه القبيلة المساهم الأكبر في انتشار الإسلام ببلاد التكرور[1].

ويؤيد هذا الرأي ماذهب إليه الباحث السنغالي عمار صامبي (Amar Samb) عندما أكد بأن دور صنهاجة الصحراء لم يقتصر على نشر الإسلام في حوض نهر السنغال، وإنما تجاوز تأثير تلك المجموعة ذلك الحد، إلى أن أعطت اسمها للنهر الذي كانت التكرور تقع حوله، وأن اسمها حرف عبر الزمن من صنهاجة إلى صنغانة إلى السنغال[2].

و إذا كان بعض الدارسين اعتبر أن "صنهاجة الصحراء قبل المرابطين لم يكونوا في وضع يمكنهم من نشر دين يجهلونه"[3]، اعتمادا على الروايات التي تصور صنهاجة الصحراء في صورة جاهلية قبل دعوة عبد الله بن ياسين، فإنه يمكن القول إن هؤلاء الملثمين قد أسهموا في نشر الإسلام بالصورة البسيطة التي كانوا يفهمونه بها، ولا شك في أن هذه الصورة رغم ما يشوبها من القصور، وما يلم بحامليها من التقصير، كانت قادرة على منافسة عبادة الثعابين والأسماك والموتى والأصنام والأشجار وتقديس السحرة والأسلاف.

وكما لا يمكن أن يدّعى بأن صنهاجة الصحراء كانوا يمثلون الإسلام في نقائه، فكذلك الإسلام الذي اعتنقه السودانيون في هذه المرحلة، فلا شك في أنه كان لا يزال مختلطا بالكثير من الطقوس الوثنية، و يفتقد إلى الفهم السليم لعقائده وأحكامه وآدابه، وهو ما يتيح لنا القول أن صورة هذا الإسلام السوداني المبكر تجعل من دور صنهاجة الصحراء في نشره أكثر من أي دور آخر.

مما سبق، يمكننا تفسير التطور الذي عرفته الدعوة إلى الإسلام في غرب إفريقيا خلال الفترة السابقة لقيام حركة المرابطين، بازدياد الحماس الديني عند قبائل الملثمين تدريجيا، وساعد الموقع الجغرافي لصنهاجة الصحراء ودور الوسيط التجاري بين ضفتي الصحراء الذي تمرست فيه طوال قرون عديدة، بأن تكون هذه القبائل هي الأداة الأنجع لنقل المؤثرات الثقافية بين المنطقتين ، بما فيها نشر الإسلام[4].

بل إن حسن أحمد محمود ذهب إلى القول بأن انتشار الإسلام في غرب إفريقيا كان يتوقف على اعتناق الملثمين له، وتبنيهم لمبدء الدعوة له والجهاد في سبيله [5]، وذلك لمعرفتهم أكثر من غيرهم بالشعوب السودانية وجوارهم لبلدانها، ومعرفة بعضهم للغاتها وعاداتها الوثنية ودرايتهم بالطريق الأنسب لدعوتهم للتخلي عن الوثنية

---

[1]-Joseph Cuoq, Histoire de L'Islamisation…, op.cit.p:43.

[2]- النابي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:383-384.

[3]- عز الدين عمر موسى ، دراسات إسلامية غرب إفريقية ، مرجع سابق ، ص:24.

[4]- النابي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:488.

[5]- حسن أحمد محمود ، الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا ، مرجع سابق ، ص:202.

لصالح الإسلام، فضلا عن الصلات الاجتماعية التي كانت تربطهم ببعض تلك الشعوب والتحالفات التي كانت تجمعهم مع بعضها الآخر، ما يسر لهم التواصل معهم والتأثير فيهم [1]، وبالتالي كان صنهاجة الصحراء هم الوسيط الذي انتقل من خلاله الإسلام من بلاد المغرب إلى السودان الغربي.

وإذا كان دور صنهاجة الصحراء في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بالسودان الغربي قد بدأ باكرا، وانتقل من دور جغرافي كمجال ناقل لهذه الثقافة من الشمال إلى الجنوب، إلى إسهام مباشر من قبل الأفراد والقبائل الصنهاجية في الصحراء، فإن هذا الدور سيبرز بصورة أوضح مع قيام الدعوة المرابطية ودولتها، التي جعلت من هذه القبائل الصحراوية سادة المغرب والأندلس بل والسودان عند من يسلم بالغزو المرابطي لمملكة غانة.

3- الدور الثقـــافي للمرابطين ببـــلاد الســـودان.

- توطئة:

يتفق جـــل الدارسين للتحولات الثقافية ببـــلاد السودان الغربي أن الدور الأكبر في حدوثها يعود لقيـــام دولـــة المرابطين، فكمـــا كـــان لهذه الحركة الدور الأبرز في تجديد الإســـلام بصحـــراء صنهاجة وصبغه بالصبغة السنية المالكية، كـــان لهـــا أهمية كبيرة في ترسيخ الإسلام بالسودان الغربي ونقله من مجرد ظـــاهرة تخص المدن والطبقة الحـــاكمة ومحيطهـــا، إلى ظاهرة متسعة نحو المناطق الزراعية والقرى الصغيرة وأطراف بلاد السودان، بعيدا عن مراكزها الأساسية التي تمثلها المدن "العواصم"، ومعهم بدأ التحول التدريجي من الإسلام كدين ومعاملة، إلى التمذهب ووصول الآراء الفقهية والكلامية، ومع أن هذا الأمر لا يبرز بجلاء في المصادر إلا منذ القرن 8هـ/14م ،إلا أن بذوره يمكن العودة بها إلى القرن 5هـ/11م.

ولأن دعوة المرابطين ودولتهم بدأت في مجالات صنهاجة الصحراء، ثم شملت مساحات كبيرة من المغرب الإسلامي، واحتفظت بعلاقات وطيدة مع بعض الممالك السودانية مثل زافون وكوكو، فإنها دمجت المغرب والصحراء ومناطق من بلاد السودان في منظومة فكرية واحدة، وعزز ذلك بروز مظاهر تمسك السودانيين بالثقافة الإسلامية، ووصلت إليهم مؤثرات من أقصى المجالات الشمالية لدولة المرابطين (الأندلس).

---

[1]- النايي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:488.

وإذا كانت الكثير من الدراسات ربطت هذا التأثير المرابطي بالعامل الجهادي، من خلال التسليم بروايتي الزهري وابن أبي زرع بغزو المرابطين لغانة وإسقاط عاصمتهم، وهو ما لا يمكن مناقشته باستفاضة في هذا الموضع، فإنني لن أجعل هذا العامل هو المؤثر الأكبر وإن كنت لا أنفه مطلقا، ولكن يمكن القول إن التأثير السلمي كان أوضح وأقدر على التدليل عليه.

أ- دور رباط عبد الله بن ياسين:

بدأت التأثيرات الثقافية المرابطية تصل إلى بلاد السودان منذ تأسيس ربـــاط عبد الله بن ياسين، وتدشينه لنشاطه الدعوي وإصلاحه لأوضاع صنهاجة الصحراء فقد"اشتهر ذلك ببلاد السودان" [1]، حيث تســـامعوا بعدله وإقامته للكتاب و السنة [2]، ويمثل موقع رباط ابن ياسين أهمية كبيرة في هـــذا المجال، إذ أن بعض الدراسات لا تسلم بكون الرباط كان في إحدى جزر المحيط الأطلسي — وهي القراءة الأكثر شيوعا لرواية ابن أبي زرع - بل في جزيرة يحيط بها نهر السنغال [3]، ومن ثم فإن ابن ياسين مارس نشاطه التعليمي في المجال السوداني، وبالضبط في بلاد التكرور، و لذلك اعتبر البعض إسلام أهل التكرور كان على يديه، [4] والمقصود بذلك أن الإسلام صار دين مملكة التكرور الرسمي، لأن إسلام وارجابي بن رابيس ملكهم تم سنة 431هـ/1039م[5]،ولعل إسلام التكرور على يد المرابطين هو ما يبرر تحالف ملكهم مع زعامة الحلف الصنهاجي بقيادة لمتونة ورئيسها يحيى بن عمر اللمتوني في مواجهة قبيلة جدالة[6]، كما يدل على ذلك نص البكري[7].

ولعل رباط ابن ياسين يفسر وجود أنماط شبيهة له إلى الآن في كل من السنغال ومالي والنيجر إلى غاية نيجيريا، والذي سمي في المراحل اللاحقة بـــ:"المحضرة"، أو الجامعات التقليدية في الغرب الإفريقي، فالمحضرة في أصلها مجتمع ثائر يحاول فرض الدين على الناس، ومن ثم كان هذا الرباط أول معهد علمي تقليدي سمح للسودان

---

[1]- ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص: 126. وتجدر الإشارة هنا إلى أن وجود الرباط ذاته يعتبر مثار جدل بين الباحثين، إذ هناك من يفسر الرباط بمدلوله اللغوي الجهادي الذي هو حبس النفس في سبيل الله جهادا ودعوة، وليس مكانا جغرافيا معينا اعتزل فيه ابن ياسين مع أتباعه ، خاصة وأن الرواية عنه متأخرة ، فقد وردت عند ابن أبي زرع و لم ترد عند البكري الذي عاصر قيام هذه الدعوة، ونقل الكثير من تفاصيل مرحلتها الصحراوية.

[2]- ابن أبي دينار ، المصدر السابق ، ص:103.

[3]- النابي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:229-232.

[4]- عبد الله مقلاتي ومحفوظ رموم، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية ،الجزائر ،دار الشروق2009 ، ص:13.

[5]- ابن حزم الأندلسي ، المصدر السابق ،ج2، ص:133.

[6]- Adamou Aboubacar, op.cit.p: 9.

[7]- البكري ، المصدر السابق ، ج2، ص:354-355.

بالتفقه على يد أحد الفقهاء المالكية الكبار [1]، وجعل فهمهم للإسلام يتجاوز الفهم السطحي إلى التعرف على العقائد والأحكام و الآداب.

كما يمكننا الاستدلال على أثر عبد الله بن ياسين ببلاد السودان، بتشددهم في تطبيق بعض الأحكام التعبدية، فقد ورد عند ابن بطوطة أن من" أفعال السودان الحسنة (...) مواظبتهم للصلوات والتزامهم بها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة و لم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام، ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد، (...) ومنها لباسهم البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة "[2].

كما أشار ابن بطوطة إلى عنايتهم بحفظ القرآن الكريم قائلا : وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظون، ولقد دخلت على القـــاضي يوم العيد وأولاده مقيّدون، فقلت له: ألا تسرحهم ؟ فقـــال:لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، ومررت يوما بشاب عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: مافعل هذا ؟أقتل؟ قيل لي: إنما قيّد حتى يحفظ القرآن[3].

ومع أن نص ابن بطوطة متأخر عن الفترة المدروسة، إلا أن الباحثين ربطوا بين هذا الحرص على أحكام الإسلام وأسلوب التربية الذي اتبعه عبد الله بن ياسين مع صنهاجة الصحراء في بداية حركة المرابطين، حيث كان يعاقب على التخلف عن صلاة الجماعة ولا يسمح للملثمين بالصلاة فرادى، وبتعاليم المذهب المالكي الحريصة على التطبيق الدقيق للأوامر الشرعية والذي كان مذهب المرابطين، وبالتالي اعتبر الباحثون هذه الصورة التي نقلها ابن بطوطة صورة من صور التأثير الثقافي المرابطي ببلاد السودان [4]، ومع أن دور الحواضر الصنهاجية في الصحراء أظهر في تبني السودانيين للمذهب المالكي، إلا أن بذوره تعود إلى هذه المرحلة.

لقد مثل رباط عبد الله بن ياسين أهم معالم الوحدة الثقافية بين الشمال و الجنوب، و يمكن اعتباره علة وجود الإسلام السني ببلاد السودان، وبذرة المذهب المالكي في المنطقة، وبالتالي كان الرباط يمثل بدايات الصهر بين

---

[1]- عمر محمد صالح الفلاني ، المرجع السابق ، ص:44-45،128.

[2]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:698.

[3]- المصدر نفسه ، ص:698.

[4]- عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق ، ص:148-149.

المجتمعين السوداني والصحراوي، وهو التمازج الذي استمر بعد ذلك، وقاد نحو اندماج كامل بين المنطقتين التي عرفت بعد ذلك وحدة عصية على الانفصام[1].

ب- الدور الدعوي لأبي بكر بن عمر والإمام الحضرمي:

رغم الأهمية الكبرى لرباط ابن ياسين في تعزيز الإسلام بالسودان الغربي فإن لعودة أبي بكر بن عمر الثانية للصحراء بعد سنة 460هـ/1067م أهمية لا تقل عن دور الرباط، ففي أحد النصوص السودانية المتأخرة ينسب الشيخ سيد محمد بن الشيخ أحمد بن سليمان كل قبائل"الزوايا"- وهي القبائل المختصة في التدريس ونشر العلم- إلى الجيش الذي دخل به أبو بكر بن عمر المنطقة،[2]وهو ما يحيل إلى ازدياد التوجه نحو تحصيل العلم لدى المرابطين في الصحراء.

لقد كان لأبي بكر بن عمر اهتمامات دعوية تعليمية فقام ببث الدعاة في السودان الغربي، لجذب الناس للإسلام، خاصة بعدما استقرت الأمور في الصحراء، و لم تعد هناك حروب تشغل الفرع الجنوبي لدولة المرابطين عن التفرغ لنشر الإسلام بالمنطقة، كما أن تأمين الطريق الغربي أسهم في زيادة تدفق التجار على بلاد السودان، وتحول الملثمين إلى دعاة بعدما تحول إسلامهم من مجرد انتماء سطحي إلى فهم عميق وعلم بمقتضياته وأحكامه بسبب دعوة عبد الله بن ياسين وجهود خلفه من بعده.

كما أن الإمام الحضرمي الذي رافق أبا بكر بن عمر كان من أهم المسهمين في الحراك الثقافي بالسودان الغربي، فرغم بعد أزكي حاضرة المرابطين في الصحراء عن أهم الحواضر السودانية، فإن إشعاعها كان يصل إليها، وكانت تمثل نموذجا للحاضرة التي تهتم بتعليم الأحكام الشرعية، و تبصرة الناس بمبادىء دينهم، وأدت المكانة الكبيرة التي كان يحظى بها المرادي عند أبي بكر بن عمر ومن حكم الملثمين بالصحراء بعده، إلى تعزيز مكانة الفقهـــاء والدعـــاة والتفاف الناس حول مجالسهم و الرجوع إليهم والأخذ برأيهم.

ج- الجهـــــاد:

[1]- محمد أمين سماعيلي ، "عبد الله بن ياسين و معالم الوحدة الثقافية المغاربية الإفريقية (مواقفه جانبي الصحراء الكبرى) "، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، (مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة) ، طرابلس ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1999، ص:272-273.

[2]- عبد العزيز شهبر ،" رسوخ الهوية العربية الإسلامية في السودان الغربي" ، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، (مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة) ، طرابلس ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية 1999، ص: 40.

تحدثت بعض المصادر التاريخية عن غزو المرابطين لمملكة غانة، وسقوط عاصمتها في يد أبي بكر بن عمر، الذي تقول هذه الروايات إنه فتح من بلاد السودان 90مرحلة ليبلغ ملكه جبال الذهب جنوبا [1]، ومن ثم نصت على أن المرابطين حملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به،[2] ورغم الانتشار التدريجي للإسلام بالسودان الغربي قبل هذه المرحلة، فإن الزهري اعتبرها تمثل نقطة التحول بين الوثنية والإسلام عندما كتب عن غانة: أهل هذه البلاد كانوا يتمسكون فيما سلف بالكفر، وأسلموا في مدة لمتونة، وحسن إسلامهم، وهم اليوم مسلمون، وعندهم العلماء والفقهاء والقراء وسادوا في ذلك، وساروا إلى مكة وحجوا وانصرفوا إلى بلادهم وأنفقوا أموالا كثيرة في الجهاد[3]، مما يشير إلى أن النتائج الثقافية المحققة من خلال الجهاد تجاوزت نشر الإسلام إلى نشر الفقه والاهتمام به، و المساهمة في الجهاد لنشر الدين الحنيف في المناطق التي بقيت على وثنيتها.

إن فتح المرابطين لمملكة غانة يعني القضاء على رمز الوثنية في غرب إفريقيا، وفتح تلك المنطقة من إفريقيا أمام الدعوة إلى الإسلام، لذلك فقد بادر المرابطون بعد دخولهم إلى عاصمة غانة إلى القضاء على المعالم الكبرى للوثنية هناك، حيث بادروا إلى محق الغابة المقدسة التي كانت تأوي الإله الثعبان،كما دمروا القصر الملكي بشكل تام [4]، وربما يفسر هذا الإجراء الذي قيل تخمينا عدم عثور الأثريين على مدينة الملك التي وصفها البكري.

ويشير الزهري إلى أن غانة بعد سقوطها في يد الفرع الجنوبي من دولة المرابطين، صارت حاضرتهم ودار مملكتهم[5]، وهو ما يدل على حضور كبير لصنهاجة الصحراء بها طوال مدة السيطرة عليها، مما يسمح بالتواصل الفعال بين المسلمين والوثنين، وتعرف هؤلاء على الإسلام من خلال أشخاص كانوا قد مروا بتجربة تربوية وجهادية كبيرة، تسمح لهم بتمثيل دور الداعية البصير بدينه والراغب في نشره، بسبب العاطفة الجياشة التي كانت في أعلى درجات توترها في هذه المرحلة بالنسبة لصنهاجة الصحراء .

و لم يقتصر الدور المرابطي الجهادي على السوننك، بل يشير الزهري إلى أن المرابطين قدموا دعما للسوننك الذين صاروا مسلمين مجاهدين في غزوهم لمدينتي تادمكة ونسلا في أقصى مجال السودان الغربي شرقا، إذ ذكر بأن

[1]- ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص:135-136. ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6، ص:245،266.

[2]- ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6، ص:266.

[3]- الزهري ، المصدر السابق ، ص: 125. ابن الخطيب(منسوب له) ، الحلل الموشية ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تونس ،مطبعة التقدم الإسلامية ،1913 ، ص:7.

[4]- النابي ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:493.

[5]- الزهري ، المصدر السابق ، ص:126.

أهل هاتين المدينتين أسلموا بعد إسلام غانة بسبعة أعوام، بعد أن جرت بينهم حروب وفتن كثيرة، استعان فيها أهل غانة بالمرابطين[1].

وبغض النظر عن النقد الذي يمكن توجيهه لهذه الرواية وخاصة حول إسلام أهل تادمكة، فإنه يمكن الاستدلال بها على وقوع تحالف بين صنهاجة الصحراء والسوننك من أجل توسيع دائرة انتشار الإسلام إلى الشرق، مما يدل على أن مناطق السوننك والتكرور والفلان وغيرهم من شعوب شرق ووسط السودان الغربي، كانت قد التزمت في مجملها بالإسلام قبل استشهاد أبي بكر بن عمر اللمتوني في إحدى غزواته ببلاد السودان.

د- الأسماء العربية والخط العربي والتاريخ الهجري:

إضافة إلى التأثير الثقافي للمرابطين في مجالات التكرور وغانة ونسلا وتادمكة، فإن البحث الأثري قد أضاف لنا معطيات هامة لم تذكرهـــا المصادر الأدبية عن العلاقات بين المرابطين وبعض ممالك السودان الغربي، وما نتج عن ذلك من آثار ثقافية عززت الثقافة الإسلامية في هذه المدن ، وخاصة لدى ملوكها وأعيانها.

ومن ذلك العلاقات التي ربطت الدولة المرابطية بمملكة سنغي، والتي كانت لها آثار ثقافية هامة [2]؛ فقد اكتشف جون كامبون (Jean Chambon) سنة 1939م شواهد قبور في منطقة ساني (Saney) التي تقع على بعد 9كلم شمال مدينة جاو، وتعرض الكتابات المنقوشة على هذه الشواهد معلومات تعود الفترة مابين نهاية القرن 5هـ/11م إلى غـــاية القرن 7هـ/13م ، وتبرز مدى عمق الإســـلام بالمنطقة في هـــذه الفترة لدى المجتمع والسلطة الحاكمة على حد سواء[3].

وأقدم هذه الشواهد تعود إلى سنة 481هـ/1088م ، وتتعلق بامرأة مسلمة اسمها مكية بنت حسن الحاج، ويمكننا أن نستشف من الاسم ببساطة التأثير الإسلامي، والتزام شعيرة الحج منذ هذه الفترة، ويمكن القول إن الأب أطلق اسم مكية على ابنته بعد أدائه لهذه الفريضة، ومادامت سنة الوفاة كانت هي 481هـ ، فيمكن أن يكون أداء الحج تم في مراحل قيام الحركة المرابطية وقوتها.

---

[1]- المصدر نفسه ،ص: 125-126. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن ما أشار له عز الدين عمر موسى من القول بأن المرابطين قد أعانوا مملكة غانة غير المسلمة ضد مملكة تادمكة المسلمة غير سليم ، ولا يمكن أن ينسب مثل هذا الفعل لدولة مثل الدولة المرابطية ، خاصة وأن مثل هذا التحوير لمعلومة الزهري جاء من خلال الاعتمـــاد على معجم البلدان للحموي، وهو متأخر كثيرا عن الأحداث، ومن ثم فإن رواية الزهري على علاتها أولى منهـــا. أنظر : عز الدين عمر موسى ، دراسات إسلامية غرب لإفريقية ، مرجع سابق ، ص:47.

[2]- تدل إحدى الإشارات في تاريخ اليعقوبي أن الصلات بين صنهاجة الصحراء وشعب السنغي قديمة جدا،ذلك أنه عدّ مملكة صنهاجة من الممالك التي تتبع كوكو، أنظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ليدن، مطبعة بريل،1883،ج1،ص:220.

[3] - Dierk Lange,"Les Roi de Gao-Sane et les Almoravides" , The Journal of African History, vol.32,2 (1991),p:252 , 256.

أما الشواهد الملكية فيعود أقدمها إلى حاكم أطلق على نفسه اسم : الناصر لدين الله المتوكل على الله محمد بن عبــد الله بن راعي الــذي حدد الشــاهد تاريخ وفــاته بــ: "الاثنين الأول مــن شهر محرم عــام 494هـ"/1100م، ونلحظ بجلاء من خلال اسم هذا الملك التأثر الكبير بالإسلام من حيث تبني اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم أبيه وكنية الخلفاء أمراء المؤمنين[1].

ونفس الأمر نلحظه في الشواهد الأخرى، فالملك الثاني كتب على شاهدة قبره :" هذا قبر الملك الناصر لدين الله ، المتوكل علي الله، أبي بكر بن أبي قحافة رحمه الله، توفي ليله الجمعة، ماضي من شهر رجب تسعة عشر يوما سنه 503هـ"/1109م، بينما كتب على شاهدة قبر الملك الثالث :" هذا قبر الملك الأجل الناصر لدين لله، المتوكل على الله ، القائم بأمر الله ، والمجاهد فى سبيل الله ماما بن كما بن راعى المسمي بعمر بن الخطاب رحمة الله عليه توفى يوم الأحد سبعة عشر من المحرم سنة 514 هـ"/1120م[2].

بالإضــافة إلى شــواهد الملــوك توجــد شــواهد لنســاء من الأســرة الملكيــة أرخــت وفــاتهــن بـــ:502هـ/1108م ، 511هـ/1117م،513هـ/1119م، إحداهن حملت اسم عائشة، بينما حمل أحد القضاة المتوفين مطلع القرن 6هـ/12م اسم "القاضي يوسف" [3]، كما وجدت شواهد لأشخاص آخرين يحمل أحدهم اسم : محمد بن الجمعة، أرخت وفاته بـــ:496هـ/1102م واسمه يشير إلى التمسك بالشعائر الإسلامية، وآخر لامرأة تدعى حواء بنت محمد أرخت وفاتها سنة: 534هـ/1139م[4]، وتنبغي الإشارة إلى أن هذه الشواهد قد نقش عليها إلى جانب التعريف بصاحب القبر وتاريخ وفاته بعض الآيات القرآنية، بما يبرز عمق التشبث بالإسلام والتمسك بكتاب الله .

ولا ريب في أن التسمي باسم محمد وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعائشة، إضافة إلى كونه مظهرا بارزا في التمسك بالإسلام واللغة العربية من خلال التخلي عن الأسماء السودانية لصالح الأسماء العربية، أو الجمع بينهما، يحيل بجلاء إلى الانتماء السني للمملكة، وهو الأمر الذي يمكّننا أن نرجح فيه الدور الكبير للمرابطين في صبغ الإسلام السوداني بالصبغة السنية، وهو الدور الذي اعترف به الدارسون، بمن فيهم أولئك الذين قللوا من

---

[1] - Ibid,p:260.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن التزامي بذكر التاريخين الهجري والميلادي هو الذي دفعني إلى ذكر السنة الميلادية إلى جانب الهجرية، التي تبقى هي سنة التأريخ الوحيدة الموجودة على هذه الشواهد.

[2] - Dierk Lange, op.cit. p:260.

[3] - Ibid,p:260.

[4]- سينيكي مودي سيسوكو، "الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر"، تاريخ إفريقيا العام، منظمة اليونسكو، 1997،ج4، ص:201-202. وانظر نموذجا عن هذه الشواهد في الصورة رقم:13ص:139من هذه الرسالة.

دور المرابطين في نشر الإسلام، حيث قال عز الدين عمر موسى مثلا :"دور المرابطين لم يكن نشرا للإسلام، وإنما تجديدا له في مجتمع مسلم، لأن عقائده أو تقاليده مخالفة لآراء أهل السنة والجماعة"[1].

ومن خلال ألقاب الملوك : الناصر لدين الله والمتوكل على الله والقائم بأمر الله و المجاهد في سبيل الله، يبرز لنا الارتباط بألقاب الخلافة والصلة بالمشرق الإسلامي، إلى جانب تأكيد العلاقة الوطيدة بالدين الإسلامي، وبذل الجهد والنفس في الجهاد في سبيل نشره والقيام بتبليغ دعوته والدفاع عن أهله، وهو ما قد يحيل في هذه الفترة إلى الطابع الجهادي للدولة المرابطية خاصة بالأندلس.

ويمكننا الاستدلال على وصول هذا النشاط الجهادي المرابطي إلى هذه المناطق بالسودان الغربي، بكون شواهد القبور هذه كتبت من طرف نحات أندلسي يدعى يعيش بخط كوفي بارز، وهو ما يدل على ربط المرابطين بين كامل المجال الغربي لدار الإسلام من الأندلس إلى أواسط إفريقيا [2]، بالإضافة إلى الإسهام في نشر اللغة العربية والخط العربي بإفريقيا الغربية وتبني الأسر الملكية له، وهو من أعظم وسائل نشر الثقافة الإسلامية وتحويلها من ثقافة شفوية إلى ثقافة كتابية قادرة على التدوين، كما بينت هذه الشواهد التزام هذه المملكة بالتاريخ الهجري، وهي من المساحات التي أزاحت فيها مظاهر الثقافة الإسلامية التقاليد الوثنية التي كانت تؤرخ بالأحداث الهامة المتعلقة بتولية الملوك أو الانتصار في بعض الحروب.

وقد عمل المرابطون على إبقاء علاقات ودية مع ممالك ومدن سودانية أخرى، فقد ذكر صاحب الاستبصار أنه وقع في يده كتاب من ملك غانة إلى يوسف بن تاشفين نصه "إلى أمير أغمات ،قال غانة" [3]، و لم يتوقف الأمر على المراسلات بل تعداه إلى الزيارات، فقد ذكر ياقوت الحموي أن ملك زافون[4]ورد في بعض الأعوام إلى المغرب حاجا على أمير المسلمين ملك المغرب اللمتوني، فتلقاه أمير المسلمين راجلا و لم ينزل زافون له عن فرسه، حتى دخلا قصر أمير المسلمين[5]، ومع ما يبدو من تعالي ملك زافون على الملثمين وتواضع هؤلاء له، فهو لا يعدو أن

---

[1]- عز الدين عمر موسى ، دراسات إسلامية غرب إفريقية ، مرجع سابق ، ص:47.

[2]- أمين توفيق الطيبي ،"أثر الإسلام الحضاري في غانة ومالي في العصر الوسيط (القرن العاشر –القرن الرابع عشر للميلاد) ، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، (مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة) ، طرابلس ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،1999، ص:121.

[3]- مجهول ، كتاب الإستبصار ، مصدر سابق ، ص:219-220.

[4]- زافون مدينة تقع على مسافة 20 فرسخا من مدينة غانة إلى الشرق، أنظر: الزهري، المصدر السابق، ص: 126. ابن سعيد، المصدر السابق، ص:114.

[5]- ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 3، ص:127. ويرى كيوك أن هذه الزيارة وقعت في المرحلة مابين وصول محمد بن تومرت المهدي إلى مراكش ، وسقوط الدولة المرابطية، أي في المرحلة مابين 514هـ/1120م و541هـ/1146م أنظر :

- Joseph Cuoq, Recueil…, op.cit.p:185.note.2.

يكون استحضارا للعلاقة بين الطرفين قبل قيام دولة المرابطين [1]، ولكنه لا يمنع من القول إن التطور الفكري الذي شهدته صنهاجة الصحراء جعلهم الطرف الأكثر تأثيرا في كل المجال الصحراوي والسوداني.

ومن أهم ما يفيد في النص وضوح الحرص على أداء فريضة الحج من قبل ملوك السودان، ما يبرز تعزيز الحضور الإسلامي من خلال التزام أحكامه، بما يجعل من المقبول الحديث عن نجاح المرابطين في نقل المنطقة من مجرد التعرف على الإسلام والانتساب إليه، إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الاستيعاب لهذا الدين و فهم شرائعه[2].

كما ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن التأثير الثقافي المرابطي في السودان الغربي، هو الذي غطى على الحضور الإباضي، بل ونقل السودانيين من المعتقدات الإباضية إلى المعتقدات السنية [3]، ومع أن هذا التفسير قد يكون مقبولا لتفسير سبب اختفاء التأثير الإباضي، فإنه ينطلق من الطابع المذهبي لانتشار الإسلام بالسودان الغربي في هذه المرحلة، وهو ما نعتقد صعوبة التدليل عليه، رغم التسليم بكونه يمثل جذورا للصورة المذهبية التي رسمتها لنا المصادر المتأخرة عن الفترة المدروسة، وفي مقدمتها ابن بطوطة في رحلته.

كل ما تقدم يبرز لنا الدور الثقافي الكبير الذي قام به المرابطون في بلاد السودان الغربي، ذلك أن الحماسة الدينية التي زرعها فيهم عبد الله بن ياسين وأمراء وفقهاء المرابطين من بعده، جعلت صنهاجة الصحراء تعتبر الدعوة إلى الإسلام والعمل على نشره بين الشعوب الوثنية، وتجديده وتصحيحه لدى الشعوب التي تتمسك به تمسكا سطحيا ساذجا أهم أولوياتها، ومن ثم أعطت دفعا كبيرا لمسار الإسلام في هذه المناطق.

وقد بقي هذا الدور الكبير للمرابطين حاضرا في الموروث الشفوي السوداني ، الذي حفظ لنا بعض القصص يصعب التأكد من صحتها مثل تزويج أبي بكر بن عمر ابنته لملك الماندينك[4]، وأنه تزوج أخت الملك إبراهيم سل ملك فوتا الغربية وأنجب منها ولدا اسمه أحمد ملك منطقة جلوف، ومنه نشأت السلسلة الأميرية :يوربا جلوف [5]، وكل هذا يحيل إلى الحضور المرابطي في الذاكرة الشعبية السودانية، بما يؤكد التأثير الكبير الذي خلّفوه في المنطقة، وقد تكون مثل هذه المرويات هي ما دفع بالحسن الوزان للقول بعد تصويره الحياة البدائية التي كان يعيشها

---

[1]- جاء في معجم البلدان ج3 ص:127: " زافون (...) لهم ملك ذو قوة وفيه منعة وله حاضرة يسمونها زافون ، وهو يرتحل و ينتجع مواقع الغيوث، وكذا كان الملثمون قبل استيلائهم على بلاد المغرب ، وملك الزافون أقوى منهم و أعرف بالملك و الملثمون يعترفون إليه في الحكومات الكبار". وعن هذه المملكة و علاقتها بالمرابطين ينظر :

Tadeusz Lewicki," Un État soudanais medival inconnu…", op.cit, p : 501-525.

[2]- صباح الشيخلي ،" انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء "، آفاق الثقافة والتراث 38(2002)، ص:23-24.

[3]- نور الدين شعباني، " دور ملوك السودان في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة/ 11و15م"، الحكمة، 9(2011)، ص: 227. وعن الحضور الإباضي في السودان الغربي ينظر: محمد صالح ناصر: دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا، عمان، الدار العمانية للنشر والتوزيع، 1992.

[4]- فهمي سعد ، انتشار الإسلام في إفريقيا في العصور الوسطى ، بيروت ، عالم الكتب ،2001، ص:77.

[5]- عمر محمد صالح الفلاني ، المرجع السابق ، ص:132.

السودانيون قبل وصول المرابطين: وقد حكم هؤلاء الزنوج يوسف ملك مراكش فعلموهم الشريعة الإسلامية والمبادىء الضرورية لسلوكهم في الحياة فاعتنق الكثير منهم الإسلام[1].

وقد عززت صنهاجة الصحـــراء هذا الحضور من خــلال العمــل على تعليم الناس الأحكام و العقـــائد والآداب، ونشر الخط العربي، وهو الدور الذي قامت به من خلال الحواضر التي أسستها في المجال السوداني وعلى مقربة منه، فما هي هذه الحواضر وما طبيعة الدور الثقافي الذي قامت به؟ وهل وفرت لنا المصادر ما يمكّننا من رصد الأثر الثقافي لها ببلاد السودان في الفترة المدروسة؟



4- دور الحواضر الصنهاجية في تعزيز الثقافة الإسلامية بالسودان الغربي.

شهد مجال صنهاجة الصحراء والسودان الغربي تداخلا كبيرا منذ نهاية القرن 5هـ/11م، وذلك بسبب الهجرات الصنهاجية جنوبا ، والتي تعززت في منتصف القرن 6هـ/12م بسبب سقوط دولة المرابطين على يد

1- الوزان ، المصدر السابق ،ج2، ص:159-160.

الموحدين، ثم في نهاية هذا القرن مع بداية وصول بني حسان الهلاليين إلى الصحارى الغربية، كما أن هجمات شعب الصوصو الوثني على مملكة غانة ومجالات السوننك المسلمين أدى إلى هجرات سودانية نحو الشمال، وكل هذا قاد إلى التقاء الملثمين و السودانيين في مجال واحد، وهو ما جعل الحواضر الصنهاجية[1] في هذه المناطق المختلطة إثنيا تؤدي دورا بارزا في التواصل الثقافي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي ــ الذي اتسع مجاله ليشمل حواضرا تنتمي إلى مناطق كانت محسوبة على صحراء صنهاجة ــ، إضافة إلى حواضر أخرى في عمق الصحراء كانت على تواصل دائم بالسودانيين.

أــ ولاّتــة[2]:

تقع هذه الحاضرة العتيقة في أقصى جنوب الشرق الموريتاني الحالي (ضمن ولاية الحوض الشرقي)، وهي من كبريات حواضر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في غرب الصحراء والسودان [3]، واسمها الأول بير، وهو اسم سوننكي، يعتبر السعدي أقدم مصدر ذكره في معرض حديثه عن تنبكت، حيث أشار إلى أن عمارة تنبكت كانت على حساب خراب بير[4].

ويعتبر تاريخ ولاتة موغلا في القدم، ولذلك فإن الحقائق بشأنه قليلة، فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة إلى اليهود قبل الإسلام [5]، وبالضبط حوالي القرن 6أو7م، ولكن حماه الله ولد السالم يرجح أن تأسيسها يعود للقرن2هـ/8م[6]،وقد كان السودان من أقدم الساكنين للمنطقة، حيث كانوا يمثلون مجموعة مستقرة مرتبطة بالأرض، ولكنهم ظلوا يتناقصون باستمرار إلى الحد الذي صاروا أقلية ضئيلة [7]، والظاهر أنهم كانوا من السوننك، ولكن المنطقة في ذلك الدور لم تكن سوى قرية صغيرة لا تؤدي دورا كبيرا على المستويين التجاري والثقافي.

---

[1]– يطرح مفهوم المدينة في الصحراء عدة إشكالات، بعضها جزء من النقاش حول المدينة الإسلامية عموما، وبعضها الآخر وثيق الصلة بحقيقة الحاضرة الصحراوية، وكونها مدينة بالمعنى التاريخي والحضري، أو هي مجرد تجمع بشري يحمل خصائص الاجتماع البدوي رغم استقراره، ومهما يكن فإن الحاضرة الصحراوية نشأت بفعل العوامل التجارية والثقافية و الدينية، ولذلك كان تأسيسها وثيق الارتباط بالمجموعات الدينية وعلى رأسها الزوايا، لأنهم هم المجموعة القبلية المختصة في الخطط الدينية والثقافية في المجتمع الصحراوي، والناشطة في حقل التجارة. أنظر: حماه الله ولد السالم، المرجع السابق،ص:162،164.

[2]– ولاّتة : هو النطق العربي الحساني للفظ الصنهاجي إيولاّتن ، وكان أطلقه على المدينة بطن من مسوفة لعله أول من قطنها من البيض ، ومعناه سفح الجبل في لغة التوارق . حماه الله ولد السالم ، المرجع السابق ، ص:165. وانظر الصورة رقم:9ص:137من هذه الرسالة.

[3]– المرجع نفسه ، ص:164.

[4]– السعدي ،المصدر السابق ، ص:21.

[5]- Jacques Meuniè," Citès caravanières de Mauritanie – Tichite et Wualata" , Journal de la sociètè des Africainistes, T27.fascicule1(1957)p:21.

[6]– حماه الله ولد السالم ، المرجع السابق ، ص:164،175. ويرى الخليل النحوي أن المدينة تأسست في القرن 1هــ /7م.

[7]- Jacques Meuniè,op.cit. p: 21-23.

وقد صارت مسوفة تشكل غالبية سكان ولاتة، وهو ما صرح به ابن بطوطة عند زيارته المدينة في منتصف القرن 8هـ/14م[1]، ويبدو أن ذلك قد تم بالتدريج عبر عقود، وهو مرتبط بالتحولات التي مست الصحراء منذ التروح اللمتوني شمالا عهد يوسف بن تاشفين، وانزواء جدالة في مجالها الذي ضاق في محاذاة المحيط الأطلسي، بالإضافة إلى التحول التدريجي للطرق التجارية باتجاه الشرق، بسبب التحول في مراكز إنتاج الذهب من مناجم بامبوك إلى مناجم بوري.

وبالإضافة إلى قبيلة مسوفة التي مثلت أغلب ساكنة المدينة، فقد هاجرت إليهـــا تباعـــا عدة قبائل من مدن مغربية مختلفة، ذكر منها السعدي: فزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلالت وفاس وسوس إلى غير ذلك، واختار الكثير من أهل العلم سكنى هذه المدينة، حيث يذكر المؤلف ذاته أنها كانت مأوى العلمـــاء والعـــابدين ومألف الأولياء والزاهدين[2]، ولا ريب أنهم مارسوا فيها مختلف الأنشطة التعليمية، ونشروا بها أنواع المعارف الموجودة ببلاد المغرب الإسلامي.

وفي القرن 6هـ/12م تصدعت أركان مملكة غانة تحت ضغط الصوصو، وهو ما اضطر سكانها إلى الهجرة باتجاه ولاتة[3]،كمـــا هاجر علماؤهـــا بقيادة الشيخ إسماعيل إلى نفس المدينة، وقد كان في ولاتة عدد من المحاضر (المدارس) من أبرزها مدرسة أهل سيدي عثمان، التي أسسها محمد بن سيدي عثمان الداودي، ومن رجالها البارزين: الفقيهان محمد يحيى الولاتي ومحمد يحيى بن سليمة[4].

ومما يدل على اهتمـــام أهل ولاته بالعلم، ما أشار إليه ابن بطوطة عنهم من كونهم مسلمين محافظين على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن[5]، ولذلك كثرت بها حلقات العلم والدروس، ورغم كون الدور الاقتصادي لولاتة أبرز من الدور الثقـــافي، فإن ذلك لا ينفي إسهامهـــا في التواصل الثقـــافي بين بلاد المغرب الإسلامي و السودان الغربي لأن النشاط التجاري هو ذاته حامل هذه المؤثرات كما تبين فيما سبق.

ب- تنبـــكت:

---

[1]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:687.

[2]- السعدي ، المصدرالسابق ، ص:21.

[3]- Nehemia Levtzion, Ancient Ghana and Mali, New York, Africana publishihg company, 1980,p: 161.

[4]- الخليل النحوي ، المرجع السابق ، ص:69. وأشير إلى أنني لم أعثر على ما يثبت أن الداودي والولاتي وبن سليمة قد عاشوا في المرحلة المدروسة في هذا البحث أو بعدها.

[5]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:687.

تعتبر تنبكت مدينة صنهاجية في المجال السوداني، وقد حافظت على استقلالها إلى غاية الربع الأول من القرن 7هـ/13م عندما أصبحت من مدن مملكة مالي، وهذا من أكبر الأدلة على تداخل المجال الصنهاجي مع السوداني عبر حركات الهجرة المستمرة، والمدينة تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، بالضفة اليسرى من نهر النيجر على بعد 26كلم من مجراه[1].

وقد تأسست تنبكت نهاية القرن 5هـ/11م على يد المسوفيين، وتطورت من مجرد مكان لحفظ متـــاعهم وزروعهم، إلى محطة لراحة المسافرين العابرين للمنطقة ، ثم أخـــذ الناس يسكنون فيها ويزداد عددهم بالتدريج قادمين من كل جهة ومكان، حتى صارت سوقا للتجارة[2]، وقد استمر مسوفة يمثلون أغلب سكانها إلى غاية القرن 8هـ/14م[3].

و يعلل الباحثون تأسيس مسوفة لهذه المدينة بأنه جاء في مرحلة جفاف توالى على الصحراء لعدة سنوات، ما اضطرهم للتروح جنوبا قرب نهر النيجر لتوفير الكلأ والمرعى لماشيتهم والماء لها ولهم [4]، ومع وجاهة هذا السبب لقيام المدن، فإن تطور المدينة له ارتباط بأسباب اقتصادية أخرى، أهمها بداية التحول في مراكز استخراج الذهب من حوض السنغال إلى حوض النيجر الأعلى حيث منطقة "بوري" منذ نهاية القرن 5هـ/11م[5]، وهو ما يفسر حرص قبائل الملثمين على عدم فقدان دور الوسيط في التجارة العابرة للصحراء، ويدل على ذلك أن عمران تنبكت كان على حساب ولاتة الواقعة إلى الغرب منها، والتي كانت عامرة بمختلف القبائل، ثم انتقـــل الجميع إلى تنبكت مع جميع قبائل صنهاجة [6]، بالإضافة إلى السودان الذين تشير المادة المصدرية إلى وجودهم بالمدينة ومشاركتهم في النشاط الاقتصادي والثقافي بها.

وقد استطاعت تمبكت أن تفـــرض نفسها بالتدريج كأهم حاضرة ثقافية في السودان الغربي، إلى الحد الذي اعتبرها الباحثون تمثل في غرب إفريقيا ما مثلته القيروان في تونس، أو فاس في المغرب، أو قرطبة في الأندلس أو القاهرة في مصر[7]، وقد كان التعليم بها يتم في الجوامع، ومن أهمها المسجد الجامع، والذي بني لأول مرة في القرن 6هـ/12م، دون أن نمتلك تاريخا دقيقا لذلك ، ولكن لعلمنا بدور المسجد وأهميته في المدينة الإسلامية، فيبدو أنه

---

[1]- عبد الحميد جنيدي ، مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10هــ/16م ، مذكرة ماجستير في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، إشراف خالد صابر الشريف ، جامعـــــة الجزائـــــر ،2009، ص:22-23.

[2]- السعدي ، المصدر السابق ، ص:21.

[3]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:701.

[4]- علي محمد عبد اللطيف، تمبكتو أسطورة التاريخ ، بنغازي ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،2001، ص:85.

[5]- كولين ماكيفيدي ، المرجع السابق ، ص:89.

[6] - السعدي ، المصدر السابق ، ص:21.

[7]- عصمت عبد اللطيف دندش ، المرجع السابق ، ص:163.

كان موجودا منذ تحول المكان من مركز استراحة إلى منطقة سكنية، ثم أخذ يكبر بالتدريج، قبل أن يشهد التوسعة الكبيرة سنة: 724هـ/1323م في المرحلة التي صارت تنبكت فيها من أهم حواضر إمبراطورية مالي، في عهد السلطان منسى موسى (712-737هـ/1312-1337م)[1]، فقد احتضنت علماء من مختلف البلدان من المغرب والأندلس ومصر والحجاز، وبالتالي جذبت الكثير من الطلاب الوافدين عليها من مختلف مناطق السودانين الغربي والأوسط من التكرور والسوننك والماندينغ والهوسا...[2]

لقد كانت تنبكت على اتصال وثيق مع الصحراء وبلاد المغرب الإسلامي، وبقي للملثمين دور السيادة فيها، وهو ما سمح بتوافد علماء وفقهاء الصحراء إليها، خاصة وأن التقليد المرابطي بإعلاء شأن الفقهاء قد انتقل إلى المدينة[3]، وسيتضح دورها الثقافي بجلاء أكثر منذ القرن 8هـ/14م وإلى غاية القرن 10هـ/16م، ومع أن المعطيات التاريخية المتعلقة بهذه الفترة بعيدة زمنيا عن الفترة المدروسة في هذا البحث، ولكنها ولاشك نتيجة لها، وهي تبرز بجلاء أن الكثير من الأسر العلمية تعود أصولها إلى قبائل صنهاجة الصحراء وفي مقدمتها أسرة أقيت التي أنجبت العديد من فقهاء تنبكت و أئمتها، وعلى رأسهم أحمد بابا التنبكتي[4].

ج ــ تيشيــت:

تقع تيشيت إلى الشرق من مدينة تجكجة على مسافة 250كلم، وهي تتبع ولاية تكانت ضمن النطاق الشرقي من موريتانيا الحالية، وتعد اليوم إحدى المدن الشواهد التي شاخت وما تزال حية تغالب عوادي الزمن وعوامل الاندثار، وهي من مدن الواحــات التي كانت إحدى محطات القوافل القاصدة إلى بلاد السودان الغربي والعائدة منه عبر توات وتمبكت[5].

ويعتبر التاريخ القديم للمدينة مجهولا ، حيث تشير بعض الروايات إلى أن تأسيسها يعود إلى القرن 2هـ/8م، وأنها لم تحظ بالأهمية إلا منذ القرن 6هـ/12م[6]، إلاّ أن البحث الأثري في المنطقة قد أثبت بأنها شهدت استقرارا سكانيا منذ منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، قبل أن تشهد مرحلة جفاف في بدايات الألف الأولى قبل الميلاد [7]،

---

[1]- محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق،ص:103.وللتعرف عليه،انظر الصورة رقم11ص:138من هذه الرسالة.

[2]- أحمد الشلبي ، المرجع السابق ،ج6، ص:232-233.

[3]- بانيكار ، المرجع السابق ، ص:387.

[4]- أنظر : أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تح: عبد الحميد عبد الله الهرامة ،طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، 1989. التراجم رقم : 144،267،270،458،459،730،746. أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تح: علي عمر،القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية، 2004، التراجم رقم:86،94،137،392،393،641،655،661. البرتلي ، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح : محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ،1981، التراجم رقم : 1،6،8،175،176،177.

[5]- الخليل النحوي، المرجع السابق،ص:69.حماه الله ولد السالم، المرجع السابق،ص:181.وانظر آثارها في الصورة رقم12ص:138من هذه الرسالة.

[6] - Jacques Meuniè,op.cit. p:21.

[7]- ديفيدو فيليبسون، المرجع السابق، ص:205.

وبالتالي فإن المنطقة كانت مأهولة، لكنها كانت تهجر أحيانا، ثم يعاد تعميرها مرة أخرى، فاستمرت بين تأسيس وإعادة تأسيس، ومثال تيشيت يعد أحد أهم النماذج للاستمرار العمراني في الصحراء ، ولذلك تكون تيشيت المسلمة هي إحدى مراحل العمران في هذه المنطقة، وليست حاضرة جديدة.

فحسب المختار ولد حامد فإن أول من بدأ في بناء تيشيت المسلمة هو الشريف عبد المؤمن بن صالح أحد أشراف المدينة سنة 536هـ/1141م، حيث اختار موضعها الذي يبعد أربعة أميال عن معدن ملح مهم [1]، وهو من طلبة العلم الذين أخذوا عن الفقيه المـــالكي المغربي القاضي عياض(ت 544هـ/1149م) بمراكش، ولذلك كانت تيشيت من أول يوم حاضرة علم ومعرفة، فقد حمل الشريف عبد المؤمن علم شيخه إلى بلاد شنقيط فأسس هذه الحاضرة العريقة[2]، ونشر بها مختلف العلوم والمعارف التي كانت رائجة ببلاد المغرب.

ويمكن الركون إلى الطوبونيميا للاستدلال على التواجد السوداني في المدينة، ذلك أن لفظ "تيشيت" حسب مونيي (J. Meuniè) قد يكون لفظا سوننكيا محرفا من صنهاجة الصحراء، إذ أصله هو " شيتو"، وهو ما يدل على وجود السودان في المنطقة وتداخل مجالهم مع مجال الملثمين، الأمر الذي يسمح بعبور المؤثرات الثقافية [3]، وهو ما يتضح أكثر بعد القرن 8هـ/14م، ولكن البدايات الأولى لإشعاع هذه المدينة الثقافي بدأ منذ هذه الفترة.

د ـــ وادان:

تقع هذه المدينة على بعد 100كلم تقريبا إلى الشمال الشرقي من مدينة شنقيط في ولاية آدرار من الشمال الموريتاني الحالي[4]، وقد تأسست سنة 536هـ/1141م، وهي توأمة تيشيت المسلمة ومعاصرتها، وقد أرسى قواعدها عدد من العلماء الذين حجوا البيت الحرام وتلقوا العلم خارج بلدهم، وقد كانوا ثلاثة في البداية، الحاج عثمان الأنصاري تلميذ القاضي عياض، وزميل الشريف عبد المؤمن مؤسس تيشيت، والحاج يعقوب القرشي والحاج علي الصنهاجي، والتحق بهم بعد التأسيس عبد الرحمن الصائم، وتنص رواية أخرى أن الحجاج الثلاثة انطلقوا في رحلتهم إلى الحج من ثلاثة قرى كانت في نواحي وادان، فقضوا نسكهم ثم عادوا وهجروا قراهم

---

[1]- المختار ولد حامد ، المرجع السابق ، ص:62.

[2]- الخليل النحوي ، المرجع السابق ، ص:69.

[3]- حماه الله ولد السالم ، المرجع السابق ، ص:181.

[4]- المرجع نفسه ، ص:186.

وأسسوا هذه الحاضرة [1]، ويعتقد أن السكان الأصليين لوادان هما قبيلتا تفرلي وتامكون المسوفيتان [2]، وأنهم كانوا يسكنون قرى صغيرة حول المنطقة قبل تأسيها، فلما تأسست إنتقلوا إليها [3].

وقد اختلفت الأقاويل في اشتقاق اسم وادان، ولعل أكثرها مساسا بما نحن بصدده، وإفصاحا عن مكانة المدينة الثقـــافية والتجــــارية، التفسير الذي أورده الطالب أحمد بن اطوبر الجنة (ت:1265هـ/1848م) ضمن رحلته المسماة "المنى والمنة" نقلا عن شيخه سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت: 1233هـ/1817م) أن معناه " واديان مليئ أحدهما علما ودينا والآخر نخلا وتمرا"، وهكذا فقد كانت وادان مدينة علم ودين، ومركزا لإشعاع ثقافي في الصحراء، حيث كان طلبة العلم يشدون الرحال إليها من شنقيط وتيشيت وغيرهما [4]، فقد كان الطريق اللمتوني يربط وادان بدرعة وسجلماسة في الشمال، وبتنبكت في الجنوب من خلال تيشيت وولاتة، ومن ثم فقد مثلت إحدى أهم حلق التواصل بين الشمال والجنوب، ومعبرا للثقافة الإسلامية المغربية إلى السودان الغربي.

لقد قام الفقهاء الصحراويون المقيمون في آزكي و تيشيت و وادان و تينيكي وغيرها بدور كبير في تعليم السودانيين، وصبغ حياتهم بالطابع الإسلامي، والقضاء على مخلفات الوثنية بينهم، وقد كان السودانيون يهاجرون إلى هذه الحواضر العلمية من أجل التزود بالمعارف العلمية، والعودة إلى بلادهم بعد تلقي العلم هناك على يد الفقهاء، ليتحولوا بدورهم إلى معلمين بعد استقرارهم بين ذويهم [5].

والذي يبدو أن تمسك السودانيين بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، وتوافق برامجهم التعليمية وكتبهم المعتمدة مع سكان المغرب الإسلامي، إنما يعود بالأساس إلى هذه الحواضر، لأنها الأقدر على تحقيق التحولات الثقافية من خلال التعليم والإجازات، والرحلة إليها من مختلف بلاد السودان، ويمكننا أن نعتبر هذا الدور أهم من الدور المرابطي الذي غالبا مـــا يعتبر أهم مرحلة في إلحـــاق بلاد السودان ثقافيا ببلاد المغرب، بل يمكن القول أن فاعلية الدور المرابطي كانت أظهر في نشر الإسلام وتوضيح أحكامه، وفـــاعلية الحواضر كانت في نشر المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية.

وإذا كانت مثل هذه الفاعلية إنما تتضح بالتدريج، فليس من الممكن إسقاط النصوص العائدة للقرون 9و10هـ/15و16م حول نظام التعليم والبرامج والكتب المعتمدة في الإفتاء، وتمذهب السودانيين بالمذهب المالكي واعتناقهم للعقيدة الأشعرية على المرحلة المؤرخ لها، إذ يمكننا القول بأن الدلالات المصدرية تدفعنا إلى الميل

[1]- الخليل النحوي ، المرجع السابق ، ص:71.
[2]- حماه الله ولد السالم ، المرجع السابق ، ص:188.
[3]- المختار ولد حامد ، المرجع السابق ، ص:61.
[4]- الخليل النحوي ، المرجع السابق ، ص:71.
[5]- الناني ولد الحسين ، المرجع السابق ، ص:496.

بأنه منذ بداية نشاط القوافل الإسلامية جنوب الصحراء الكبرى وحتى منتصف القرن 7هـ/13م، كانت بلاد السودان الغربي تتلقى الإسلام كدين، ولا تتلقى المذهبية إلا من خلال الممارسة لها من التجار والدعاة والملثمين المجاورين لهم، وأن أهم التحولات في البعد المذهبي بدأت تغرس بذورها في الفترة المرابطية، ولكنها لم تبرز بجلاء إلا منذ مطلع القرن 8هـ/14م عندما تولى منسى موسى ملك دولة مالي، وتطورت الحياة العلمية في الحواضر السودانية والصنهاجية مثل تنبكت و ولاتة و تيشيت و وادان وغيرها، لتنتهي إلى صبغ الثقافة السودانية باللون المغربي مذهبا وعقيدة وخطا ولباسا وعادات دينية واجتماعية، ورغم ذلك فإنه يمكننا أن نشير إلى أن تلك الصورة الثقافية لمملكة مالي قد كانت نتيجة تفاعلات بطيئة لعدة عقود، بل وقرون، خاصة وقد دللنا على تداخل مجالي الملثمين مع السودانيين، وتشكل تقاليد علمية بصحراء صنهاجة، وبالتالي فإن جذور هذا الوضع الثقافي ترجع إلى هذه الحواضر، خاصة بعدما تعربت بفعل الدافع الثقافي، وليس من خلال تغيير التركيبة الديموغرافية بوصول عرب معقل كما رجحت بعض الدراسات.

وإذا كانت المادة المصدرية الشحيحة المتوفرة قد مكنتنا من تقديم بعض المقاربات فيما يتعلق بدور صنهاجة الصحراء الذين بقوا في مجالهم الصحراوي في توصيل المؤثرات الثقافية المغربية إلى بلاد السـودان، فإن هذه المادة لا تكاد تسعفنا للحديث عن أي دور محتمل لصنهاجة الصحراء الذين استقروا بالمناطق الشمالية بعد قيام دولة المرابطين[1]، ففضلا عن انتفاء الانتماء إلى القبائل لصالح الحواضر، وتداخل صنهاجة الصحراء مع صنهاجة الشمال، فإن الحواضر التي نسب للملثمين سكناها، لم يرد ما يميزها عن غيرها من حواضر بلاد المغرب الأخرى في الارتباط بالسودان الغربي بسبب أصول سكانهـا القديمة كمجاورين لهذه المنطقة، و لم نعثر سوى على إشارة واحدة عن مسير أحد الصنهاجيين من أهل مراكش في العهد الموحدي إلى بلاد السودان، هو أبو يحيى أبو بكر بن محيو الصنهاجي المعروف بأبي الربيع (ت: 605هـ/1208م) حيث قال:" دخلت بلاد السودان، فرغب إلي ملكهم أن أقيم عنده ويسلم لي أمره فأبيت"[2]، ولا شك أن طلب البقاء يحيل إلى الرغبة في الاستفادة مما عنده من العلم.

وإذا كان محمد بن شريفة قد أشار إلى أن الكثير من علماء صنهاجة الصحراء الذين عبروا إلى الأندلس وأخذوا عن أبي بكر بن العربي المالكي[3] لا بد أنهم نقلوا أسـانيده العلمية إلى الصحراء ومنهـا إلى بلاد

[1]- أنظر أماكن استقرارهم عند : إبراهيم القادري بوتشيش ، مباحث في التاريخ الاجتماعي ...، مرجع سابق ، ص:18-24.

[2]- التادلي ، المصدر السابق ، ص:410-411.

[3]- ابن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تح:محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، 1984، ج8، التراجم رقم : 24،47،72،80،94،97،98،144،145،151،170،213،214،215.

السودان[1]، فإن هذا الأمر الذي يرى هذا المؤرخ أنه لابد منه، لا بد له من دليل، خــاصة وأن التراجم لا تشير إلى ذلك.

وبصفة عامة فإن الملثمين كانوا عبر تاريخهم في الصحراء أنجع قناة لنقل المؤثرات الثقافية والحضارية الإسلامية المغربية إلى غرب إفريقيا، باعتبارهم من حيث اتصالهم ببلاد المغرب مهيئين لاستقبال واستيعاب كل ما يطرأ عليه وعلى سكانه من تطورات، ونتيجة لجوارهم لسكان غرب إفريقيا ومعرفتهم لثقافتهم ودرايتهم بشخصيتهم الحضارية أكثر من غيرهم، فقد خولهم ذلك القيام بدور فعال في وضع حد لعصور من الجهل والظلامية عاشها الإنسان السوداني في غرب إفريقيا، في عبودية لمعتقداته الأسطورية وتبعية للطبيعة، تلك المعتقدات التي منعته من تطوير وضعه لما هو أحسن، فأدى اعتناقه للإسلام إلى تحرير عقله وتفتحه لاستقبال الأفكار النيرة والارتباط بالحضارات الإنسانية الأكثر تطورا، والعمل في إطارها بعد عهود من العزلة والانغلاق على الذات[2].

والمتمعن فيما قدمته في هذا الفصل يرى بأنه يغلب عليه التحليل والتخمين، وهو انعكاس لشح المادة المصدرية والتزام مني باحترام السياقات التأريخية لها، ولا ريب في أن إعمال العقل من خلال تقديم مجموعة من المقاربات حول الموضوع أحسن من الانسياق وراء الطروحات السائدة في الكثير من الدراسات حول انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية بالسودان الغربي [3]، والتي تقبل بيسر تجاوز الإشكاليات التي تطرحها مسألة حدود توظيف المادة الخبرية الأصيلة والمستنسخة في محاولة رصد التحولات الثقافية، وتقرر الكثير من الأدوار الثقافية لصنهاجة الصحراء، لا يمكن التسليم بها بسهولة في هذا الإطار الزمني، ومع التسليم بإمكانية الاستئناس بالمادة المتأخرة انطلاقا من بطيء التحولات الثقافية، فإن ذلك لا يعني غض الطرف عن القراءات الممكنة الأخرى، خاصة إذا كانت تملك نسبة أكبر من المصداقية.

---

[1] - محمد بنشريفة ، إبراهيم الكانمي أنموذج مبكـــــر للتواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان ،الرباط ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1991، ص:11.

[2] - النايي ولد الحسين ، المرجع السابق ،ص:495.

[3] - يمكننا مثلا ملاحظة أنماط من الاستدلال القسري ببعض النصوص المصدرية من أجل التدليل بها على انتشار المذهب المالكي بالسودان الغربي منذ مطلع القرن 5هـــ/11م، مع أن هذه النصوص لا تحيل إلى ذلك بتاتا ، بل إن القراءة الواعية للمادة يبرز تعلقها بالإسلام كدين ، في دراسة الباحثة سحر عنتر محمد أحمد مرجان:"فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وسنغاي(628-1000هـــ/1230-1591م)"،ص:47-57. كما أن الكثير من الإنجازات الثقافية ببلاد السودان المنسوبة إلى المرابطين في دراسة الباحثة: عصمت عبد اللطيف دندش:"دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا"، إنما تدلل عليها بالنصوص المتأخرة التي كتبها محمود كعت والسعدي، والتي لا يمكننا إسقاطها على الفترة المرابطية، ومنها مثلا الاستدلال على الدور المرابطي بالنشاط التعليمي الذي قام به مسجد سنكري بتنبكت، مع أنه لم يبن سوى في القرن 10هـــ/16م، وهذين مثالين على تجاوز التخمين والتأويل التاريخي أحيانا للمساحات التي يسمح بها النص المستدل به، وهو ما يقود إلى نوع من التاريخ التخيلي، أو محاولة إيجاد النصوص المدللة على نتيجة وضعت سلفا للبحث ، بينما يجب أن يكون النص وسيلة للوصول إلى نتائج تبلورها طبيعة المادة المحصلة.

الخاتـــــــــــــــمة

في نهاية هذه الدراسة يمكنني تسجيل بعض النتائج والملاحظات، تبلور جملة ماجاء فيها من الأفكار ، وتمثل خلاصة البحث والتنقيب في المصادر حول الموضوع، إضافة إلى بعض الآراء رأيت تدوينها في هذه الخاتمة.

1- كانت صنهاجة الصحراء مجموعة سكانية كبيرة، تضم العديد من القبائل التي جمع بينها المجال الجغرافي، وتشابه نمط المعيشة، والظروف الاقتصادية والأعراف والتقاليد، كما يمكن أن يكون بينها وحدة تاريخية قديمة تتعلق بالموطن الأصلي من بلاد المغرب.

2- من العسير جدا رسم مسار محدد لاختراق الإسلام مجالات صنهاجة الصحراء، ولا ريب في أن ذلك تم بالتدريج وفي فترة طويلة، وانتقل من التبني الاسمي للإسلام إلى الالتزام بأحكامه والحرص على تطبيق تعاليمه.

3- أسهمت الثروات الموجودة في مجالات صنهاجة الصحراء وخاصة معادن الملح، في نشاط المسالك التجارية العابرة للمنطقة، وتفضيل التجار لها على مسالك المحورين الشرقي والأوسط، في أغلب مراحل الفترة المدروسة.

4- إخترقت مجالات الملثمين العديد من الطرق التجارية التي تربط المغرب الإسلامي بالسودان الغربي، وقد تناوبت على الدور الريادي في الفترة المدروسة، ويرتبط ذلك بمجموعة من التحولات السياسية والاقتصادية بالصحراء والمغرب والسودان.

5- كانت بلاد السودان الغربي تمتلك سلعا هامة، رغّبت تجار المغرب الإسلامي في المغامرة بعبور الصحراء لأجل الحصول عليها، ويأتي الذهب والعبيد في مقدمتها، وقد حققت هذه التجارة فوائد كبيرة لأصحابها.

6- قدمت صنهاجة الصحراء خدمات هامة للقوافل التي كانت تعبر مجالاتها، إلى الحد الذي يسمح لنا بالقول أن هذه المسالك لم تكن لتستمر في النشاط لولا الملثمين، فقد وفروا لها الماء، وكانوا أدلة لها في بيئة تعفو الآثار فيها بسرعة شديدة، كما قاموا بخفارتها خشية من قطاع الطرق الذين كانوا يترصدون للقوافل للاستيلاء على حمولتها.

7- إنتقلت العديد من السلع عبر مجال صنهاجة وحواضرها من الشمال إلى الجنوب، مثل النحاس و المنسوجات والمصنوعات الزجاجية وغيرها، وكان أهمها الملح الذي وفرته عدة مناجم بصحراء صنهاجة، ولاشك بأن إغراء سلع بلاد المغرب كان كبيرا للسودانيين، ولذلك بادلوها بالذهب.

8- أدت الحواضر الصنهاجية دورا كبيرا في التبادل الاقتصادي بين بلاد المغرب والسودان الغربي، إذ كان تجار صنهاجة الصحراء يحملون لها سلع السودان، ويمارسون مجموعة من الأنشطة الحرفية ترفع ثمنها، مثل تصفية تبر

الذهب وسبكه، وصبغ الجلود، وتعليم العبيد بعض الأنشطة، ويقومون بمبادلتها بسلع الشمال، مع التجار الذين يجعلون هذه الحواضر آخر محطاتهم جنوبا، أو يحملونها بأنفسهم، وبالتالي يمثلون وسيطا تجاريا بين الشمال والجنوب.

9- كانت بلاد السودان الغربي قبل وصول التجار المسلمين إليها تعيش حياة بدائية، فكانت معتقداتها تمثل المرحلة الطوطمية والوثنية، ولا يمكننا الجزم بوصول الديانات السماوية إليها، كما لا يمكن الاطمئنان إلى وجود جذور توحيدية في هذه الديانة التقليدية، فيما سمي بالأرواحية.

10- أسهم النشاط التجاري العابر للصحراء في نقل التحولات الثقافية التي شهدتها بلاد المغرب ثم صحراء صنهاجة إلى السودان الغربي، حيث مثّل التجار بمعاملاتهم المستقيمة مع الشعوب السودانية الوثنية نموذجا يحتذى به، ما رغّب العديد في الدخول إلى الإسلام،كما أسهم النشاط الدعوي الذي استهدف الحكام والأفراد والمجتمعات في تحقيق نتائج ثقافية هامة.

11- كان للتقارب بين مجالات صنهاجة الصحراء ومدن وممالك السودان الغربي دور كبير في انتشار الإسلام بالمنطقة، حيث عجزت العقائد الوثنية البدائية عن مقاومة عقيدة التوحيد الإسلامية، ولذلك يلحظ المتتبع للتحولات الثقافية بالسودان الغربي،أن انتشار الإسلام كان أسبق وأسرع في المناطق المحاذية لصحراء صنهاجة، مثل شعب التكرور والسوننكة والسنغي.

12- أسهم قيام دعوة عبد الله بن ياسين في صحراء الملثمين، ثم تمكن هؤلاء من إقامة دولة المرابطين، إسهاما كبيرا في تعزيز العلاقات بين ضفتي الصحراء، إذ تمكن المرابطون من دمج مجالات واسعة في منظومة سياسية واحدة، وفرت للتجار الأمن وألقت عن عاتقهم الضرائب الإلزامية التي كانت عليهم، ما نشّط التبادل التجاري، وشجع الكثير على الإسهام فيه، وعلى المستوى الثقافي فإن تحول الحلف الصنهاجي من مجرد حلف بمرجعية قبلية إلى دولة بمرجعية قبلية دينية، قد دفع بالملثمين إلى التفقه في دينهم، واعتبار أنفسهم حملة رسالة يجب عليهم تبليغها للناس، وهو ما أسهم في تعزيز النشاط الدعوي بالسودان الغربي.

13 – مثلت الحواضر الصنهاجية في الصحراء مثل تنبكت وولاتة وتيشيت ووادان مراكز إشعاع علمي، وأدت – إلى جانب الدور الاقتصادي – دورا كبيرا في النشاط التعليمي بالمنطقة، وانتقلت من خلالها الكثير من الخصائص الثقافية ببلاد المغرب إلى السودان الغربي، مثل التمذهب بمذهب الإمام مالك بن أنس، والالتزام بعقيدة أبي الحسن الأشعري، إضافة إلى نظم التعليم وبرامجه والإجازات وأساليب التأليف، بل والخط المغربي كذلك، ولكن هذه المؤثرات لا تبدو جلية في الفترة المدروسة، ولذلك امتنعت عن التفصيل فيها استنادا إلى المصادر

المتأخرة، واكتفيت بالتنبيه إلى جذور هذه التأثيرات، لأن تبلور التأثير الثقافي يأخذ فترة زمنية من أجل النضج والتميز، وإذا كانت أغلب الدراسات التي اطلعت عليها نسبت تمذهب السودانيين بمذهب الإمام مالك إلى حركة المرابطين، فإنه يبدو أن دور الحواضر في ذلك أكبر وأهم.

14- تحتاج المادة المصدرية الجغرافية المتعلقة بالصحراء والسودان الغربي إلى دراسة جـــادة، تعمل على إعـــادة تزمينها، وفصل المادة الأصيلة عن المنقولة في كل مصدر من المصادر، من أجل حسن توظيفها في متابعة مختلف التحولات في تاريخ الصحراء والسودان الغربي، وذلك لما لحظته في مرحلة جمع المادة العلمية من غلبة التكرار على هذه المصادر دون الإشارة غالبا إلى المصدر الأصلي، وما اطلعت عليه في بعض المراجع من توظيف المادة في غير سياقاتها، وهو ما يرسم صورة تاريخية مشوهة.

15 – لم تلق المصادر العربية المتعلقة بالفترة المدروسة أضواء كافية على النشاط الثقافي بصحراء صنهاجة، وعلى تأثير أهلها في الشعوب السودانية، وقد كانت المقاربات المقدمة في هذه الدراسة عبارة عن تأويلات وتخمينات وسعي لتفسير التداخل بين الجغرافيا والاقتصاد والأحداث السياسية من جهة، وبين التحول الثقافي من جهة أخرى، ولذلك فالموضوع يحتاج دائما إلى مزيد من التأمل وتقديم قراءات أخرى، خاصة مع ما يلحظ غالبا من التكرار لنفس المقاربات والنظريات.

16- ترتبط بالتجارة العابرة للصحراء الكثير من التحولات التي شهدتها بلاد المغرب والسودان الغربي، والتي لم تناقشها هذه الدراسة لأنها لاتعد ضمن إشكاليتها الجوهرية، ولكنها جديرة بالبحث، مثل العلاقة بين هذه التجارة وبين العمران، وأهمية تجارة الذهب في سك العملة ببلاد المغرب، ولغة التبادل التجاري، وأثر النشاط التجاري على اللغات الإفريقية، ودور الجاليات المسلمة في تطوير تقنيات الزراعة وإدخال مزروعات جديدة...

17- من أهم الأبحاث التي ينبغي الالتفات إليها، فتح باب النقد التاريخي أمام الباحثين في تاريخ السودان الغربي، ولا أقصد بالنقد هنا مجرد تقديم قراءات في الأعمال الخاصة بتاريخ المنطقة، بل العمل على توضيح مكامن الغلط في توظيف النصوص المصدرية، وكشف الخلفيات الإيديولوجية التي تقف وراء بعض الآراء، وتقوم بقراءة مذهبية للنصوص، إذ أنه يمكننا أن نلحظ بجلاء التفسير المادي الصرف لتاريخ المنطقة في بعض الدراسات، والالتفاف حول الأبعاد الروحية وتجاوزها، وغلبة الروح الدينية العاطفية في البعض الآخر من الأبحاث، وكل هذا ينبغي له أن يقوّم من خلال النقد الأكاديمي.

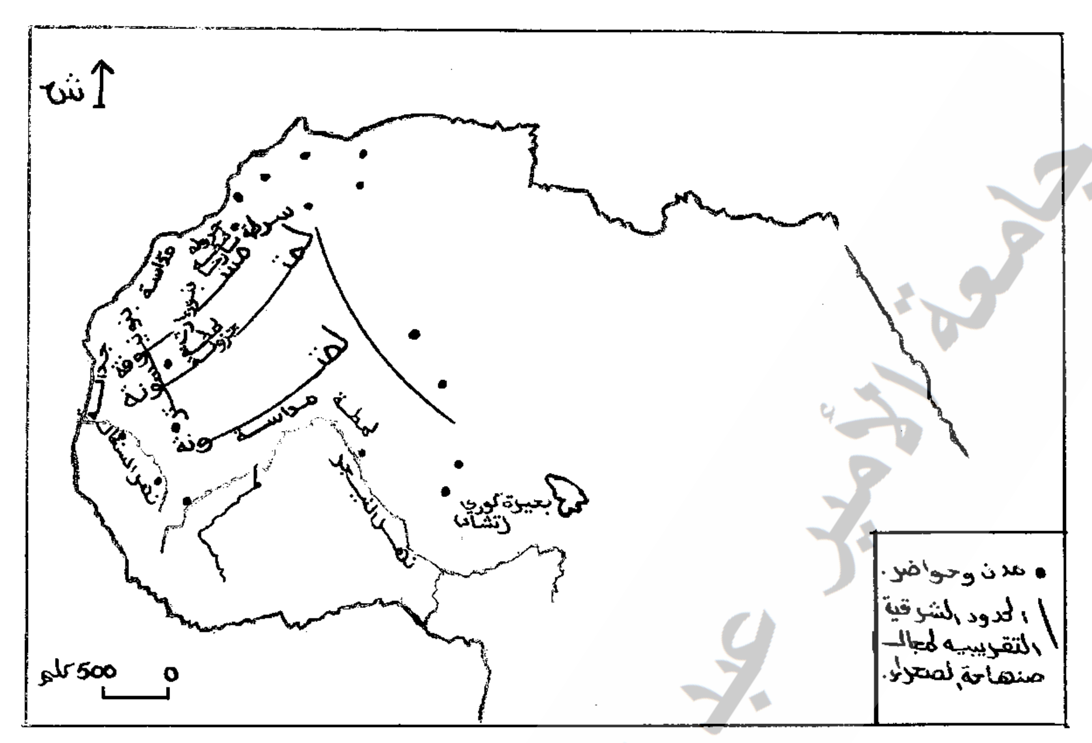
وفي الختام: هذا ماجاد به الفكر والقلم، ولله الحمد أولا وآخرا، وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه.

الملاحق

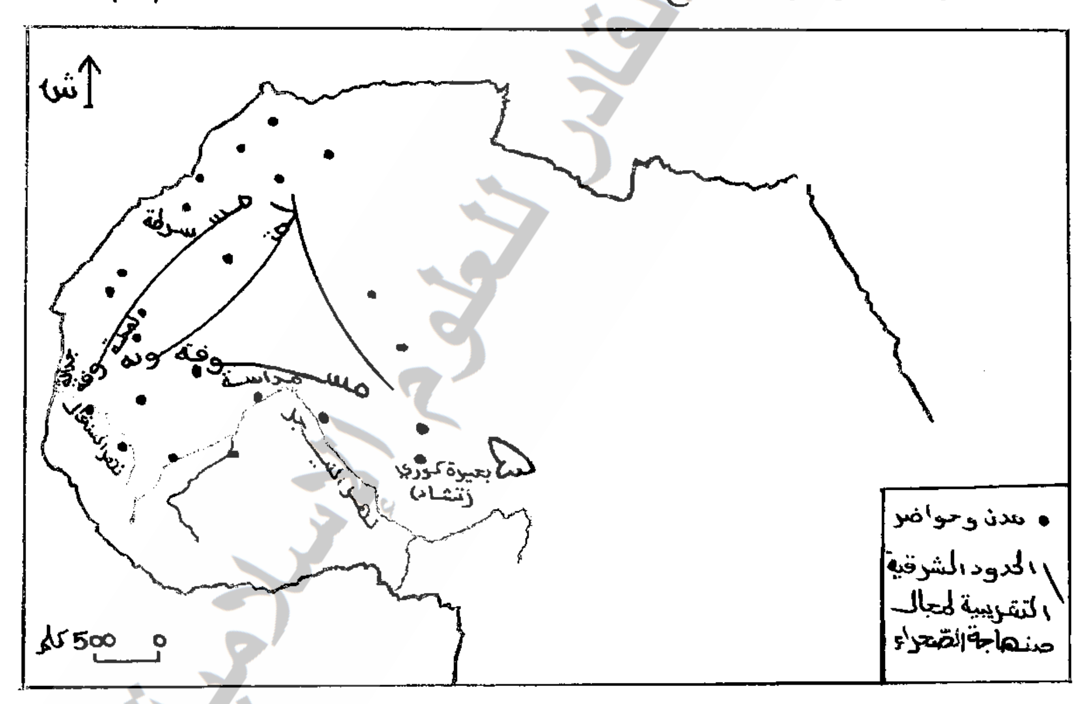
ملاحظـــة تتعلق بملاحق الدراسة:

الخرائط الواردة ضمن هذه الملاحق تعتبر توضيحا للكثير من المادة المعرفية المتضمنة في هذه الدراسة المتواضعة، وقد قمت بإنجازها من خلال المادة المحررة في الفصول والعناصر، ليكون مضمونها متماشيا مع السياق العام للبحث، ومرتبطا بمعالجة الإشكالية الجوهرية له، والمشكلات الجزئية المرتبطة بها، مع الإشارة على أنني اعتمدت في تحديد مواقع المدن والحواضر على عدة مراجع في مقدمتها كتاب حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1987، بالإضافة إلى الاسترشاد بخرائط أنجزت من قبل، ولكن المعطيات المسجلة عليها هي ترجمة لما ورد في الدراسة، وينبغي أن أشير هنا إلى أنني اشتغلت كثيرا على إشكالية المجال المتعلقة بقبائل صنهاجة الصحراء ودول وشعوب السودان الغربي في أثناء إنجاز هذه المذكرة، ولكني لم أضمن الدراسة كل المادة العلمية والتحليل الذي قمت به، نظرا لطبيعة الموضوع المدروس، ودواعي الاختصار.

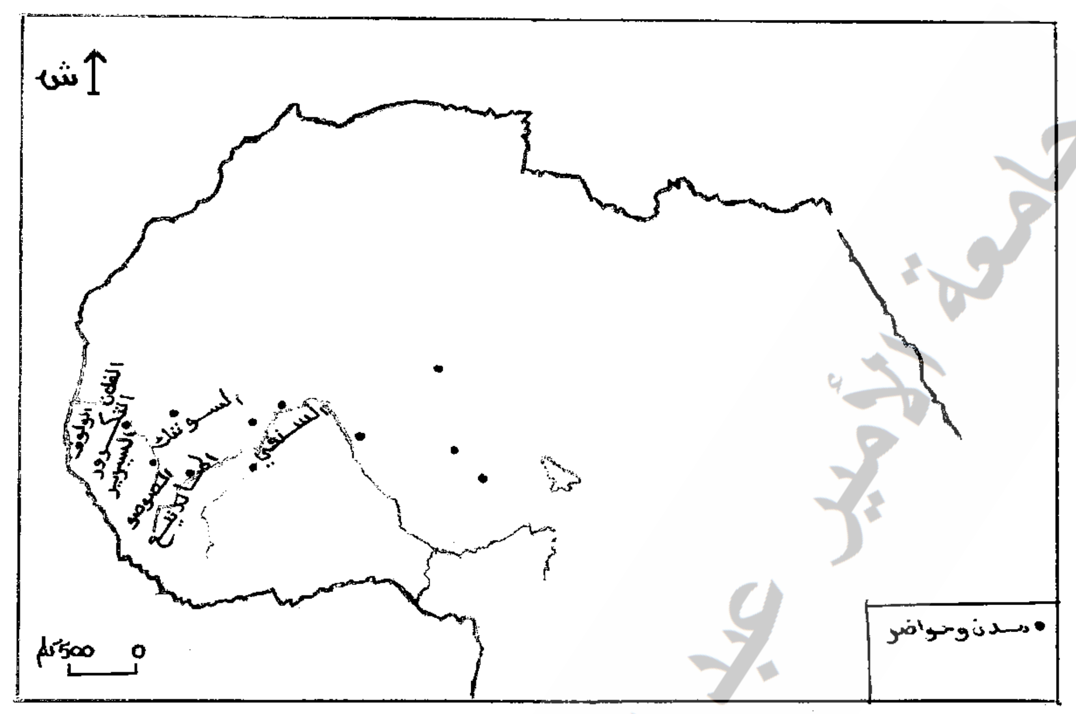
أما الصور، فقد رجعت إلى بعض الدراسات ذات المرجعية الأثرية، وأغلبها تعود للمؤرخين والأثريين: جون دوفيس(Jean Devisse) وريمون موني (Raymond Mauny) ، وقد حاولت التنويع في هذه الملاحق لتجمع بين الأبعاد الاقتصادية والثقافية، ومع أن البحث يتطلب الوصول إلى هذه المواقع والوقوف عليها، ومحاولة التعرف المباشر على الطبيعة الجغرافية للمجال المدروس، فإن ذلك لم يتيسر لي لعدة أسباب، مع أمل تحقيق ذلك مستقبلا إن شاء الله.



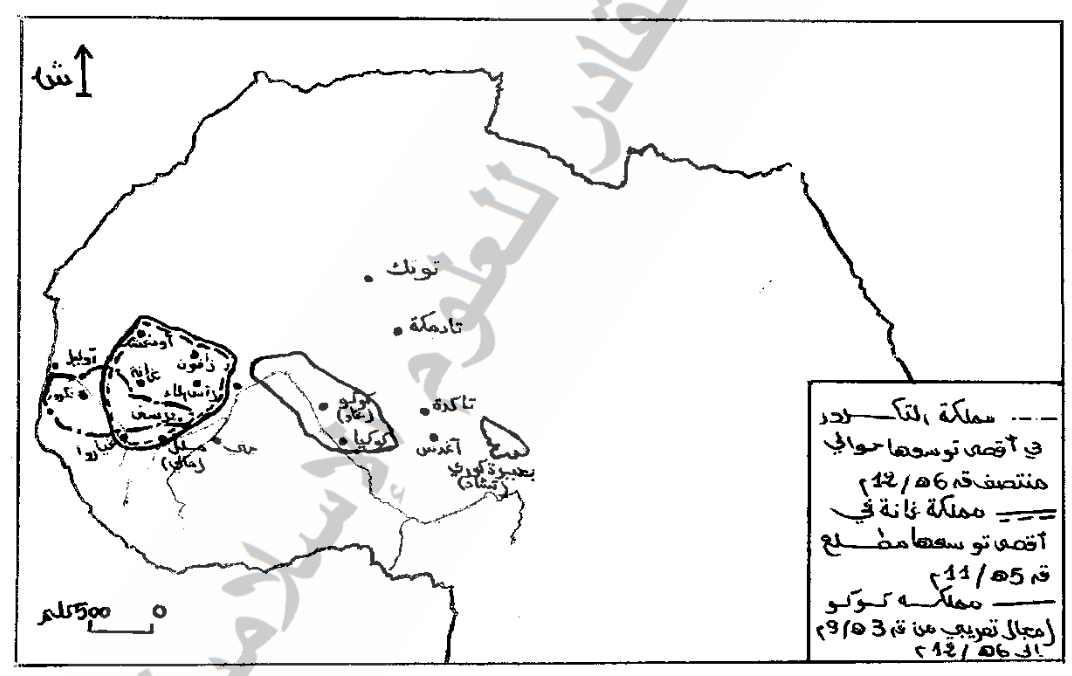
الخريطة رقم (1): توزيع قبائل صنهاجة الصحراء منتصف ق 5 هـ /11م .



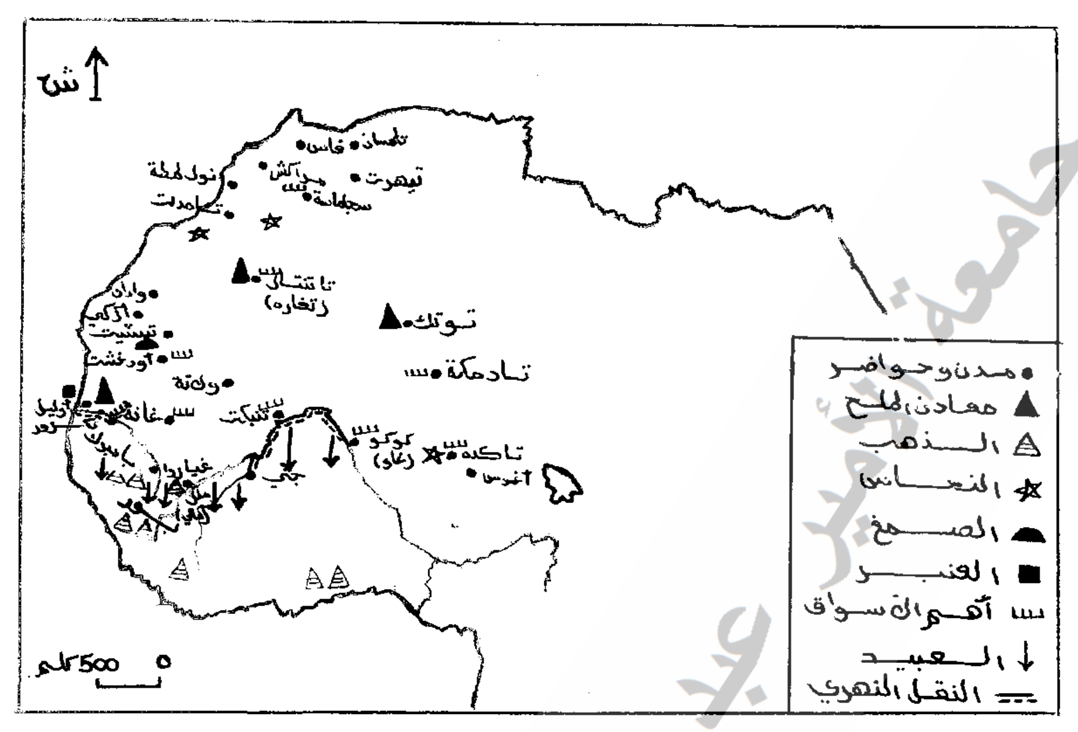
الخريطة رقم (2): توزيع قبائل صنهاجة الصحراء حوالي منتصف ق6هـ/12م .



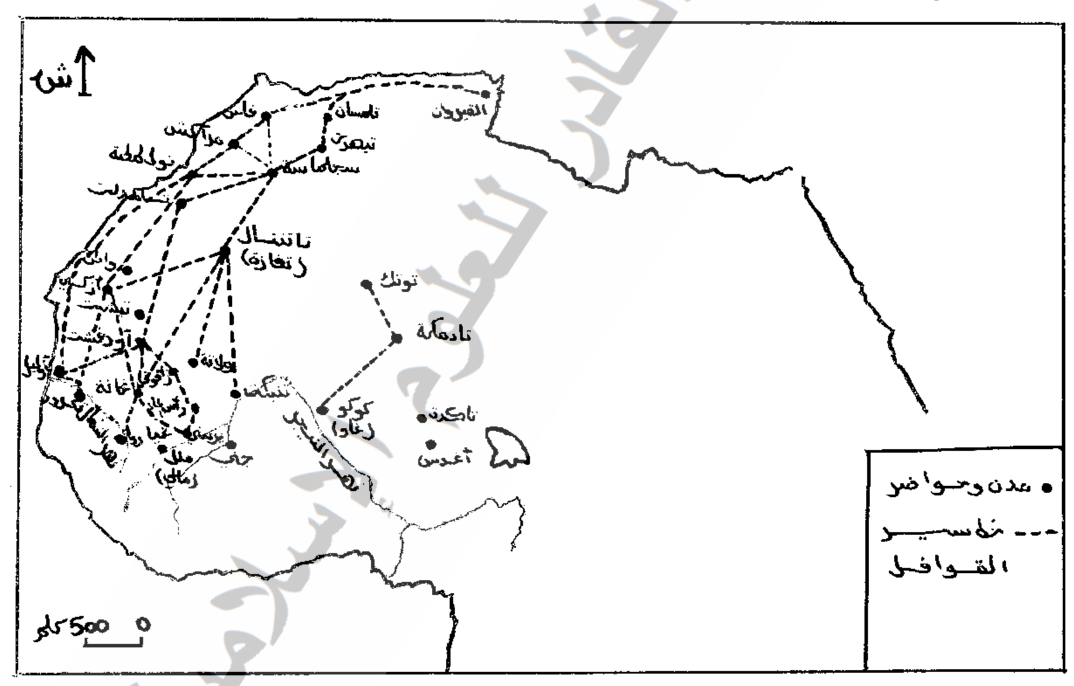
الخريطة رقم (3): توزيع المجموعات السكانية في السودان الغربي.



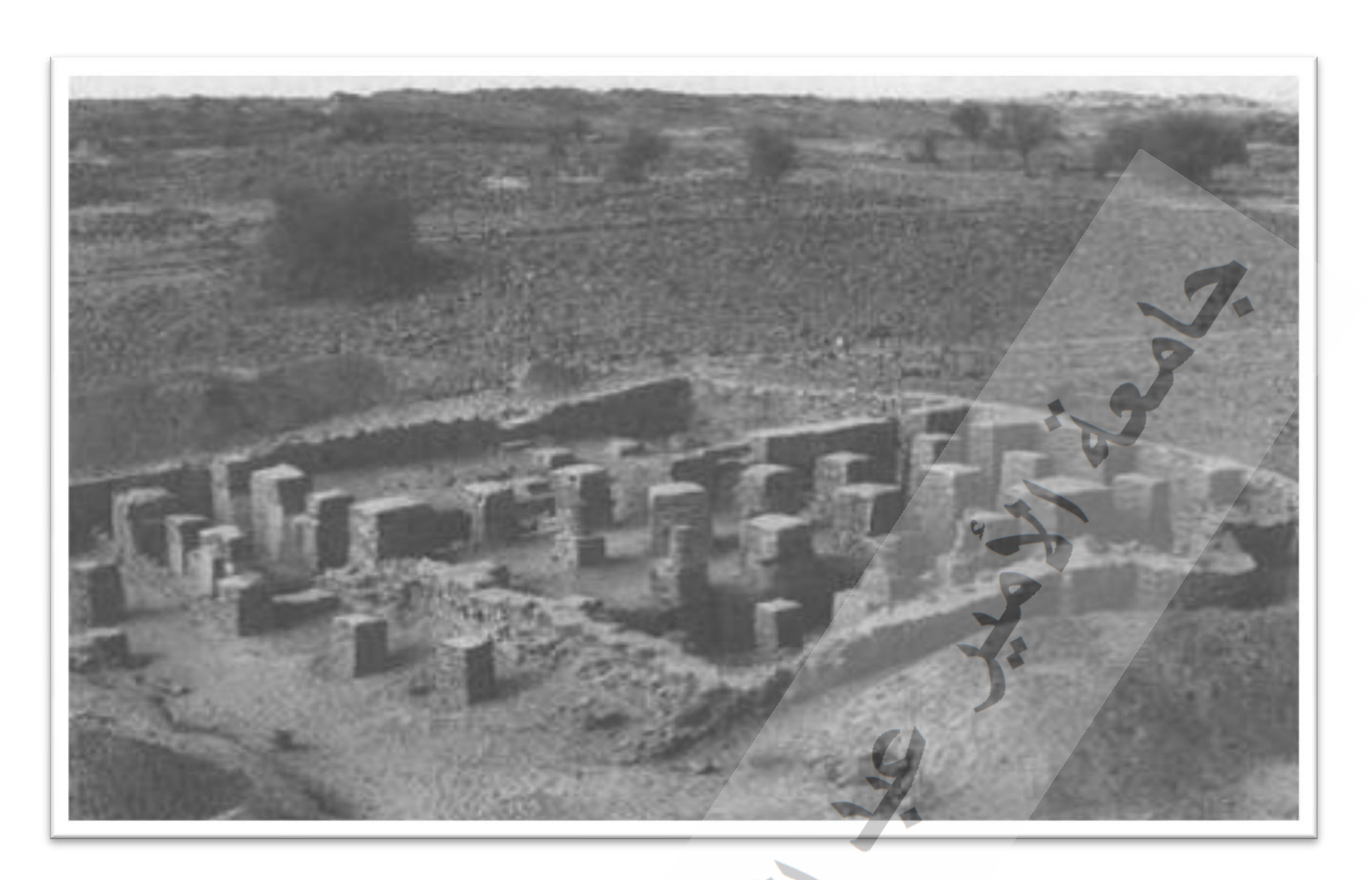
الخريطة رقم (4) الحدود التقريبية لأهم ممالك السودان الغربي بين ق 2هـ/8م و ق 7هـ/13م.



الخريطة رقم (5) خريطة اقتصادية لصحراء صنهاجة والسودان الغربي.



الخريطة رقم (6) أهم المسالك والحواضر في المحور الغربي من طرف القوافل العابرة للصحراء.



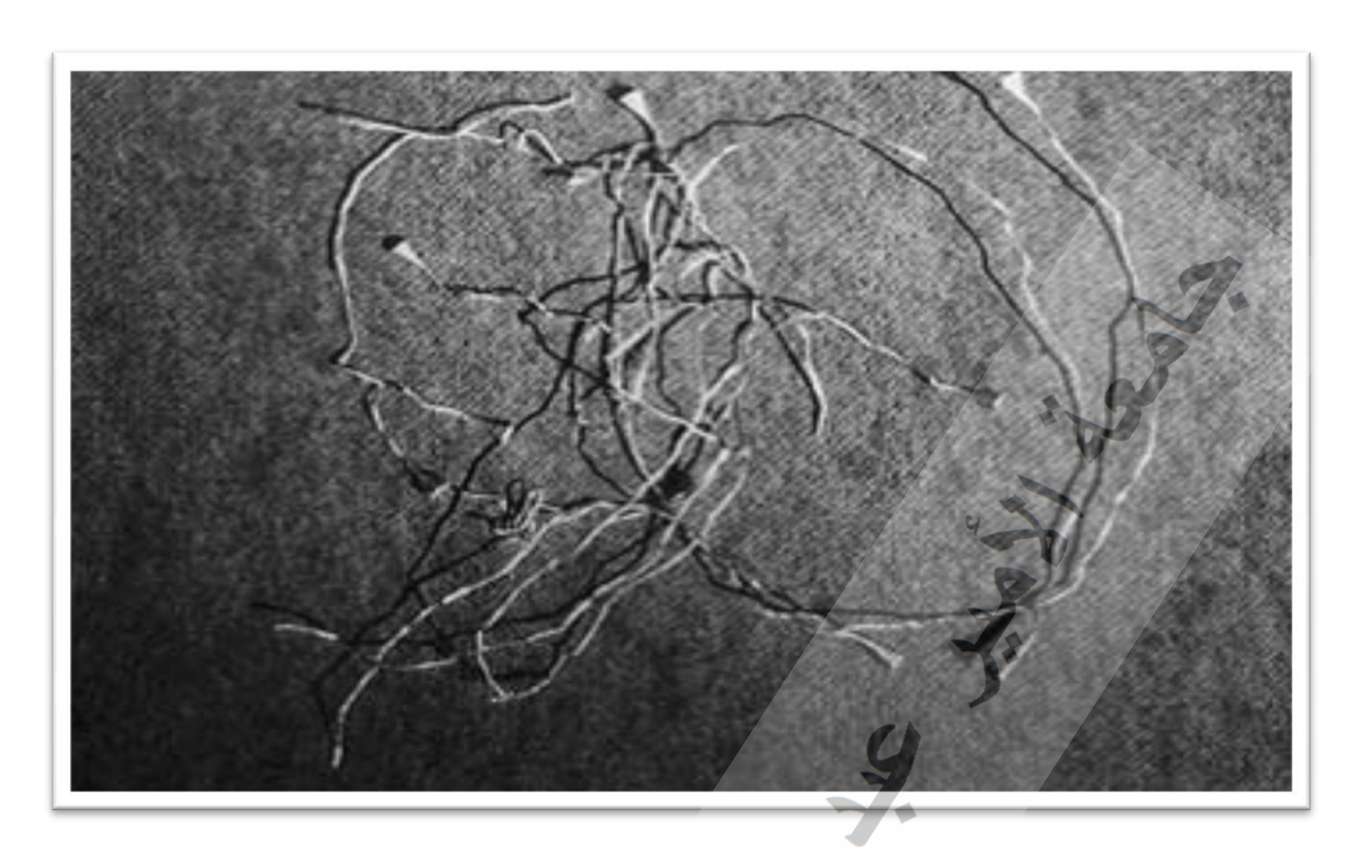
الصورة رقم 1: مسجد أودغشت بعد أعمال الحفر والصون التي أجريت على حوائطه[1].



الصورة رقم 2:بعض المنازل التي كشف عنها التنقيب الأثري في أودغشت[2].

1– ف دي ميديروس،" شعوب السودان: تنقل السكان"، تاريخ إفريقيا العام، لبنان ، اليونسكو، ط2،1997،ص:157.

2 -Raymand Mauny, Les siècles obscures…,op.cit.p:152.

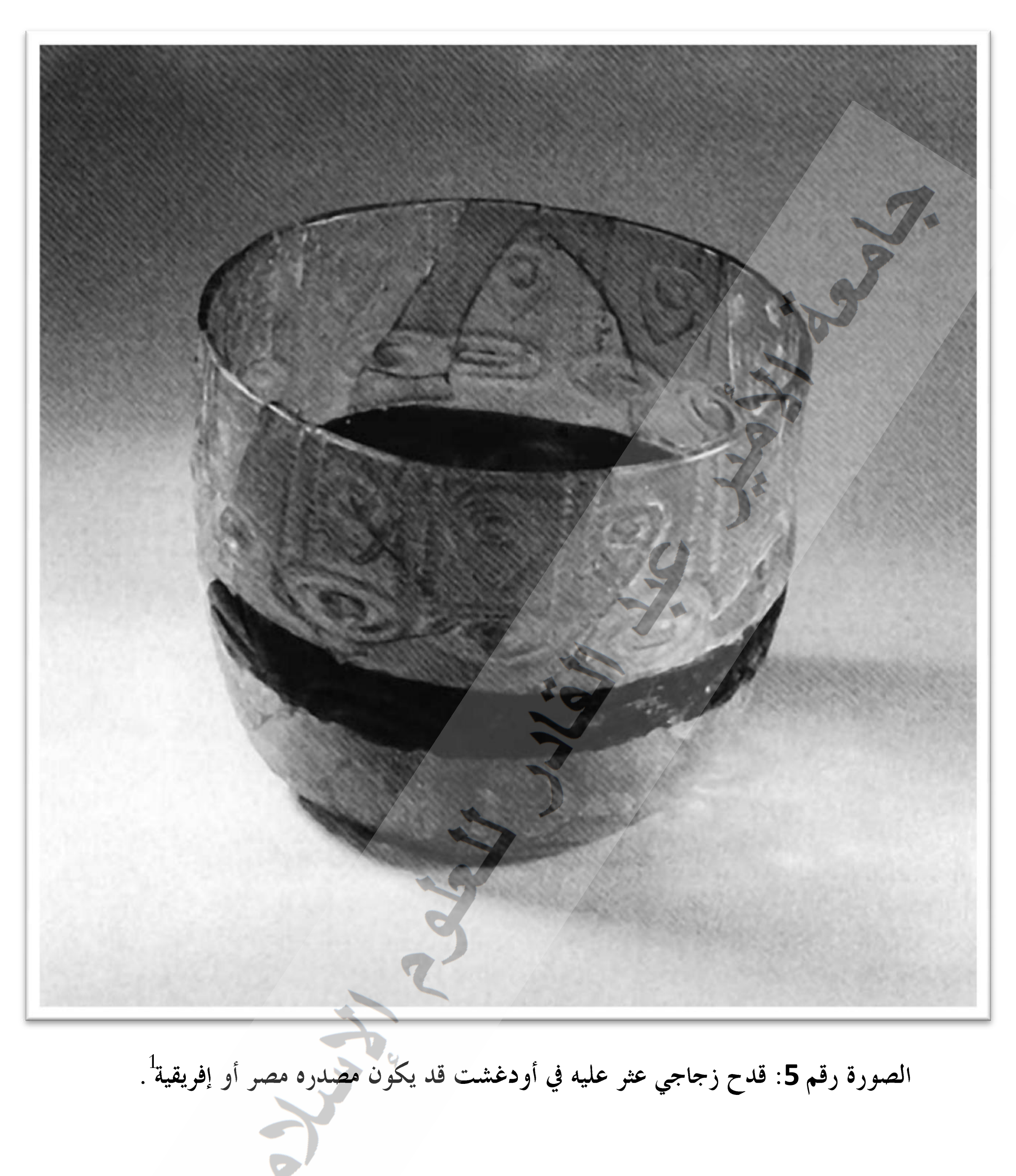


الصورة رقم **3**: أسلاك ذهبية عثر عليها في أودغشت.[1]



الصورة رقم **4**: سبائك ذهبية عثر عليها في أودغشت.[2]

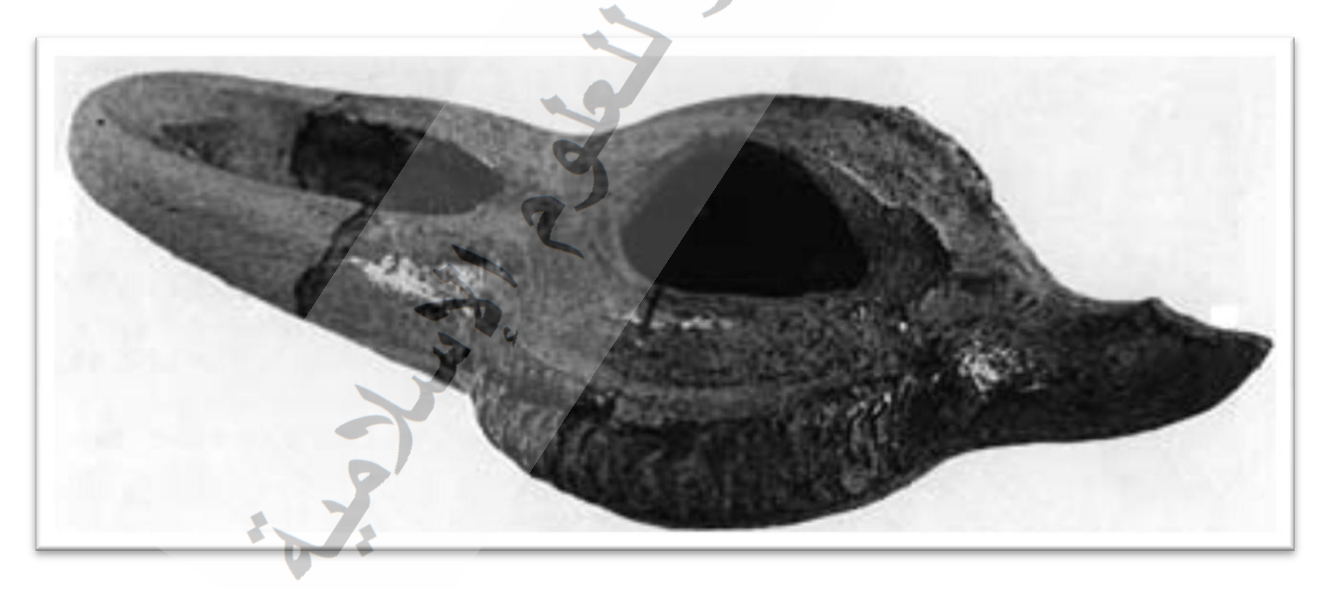
[1] - Jean Devisse, op.cit.p:432.
[2] - Ibid.p:432.



الصورة رقم 5: **قدح زجاجي عثر عليه في أودغشت قد يكون مصدره مصر أو إفريقية**[1].

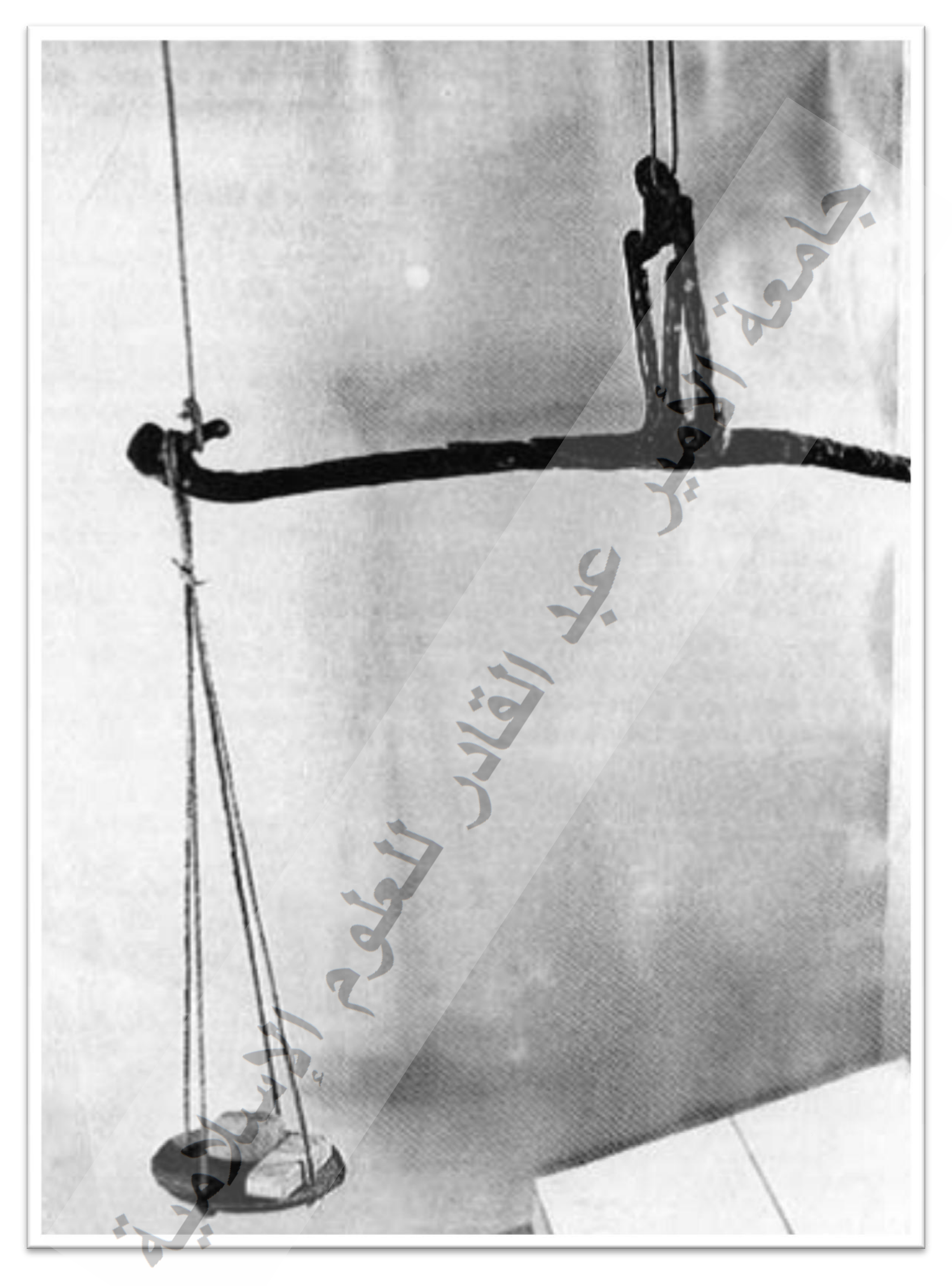
[1]- Ibid.p:448.

الصورة رقم 6: قلة فخارية عثر عليها بأودغشت يحتمل أن تكون مجلوبة من المغرب حوالي:ق4هـ/10م إلى ق6هـ/12م[1].



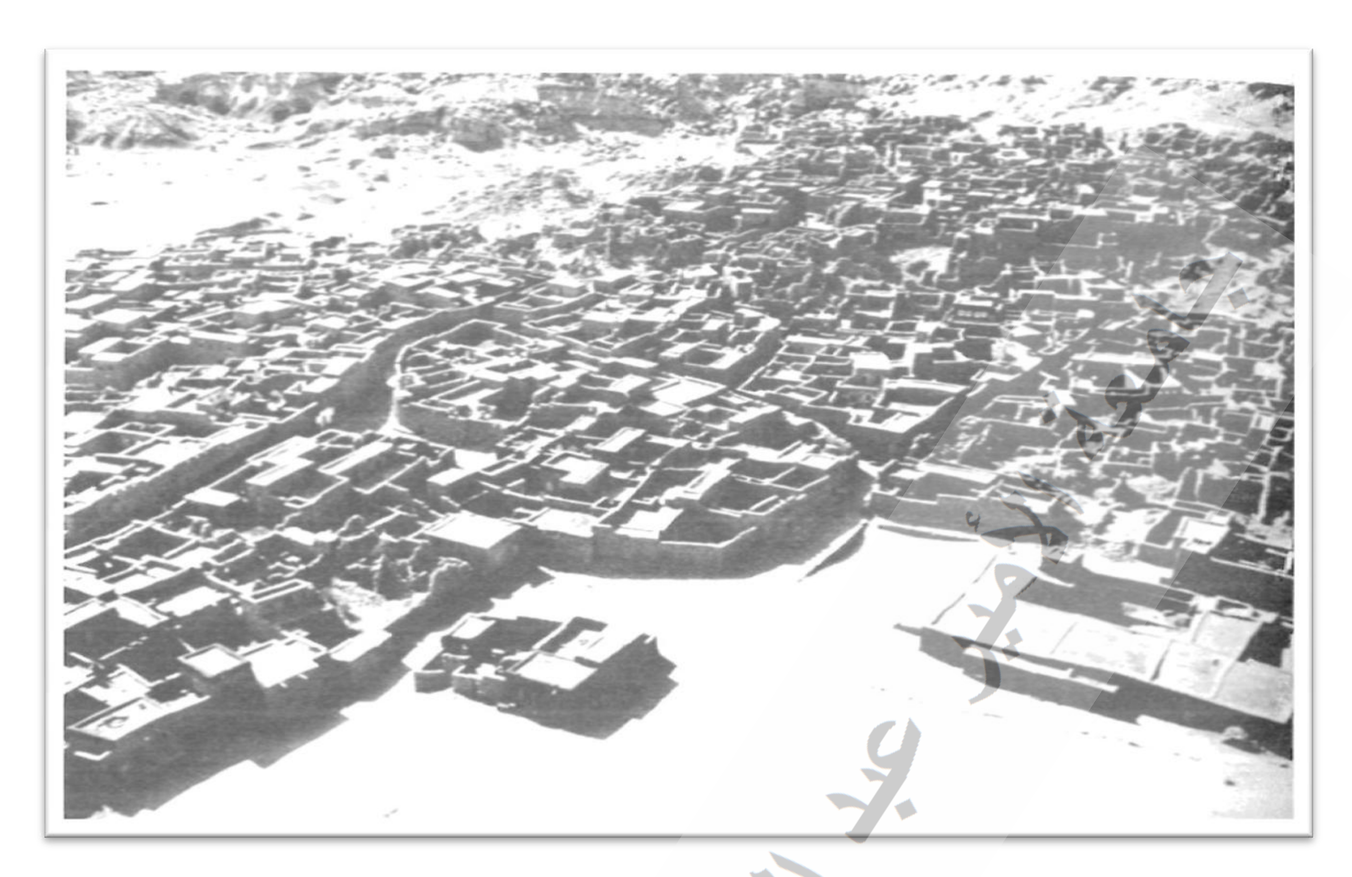
الصورة رقم7. مصباح زيتي مصنوع من الفخار وزين بصبغه بالزجاج عثر عليه في أودغشت.[2]

[1] - Ibid.p:420.
[2] - Ibid.p:447.

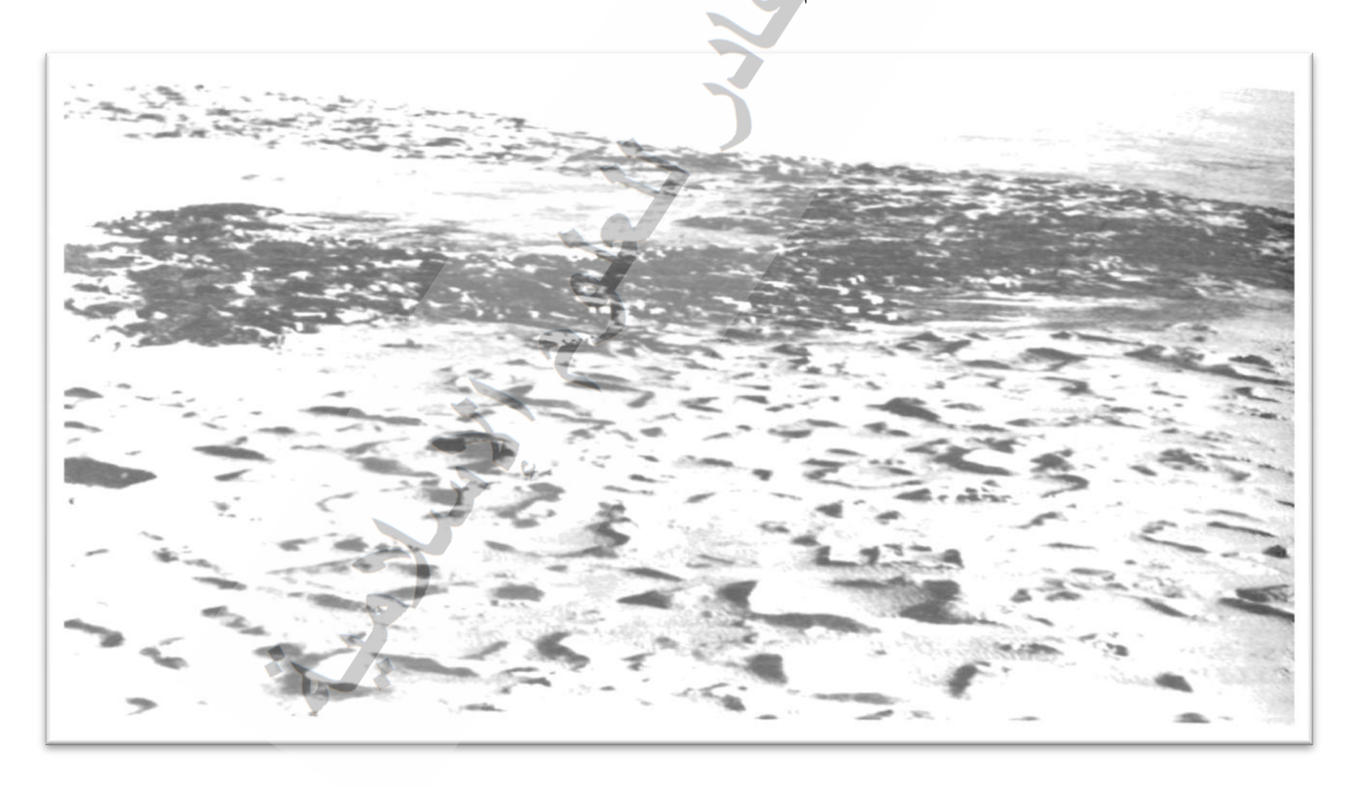


الصورة رقم **8**: ميزان من صنع محلي عثر عليه بأودغشت يعود للفترة بين ق**5**هــ/**11**م وق**6**هــ/**12**م[1].

[1]- Ibid.p:462.



الصورة رقم **9**: منظر جوي لمدينة ولاّتة[1].



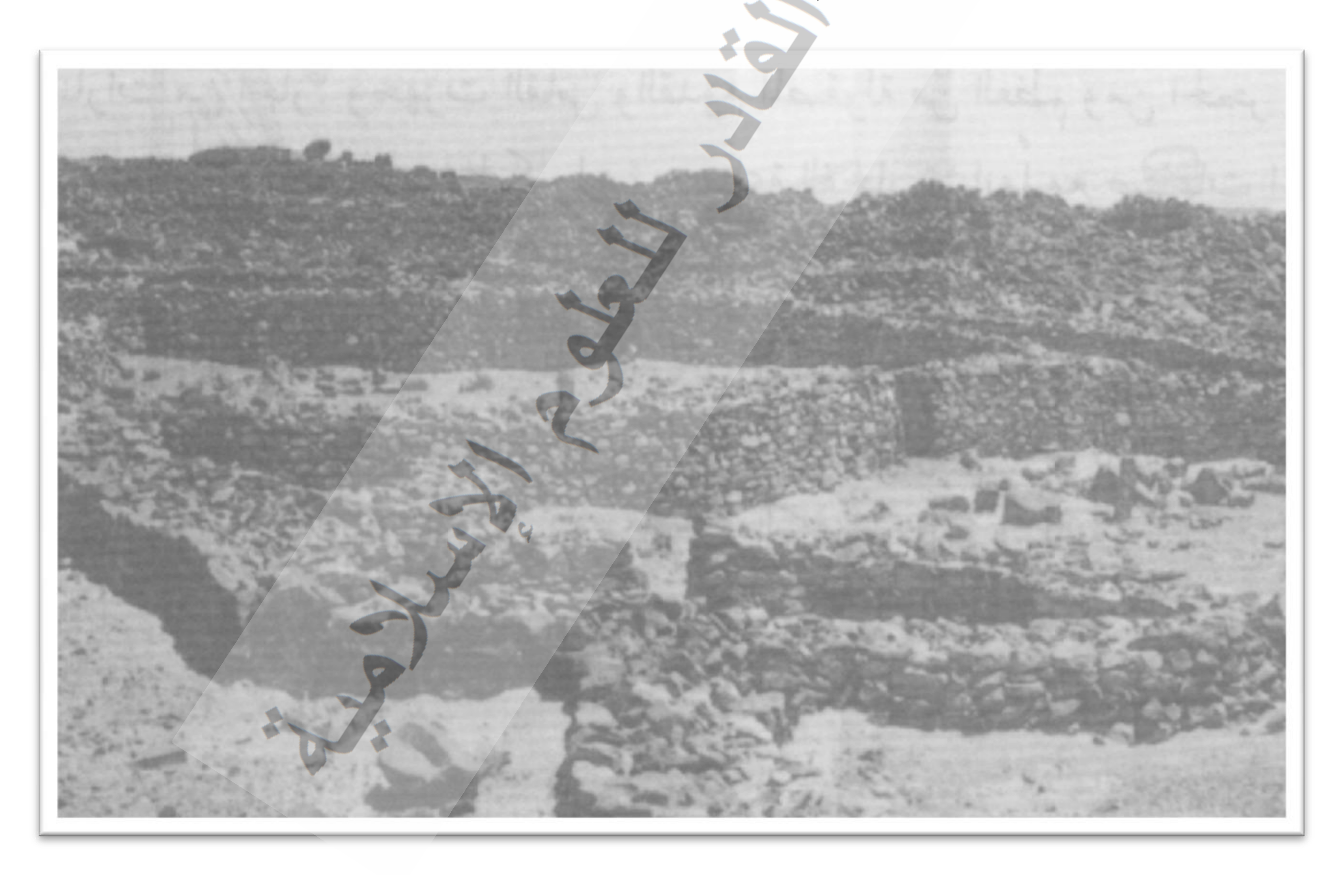
الصورة رقم **10**: منظر جوي لموقع مملحة تغازة[2].

[1] Raymand Mauny, op.cit.p: p:268.

[2]- Ibid.p:176.



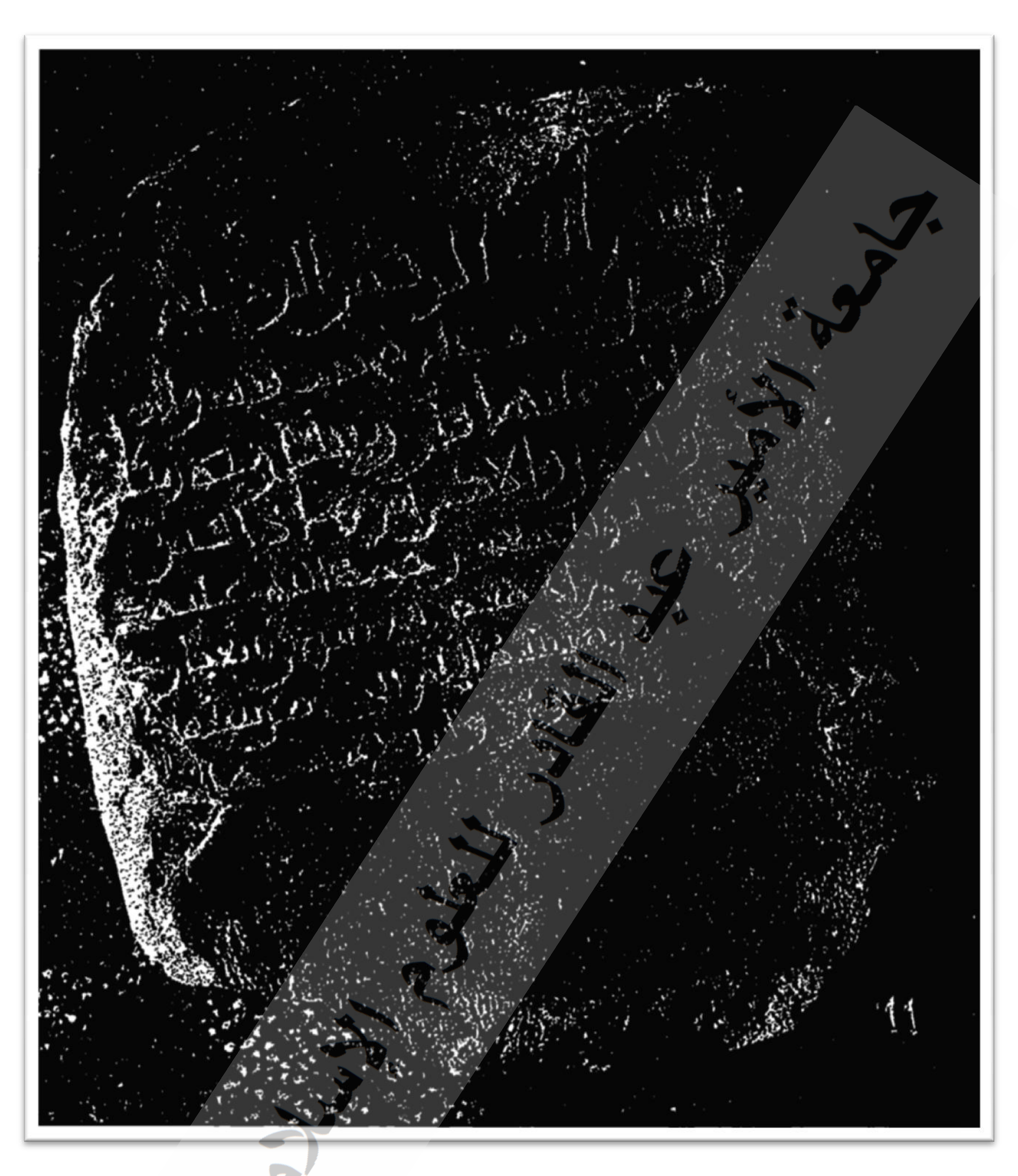
الصورة رقم11: المسجد الكبير في تنبكت[1].



الصورةرقم 12: أسوار حجرية من مدينة تيشيت الأثرية[2].

[1] - Ibid,p:159.

[2]- ديفيدو فيلبسون، المرجع السابق،ص:227.



الصورة رقم13: أحد شواهد جاو-ساني،شاهد مستطيل من حجر الكوارتز

إرتفاعه:0.38م وعرضه:0.28م

كتب عليه: هذا قبر محمد بن الجمعة رحمه الله توفي يوم الجمعة السادس من شعبان496هـ[1].

[1]- سينيكي مودي سيسوكو، المرجع السابق،ص:201.



الصورة رقم 14: الثعبان واغادو بيدا إله السوننك (من نحت قبائل اليوروبا)[1].



الصورة رقم 15:نوع من القوارب التقليدية التي كانت تستعمل في النقل النهري ببلاد السودان[2].

[1]- جوان جوزيف ، المرجع السابق، ص:49.

[2] - Raymand Mauny, op.cit.p:87.

قائمة المصادر و المراجع

أ- المصـــــــــــــادر:

- ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي (ت658هـ/1259):

1- **التكملة لكتاب الصلة** ،تح: عبد السلام الهراس، بيروت،دار الفكر للطباعة ،1995،ج3.

- ابن أبي زرع علي الفاسي (ت:726هـ/1325):

2- **الأنيس المطــرب بروض القرطــاس في أخبـــــار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس** ،الرباط ،دار المنصور،1972.

- ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت1092هـ1681م):

3- **المؤنس في أخبار إفريقية و تونس**، تونس ، مطبعة الدولة التونسية، 1286 هـ.

- ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني (ت630هـ/1232م):

4- **الكامل في التاريخ**،تح:أبو الفداء عبد الله القاضي ، بيروت ،دار الكتب العلمية ،1997،ج8.

- ابن الأحمر أبوالوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي (ت807هـ/1404م):

5- **بيوتات فاس الكبرى**، الرباط، دار المنصور، 1972.

- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (ت 560هـ/1164م):

6- **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تح:ر.روبيناتشي وآخرون ، بيروت مكتبة الثقافة الدينية، دت ،ج1.

- الأزهري أبومنصور محمد بن أحمد (ت370هـ/980م):

7- **تهذيب اللغة** ،تح:محمد عوض مرعب ،بيروت ،دط ،2001 ،ج2.

- الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت بعد 350هـ/960م):

8- **مسالك الممالك** ،ليدن ،مطبعة بريل ،1927.

- البرتلي أبوعبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي (ت 1219هـ/1716م):

9- **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور** ، تح:محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي ،بيروت ،دار الغرب الإسلامي ،1981.

- البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي (ت 841هـ/1437م):

10- **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام** ، تح: محمد الحبيب الهيلة، بيروت، دار الغرب الإسلامي ،2002،ج5

- البرسوي محمد بن علي التركي المعروف بـــ: سباهي زادة(ت997هـــ/1588م):

11- **أوضح المســـالك إلى معرفة البلدان والممـــالك** ،تح: المهدي عيد الرواضية، بيروت، دار الغرب الإسلامي،2006.

- ابن بسام أبو الحسن علي الشنتريني (ت: 542هـــ/1147م):

12- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، تح:إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة ،1979 ،ج7.

- ابن بطـــــوطة. محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779هـــ/1377م):

13- **رحلةابن بطوطة المسماة تحفة النظارفي غرائب الأمصار** ،تح:طلال حرب،ط4،بيرةت،دار الكتب العلمية، 2007.

- البكري أبو عبد الله عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت487هـــ/1094م):

14- **المسالك و الممالك** ،تح :جمال طلبة ، بيروت ، دار الكتب العلمية، 2003 ،ج2.

- البيدق أبوبكر بن علي الصنهاجي (ق6هـــ/12م):

15- **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**،تح:عبدالوهاب بن منصور، الرباط ،دارالمنصور،1971

- التادلي يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات (ت 617هـــ/1220م):

16- **التشوف إلى رجال التصوف** و **أخبار أبي العباس السبتي** ، تح: أحمد التوفيق،ط 2، الدار البيضـــــاء، مطابع النجاح الجديدة،1997.

- التنبكتي أبوالعباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد الصنهاجي السوداني (ت 1036هـــ/1626م):

17- **نيل الإبتهاج بتطريز الديباج** ،تح: عبدالحميد عبد الله الهرامة ،طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1989.

18- **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، تح: علي عمر،القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية، 2004.

- التجاني أبومحمد عبد الله بن محمد بن أحمد التونسي (ت بعد 707هـــ/1307م):

19- **رحلة التجاني** ، تح:حسن حسني عبد الوهاب، تونس ،الدار العربية للكتاب ،1981.

- الجزنائي أبوالحسن علي (من أهل القرن 8هـــ/14م):

20- **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تح:عبد الوهاب بن منصور ،ط2،الرباط ،المطبعة الملكية،1991.

- ابن حزم أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري الأندلسي (ت456هـــ/1063م):

21- **رسالة في جمل فتوح الإسلام** (ضمن **رسائل إبن حزم الأندلسي**) ، تح : إحسان عباس ،ط 2،بيروت، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ،دت، ج2.

- الحموي أبوعبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ/1228م):

22- **معجم البلدان** ،بيروت ،دار صــادر،1977،ج1،4،5.

- الحميري أبوعبد الله محمد بن عبد المنعم (ت727هـ/1326م):

23- **الروض المعطـــــار في خبر الأقطـــــار**،تح:إحســـان عباس ،ط2،بيروت،مكتبة لبنان،1984.

- ابن حوقل أبوالقاسم النصيبي (ت بعد 367هـ):

24- **صورة الأرض**، بيروت ، دار مكتبة الحياة ،1996.

- ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت300هـ/912م):

25- **المسالك و الممالك** ،ليدن ،مطبعة بريل ،1889.

- ابن الخطيب لسان الدين السلماني الغرناطي (ت 776هـ/1374م):

26- **تاريخ المغرب العربي في العصرالوسيط – القسم الثالث من كتاب أعمـــال الأعلام –** ،تح:أحمد مختار العبادي و محمد إبراهيم الكتاني،الدار البيضاء،دار الكتاب ،1964.

27- **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تونس ،مطبعة التقدم الإسلامية ،1913.(منسوب له).

- ابن خلدون أبوزيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت808هـ/1405م):

28- **المقدمة** ،تح: خالد العطار، بيروت، دار الفكر ،2003.

29- **تاريخ ابن خلدون**،تح:خليل شحادة ،بيروت ,دار الفكر،2001،ج4،5،6،7.

- ابن خياط أبو عمر شباب خليفة العصفوري (ت 240هـ/854م):

30- **تاريخ خليفة بن خياط**،تح:أكرم ضياء العمري،دمشق ،دار القلم،1397هـ.

- الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 670هـ/1271م):

31- **كتاب طبقات المشائخ بالمغرب** ،تح:إبراهيم طلاي، قسنطينة ، مطبعة البعث ،1974،ج2.

- الدمشقي شمس الدين محمد بن أبي طالب (ت727هـ/1326م):

32- **نخبة الدهر في عجائب البر و البحر** ، نشر: M.A.F.Mehern ،ليبزج،1923.

- الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1347م):

33- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام** ،تح: عمر عبد السلام تدمري ،بيروت ،دار الكتاب العربي، 199 ،ج43.

34- **سير أعلام النبلاء**، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون،ط9،بيروت ،مؤسسة الرسالة،1993،ج18.

- الرقيق القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت 420هـ/1029م):

35- **تاريخ إفريقية و المغرب** ،تح : عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى،بيروت ،دار الغرب الإسلامي، 1990.

- الزبيدي محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت 1205هـ/1790م):

36- **تاج العروس من جواهر القاموس** ، تح: دار الهداية، دم، دار الهداية ، د ت، ج35.

• الزهري محمد بن أبي بكر الأندلسي (ق6هـ/12م):

37- **كتاب الجعرافية**، تح:محمد حاج صادق، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، دت.

• سحنون بن سعيد التنوخي (ت240هـ/854م):

38- **المدونة الكبرى** ، تح :زكريا عميرات ، بيروت ،دار الكتب العلمية ،دت، ج3.

• السعدي عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر(ت:بعد1066هـ/1655م):

39- **تاريخ السودان** ،تح،:هوداس ،باريس، Libraire d Amerique et d' orient،1981.

• ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي (ت685هـ/1286م):

40- **كتاب الجغرافيا** ،تح:إسماعيل العربي، بيروت، منشورات المكتب التجاري ،1970.

• السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني (ت 576هـ/1180م):

41- **معجم السفر** ،تح:عبد الله عمر البارودي،مكة المكرمة ،المكتبة التجارية ،دت.

• السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت911هـ/1505م):

42- **الحاوي للفتاوى في الفقه و علوم التفسير و الحديث و الأصول و النحو و الإعراب و سائر الفنون** ، تح:عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ،بيروت ،دار الكتب العلمية،2000، ج1.

43- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة**،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط2،دارالفكر،1979، ج1.

• الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 928هـ/1522م):

44- **كتاب السير** ،تح:محمد حسن ،بيروت ،دار المدار الإسلامي ،2009، ج2.

• ابن الصغير (ت النصف الثاني من ق3هـ/9م):

45- **أخبار الأئمة الرستميين** ،تح :محمد ناصر و إبراهيم بحاز، الجزائر ، المطبوعات الجميلة ،1986.

• الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1362م):

46- **الوافي بالوفيات** ،تح: أحمد الأرنؤوط و تركي مصطفى،بيروت ، دار إحياء التراث،2000، ج7.

• ابن عبد الحكم أبوالقاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي المصري (ت257هـ/870م):

47- **فتوح مصر و أخبارها**، تح: محمد الحجيري، بيروت :دار الفكر ،1996.

• ابن عبد الملك المراكشي أبو عبد الله محمد الأوسي (ت703هـ/1303م):

48- **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** ،تح:محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، ج8.

- ابن عذارى المراكشي (ت بعد 712هـ/1312م):

49- **البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب.**

* الجزء 1: تح :ج.س.كولان ، إ.ليفي بروفنسال،ط3،بيروت ،دار الثقافة ،1983.

* الجزء 4: تح: إحسان عباس ،ط3،بيروت ،دار الثقافة ،1983.

- العياشي أبوسالم عبد الله بن محمد (ت1090هـ/1679م):

50- **الرحلة العياشية** ،تح:سعيد الفاصلي وسليمان القرشي، أبوظبي، السويدي،2006،ج1.

- أبو الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن شاهنشاه (ت 732هـ/1331م):

51- **تقويم البلدان** ، نشره رينود والبارون دي سلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، 1840.

- ابن فضل الله العمري أحمد بن يحيى (ت 749هـ/1348م):

52- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ،تح:حمزة أحمد عباس ،أبو ظبي ، المجمع الثقافي ،2002،ج4.

- ابن الفقيه أحمد بن محمد بن اسحاق الهمذاني (ت بعد 290هـ/902م):

53- **مختصر كتاب البلدان**،ليدن ،مطبعة بريل ،1884م.

- الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ/1414م):

54- **القاموس المحيط** ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، دت.

- القزويني زكرياء بن محمد بن محمود الشافعي (ت 682هـ/1283م):

55- **آثار البلاد و أخبار العباد** ،بيروت، دار صادر، دت.

- القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت 544هـ/1149م):

56- **تراجم أغلبية**، مستخرجة من مدارك القاضي عياض،تح: محمد الطالبي ، تونس ، الجامعة التونسية ،1968

57- **الغنية** ،تح:ماهر زهير جرار، بيروت، دار الغرب الإسلامي ،1982.

- القلقشندي أبو العباس أحمد (ت821هـ/1410م):

58- **صبح الأعشى في صنـــاعة الانشا**، القاهرة، دار الكتب المصرية،ج 5.

- كعت محمود بن الحاج المتوكل الكرمني التمبكتي (ت 1002هـ/1593م):

59- **تاريخ الفتاش في أخبارالبلدان والجيوش وأكابر الناس**، تح وتر: هوداس ودولافوس، أنجي،بريدن،1913

- المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد القيرواني (ت 438هـ/1046م):

60- **رياض النفوس في طبقـــات علمـــاء القيـــروان** ، تح:بشير البكـــوش،ط 2،بيروت،دارالغـــرب الإســـلامي،1994،ج1،2.

- مجهول (ت بعد 372هـ/982م):

61- **حدود العالم من المشرق إلى المغرب** ،تح : يوسف الهادي، القاهرة ،الدار الثقافية للنشر ،1999.

- مجهول (كان حيا أواخر القرن 6هـ/12م):

62- **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار** ،تح:سعد زغلول عبدالحميد،بغداد،دار الشؤون الثقافية العامة،1986.

- مجهول (كان حيا سنة 712هـ/1321م):

63- **مفاخر البربر**، تح:عبد القادر بوباية،الرباط ،دار أبي رقراق، 2005.

- المراكشي عبد الواحد (ت 647هـ/1249م):

64- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، دار الفرجاني،دت.

- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت 345هـ/956م):

65- **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان و الغامر بالماء و العمران** ،تح:عبد الله الضاوي، بيروت، دار الأندلس، 1986.

66- **مروج الذهب و معادن الجوهر**،تح:محيي الدين عبد الحميد، ط5، بيروت، دار الفكر،1973.

- المقدسي محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 380هـ/990م):

67- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، مطبعة بريل، 1909.

- المقري أبو العباس أحمد المقري التلمساني (ت 1041هـ/1631م):

68- **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، تح:مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر ،1939.ج3.

69- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ،تح إحسان عباس، بيروت ،دار صادر،د ت ،ج3.

- المقريزي تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت845هـ/1441م):

70- **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك** ،تح:جمال الدين الشيال ،بورسعيد ،مكتبة الثقافة الدينية،2000

- المهلبي الحسن بن أحمد (ت380هـ/990م):

71- **الكتاب العزيزي أو المسالك و الممالك**، تح :تيسير خلف،دمشق دار التكوين ،2006.

- ابن منظور محمد بن مكرم الإفريقي (ت 711هـ/1311م):

72- **لسان العرب**، بيروت ، دار صادر، دت، ج1.

- ابن نظيف الحموي أبو الفضائل محمد بن علي (ت637هـ/1239م):

73- **التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف و البيان في حوادث الزمان)** ،تح:أبوالعيد دودو،دمشق ،مطبوعات مجمع اللغة العربية،د ت.

- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد التميمي القرشي (ت 732هـ/1332م):

74- **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، تح :عبد المجيد ترجيني، بيروت ، دار لكتب العلمية، دت، ج24.

- ابن الوردي سراج الدين أبو حفص عمر (ت861هـ/1456م):

75- **خريدة العجائب وفريدة الغرائب الدال على بدائع الأقطار والبحار و خصائص البلدان والأحجار**، القاهرة ، 1923.

- الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي (ت بعد 957هـ/1550م):

76- **وصف إفريقيا** ، تر :محمد حجي و محمد الأخضر، ط2، بيروت ،دار المغرب الإسلامي،1983،ج2.

- الوسياني أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان (ق6هـ/12م):

77- **سير الوسياني** ، تح : عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة ،مسقط، وزارة التراث والثقافة ،2009،ج1.

- الونشريسي أحمد بن يحيى التلمساني (ت 914هـ/1508م):

78- **المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب** ،إشراف محمد حجي ، بيروت،دار الغرب الإسلامي ،الرباط ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ،1981.ج9.

- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284هـ/897م):

79- **كتاب البلدان**، ليدن ،مطبعة بريل ،1860.

80- **تاريخ اليعقوبي** ،ليدن ، مطبعة بريل ،1883، ج1.

ب- المراجع:

1- المراجع باللغة العربية:

- أبوصوة محمد:

81- **تاريخ العرب الاجتماعي والاقتصادي في العصر الوسيط قراءة مغايرة** ، مالطا، منشورات ELGA ،2000.

82- **مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي**، مالطا،منشورات ELGA،1997.

- احنانا يوسف:

83- **تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي** ، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،2003.

- إسماعيل محمود:

84- **فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية**، القاهرة ، مكتبة مدبولي،1988.

85- **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، الدار البيضاء،دار الثقافة،1985.

- باري محمد فاضل علي و كريدية سعيد إبراهيم:

86- **المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة** ، بيروت، دار الكتب العلمية ،2007.

- بحاز إبراهيم:

87- **الدولة الرستمية 160-296هـ/777-909م دراسة في الأوضـــاع الاقتصادية و الحياة الفكرية** ، ط2، الجزائر ، منشورات ألفا ،2010.

- برايماباري عثمان:

88- **جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي**، القاهرة ، دار الأمين،2000.

- بشي إبراهيم العيـــــد:

89- **تاسيلي ناجر الأزمنة الجيولوجية و المؤشرات الحضارية و العوامل الطبيعية المكونة للمنطقة** ، الجزائر، منشورات الحبر ،2008.

- بنشريفة محمد:

90- **إبراهيم الكـــانمي أنموذج مبكـــر للتواصل الثقـــافي بين المغرب وبلاد السودان** ،الرباط ،منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1991.

- بن عميرة محمد:

91- **الفتح الإسلامي لبلاد المغرب**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،2008.

- بنمليح عبد الإله:

92- **الرق في بلاد المغرب والأندلس**، بيروت ، مؤسسة الانتشار العربي، 2004.

- بوتشيش إبراهيم القادري:

93- **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**، بيروت، دار الطليعة،2002.

94- **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين** ،بيروت ،دار الطليعة ،2000.

- بوروينة الشادلي و الطاهر محمد:

95- **قرطاج البونية** ، تاريخ وحضارة ، تونس ، أو ربيس للطباعة ،1999.

- بوطالب محمد نجيب:

96- **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ،2002.

- التهامي إبراهيم:

97- **الأشعرية في المغرب، دخولها،رجالها، تطورها وموقف الناس منها**،الجزائر، دار قرطبة ، 2006.

- الجمل شوقي عطاء الله و إبراهيم عبدالله عبد الرزاق:

98- **تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر** ،ط2،الرياض ،دار الزهراء،2002.

99- **دراســات في تاريخ غرب إفريقيــا الحديث و المعــاصر**،القــاهرة، دط،1998.

- الجنحاني الحبيب:

100- **دراســات في التــاريخ الاقتصادي والاجتمــاعي للمغــرب الإســلامي** ،ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1986.

- حسن إبراهيم حسن:

101- **إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية** ،ط3، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة،1984.

- حسن محمد:

102- **القبائل و الأرياف المغربية في العصر الوسيط**،تونس ،دار الرياح الأربع للنشر،1986.

103- **المدينة و البادية بإفريقية في العهد الحفصي** ،تونس ، منشورات جامعة تونس الأولى، 1999.

- الدالي الهادي المبروك:

104- **التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية،1999.

- دندش عصمت عبد اللطيف:

105- **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، بيروت، دارالغرب الإسلامي، 1988 .

- ذهبي إلهام محمد علي:

106- **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي**،الرياض ، دار المريخ، 1988.

- رية عطا علي محمد شحاته:

107- **اليهود في بلاد المغرب الإقصى في عهد المرينيين و الوطاسيين**، دمشق ، دار الكلمة ،1999.

- زبادية عبد القادر:

108- **الحضــارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء** ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989.

- الزركلي خير الدين:

109- **الأعلام** ، ط15، بيروت ، دار العلم للملايين ،2002 ، ج1.

- سامعي إسماعيل:

110- **تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي** ، قسنطينة، مكتبة إقرأ، 2007.

111- **دور المذهب الحنفي في الحيــاة الاجتماعية والثقــافية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى الخامس الهجري (8-11) م**، عين مليلة، دار الهدى،2006.

- سعد فهمي:

112- **إنتشار الإسلام في إفريقيا في العصور الوسطى** ، بيروت ، عالم الكتب ،2001.

- الشرباصي أحمد:

113- **المعجم الاقتصادي الإسلامي** ، دم،دار الجيل ، 1981.

- الشكري أحمد:

114- **الإسلام و المجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230م-1430م)**،أبو ظبي ، المجمع الثقافي، 1999.

115- **مملكة غانة و علاقتها بالحركة المرابطية** ،الرباط ، معهد الدراسات الإفريقية ،1977.

- شلبي أحمد:

116- **موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية**، ط4، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ،1983،ج6.

- الشنقيطي أحمد الأمين:

117- **الوسيط في تراجم شنقيط** ، القاهرة، مكتبة الخانجي، موريتانيا، مؤسسة المنير ، 1989.

- طاهر أحمد:

118- **إفريقيا فصول من الماضي و الحاضر** ، دار المعارف ، القاهرة ،1979.

- طه جمال أحمد:

119- **مدينة فــاس في عصري المــرابطين و المــوحدين 448هــ/1056م إلى 668هــ/1269م دراسة سيــاسية وحضارية**، الإسكندرية ، دار الوفاء ،2001.

- الطيبي أمين توفيق:

120- **دراسات و بحوث في تاريخ المغرب و الأندلس**، تونس ، الدار العربية للكتاب ،1997.

- عبد الحميد سعد زغلول:

121- **تاريخ المغرب العربي**، الإسكندرية ، منشأة المعارف،1995 ،ج4.

- عبداللطيف علي محمد:

122- **تمبكتو أسطورة التاريخ** ، بنغازي ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،2001.

- العدواني محمد الطاهر:

123- **الجزائر منذ نشأة الحضارة** (**عصور ما قبل التاريخ و فجر التاريخ**) ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

- العربي إسماعيل:

124- **الصحراء الكبرى و شواطئها** ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، دت.

- العروي عبد الله:

125- **مجمل تاريخ المغرب** ، ط2، الدار البيضاء ، المركز الثقافي المغربي ، 2009.

- عقون محمد العربي:

126- **الاقتصاد و المجتمع في الشمال الإفريقي القديم** ، عين مليلة ، دار الهدى ،2008.

- عمارة محمد:

127- **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، القاهرة، دار الشروق، 1993.

- عمر مصطفى أبو ضيف أحمد:

128 - **القبائل العربية ببلاد المغرب في عصري الموحدين و بني مرين**،الجزائر،ديوان المطبوعاتالجامعية ،1982.

- عيبش يوسف:

129- **الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب دراسة للأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية** ،الجزائر، دار بهاء الدين، الأردن، عالم الكتاب الحديث ،2009.

- الغربي محمد:

130- **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، الكويت ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ،1982.

- فرحاتي فتيحة:

131- **نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الإحتلال الروماني 213ق م–46ق م**، الجزائر، منشورات أبيك، 2007.

- الفلاني عمرمحمد صالح" عمربا":

132- **الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا،** بيروت، مؤسسة الرسالة،1993.

- الفيتوري عطية مخزوم:

133- **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء (مرحلة إنتشار الإسلام)** ، بنغازي ، منشورات جامعة قاريونس ،1998.

- كواتي مسعود:

134- **اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين** ، الجزائر ، دار هومة،2009.

- لقبال موسى:

135- **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية**، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1979.

- المجدوب عبد العزيز:

136- **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**، تونس، الدار التونسية للنشر، 1975.

- محمد نبيلة حسن:

137- **في تاريخ إفريقيا الإسلامية**،السويس، دار المعرفة الجامعية،2007.

- محمود حسن أحمد:

138- **الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا** ، القاهرة ، دار الفكر العربي ،1986.

139- **قيام دولة المرابطين** ،القاهرة ،دار الفكر العربي،دت.

- محمود خالد حسين:

140- **الرقيق والحياة الاجتماعية ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام** ،القاهرة، مصر العربية للنشر، 2009.

- مرجان سحر عنتر محمد أحمد:

141- **فقهــاء المــالكية وآثارهم في مجتمع الســـودان الغــربي في عهـــدي مـــالي وصنغي(628-1000هــ/1230-1591م)**، القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية،2011.

- مصطفى إبراهيم وآخرون:

142- **المعجـــم الوسيـــط**، دم، دار الدعوة، دت.

- مقلاتي عبدالله ورموم محفوظ:

143- **دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية**،الجزائر،دارالشروق،2009

- مهران محمد بيومي:

144- **المغرب القديم** ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ،1990.

- موسى عزالدين عمر:

145- **دراسات إسلامية غرب إفريقية** ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ،2003.

146- **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**،القاهرة،دارالشروق ،1983.

- مومن أحمد:

147- **اللسانيات النشأة والتطور**،ط4، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2008.

- مؤنس حسين:

148- **إبن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل** ، القاهرة ، دار المعارف ،1980.

149- **أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة**، الزهراء للإعلام العربي،1987.

150- **معالم تاريخ المغرب و الأندلس**،القاهرة ،دار الرشاد ،2004.

- ناصر محمد صالح

151- **دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا**، عمان، الدار العمانية للنشر والتوزيع، 1992.

- الناصري أبوالعباس أحمد بن خالد السلاوي:

152- **الإستقصا لأخبـــار المغرب الأقصى** ،تح:جعفر النـــاصري ومحمد النـــاصري، الدار البيضـــاء، دار الكتاب،1997، ج5.

- النحوي الخليل:

153- **بلاد شنقيط المنارة و الرباط**،تونس ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1978.

- الهنتاتي نجم الدين:

154- **المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي** ، تونس، منشورات تبر الزمان،2004.

- ولد حامد المختار:

155- **موسوعة حياة موريتانيا ــ التاريخ السياسي ــ**،بيروت ،دار الغرب الإسلامي ،2000.

- ولد الحسين الناني:

156- **صحراء الملثمين** دراسة لتاريخ موريتانيا و**تفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن2هــ/8م إلى نهاية القرن 5هــ/11م**، بيروت،دار المدار الإسلامي،2007.

- ولد السالم حماه الله:

157- **تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية** ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة،2007.

- يوسف جودت عبد الكريم:

158- **الأوضـــاع الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (9-10م)** ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،1992.

2- المـراجع المعـــربة:

- بانيكار مادهو:

159- **الوثنية و الإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقيا** ،تر : أحمد فؤاد بعلبع ، ط 2، الهيئة العامة لشؤون المطابع الإميرية، 1997.

- برنيان أندري وآخرون:

160- **الجزائربين المــاضي والحـــاضر**، تر:اسطنبولي رابح و منصف عــاشور، الجزائر، ديوان المطبوعــات الجامعية، 1984.

- بوفيل:

161- **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير** ،تر:الهادي أبو لقمة و محمد عزيز،بنغازي، منشورات جامعة قاريونس،1988.

- بولم دونيس:

162- **الحضارات الإفريقية**، تر:علي شاهين، بيروت، منشورات مكتبة الحياة ، 1974.

- جوزيف جوان:

163- **الإسلام في ممـــالك وإمبراطوريـــات إفريقيا السوداء** ، تر:مختـــار السويفي،القاهرة، دار الكتاب المصري،1984.

- دوبلانهول كزافييه:

164- **تاريخ أرض الإســـلام الأسس الجغرافية لتـــاريخ الإسلام** ، تر: معـــاوية سعيدوني، تونس، دارالغرب الإسلامي، 2008.

- دي فيج جي:

165- **تاريخ غرب إفريقيا**، تر:السيد يوسف نصر ، القاهرة ، دار المعارف ،1982.

- ديكريه فرانسوا:

166- **قرطاج أو امبراطورية البحر** ، تر: عز الدين أحمد عزو ، دمشق، دار الأهالي، 1996.

- فيليبسون ديفيدو:

167- **علم الآثار الإفريقي** ، تر:أسامة عبد الرحيم النور، منشورات ELGA ، فاليتا - مالطا ،2002.

- كراتشوفسكي أغناطيوس يوليانوفيتش:

168- **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** ،تر:صلاح الدين عثمان هاشم،ط2،تونس،دار الغرب الإسلامي ،2008.

- كزنتو :

169- **الحضارة الفينيقية** ، تر محمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة ، مركز كتب الشرق الأوسط، 2001.

- لابيدس إيرام:

170- **تاريخ المجتمعات الإسلامية**، تر: فاضل جتكر، ط2،بيروت،دار الكتاب العربي،2011.

- لومبارد موريس:

171- **الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خـــلال القرون الأربعة الأولى** ،تر:عبد الرحمـــن حميدة ،دمشق ،دار الفكر ،1982.

- ليفيتسكي تاديوش:

172- **دراسات شمال إفريقية** ،تر:أحمد بومزكو،ليبيا، مؤسسة تاوالت،2006.

- مازيل جان:

173- **تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية** ، تر : ربا الخش ، اللاذقية ، دار الحوار ، 1998.

- ماكفيدي كولين:

174- **أطلس التاريخ الإفريقي** ،تر : مختار السويفي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1987.

- هوبكنز:

175- **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية**،تر:أحمد فؤادبلبع،الكويت،الهيئة العامةلشؤون المطابع الأميرية،1998

- ويدنز دونالد:

176- **تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء**،تر:راشد البراوي ، القاهرة ،دار الجيل ،2001.

- ياشيرو فيكثور:

177- **تاريخ إفريقيا القديمة** ، تر:محمد علي النقراشي، القاهرة ، نهضة مصر للطباعة و النشر، 2008.

3- المراجع باللغـــــة الأجنبيـــــة

- Aboubacar Adamou:

178- **Les relations politiques et Culturelles entre le Maroc et le Mali a travers les ages**, Rabat, institut des Etudes Africaines, 1991.

- Canal Jean Suret:

179- **Afrique Noire occidentale Gèographie –Civilisations –Histoire - ,Paris, Editions Sociales,3e ed,1968.**

- Cuoq Joseph:

180- **Histoire de L'islamisation de L'Afrique de L'ouest des origines á la Fin du XVle Siécle** , Paris,Librairie orientaliste paul Genthner,1984

181- **Recueil des sources árabes concernant L'Afrique occidentale du VIII e au XVl siecle (Bilad Al Sudán) Traduction et notes**, paris,edition du centre national de la recherché scientifique,1975.

- DeLafosse Maurice:

182- **Haut- Sènègal-Niger**,Paris,Emile Larose-Libraire-Editeur,1912,T2

183- **Les civilizations Nègro- Africaines**, Paris, Librairie Stock,1925.

184- **Les noire De L'Afrique**, paris, payot 1941.

- Levtzion Nehemia:

185- **Ancient Ghana and Mali**, NewYork, Africana publishihg, company, 1980.

- Mauny Raymond:

186- **Les siècles obscurs de L'Afrique Noire Histoire et archeology**, paris,Fayard,1970.

4- الرسائـل الجامعيــــة

- بشاري لطيفة بن عميرة:

187- **الرق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين** (ق. **1-4هـ/7-10م**) ، أطروحة دكتوراه، إشراف بوبة مجاني، جامعة الجزائر ، 2008.

- بلبشير عمر:

188- **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 6إلى 9هـ/ 12-15م من خلال كتاب المعيار للونشريسي** ، أطروحة دكتوراه، إشراف غازي مهدي جاسم الشمري، جامعة وهران، 2010.

- بلهواري فاطمة:

189- **النشـاط الاقتصادي في بلاد المغـرب خـلال القرن الرابع هجري /10م**، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد الحميد حاجيات وغازي مهدي جاسم الشمري، جامعة وهران،2005.

- البياتي بان علي محمد:

190- **النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن 3-5 هـ/ 9-11م** ، رسالة ماجستير ، إشراف صباح إبراهيم الشيخلي ، جامعة بغداد ، 2004.

- جنيدي عبد الحميد:

191- **مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10هـ/16م** ، مذكرة ماجستير، إشراف خالد صابر الشريف ،جامعـة الجزائـر ،2009.

- خالدي مسعود:

192- **الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء** (السودان الأوسط والغربي) **بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين /الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين** ، أطروحة دكتوراه،إشراف مسعـود مزهودي ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ،2009.

- شعباني نورالدين:

193- **علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي و آثارها الحضارية بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين /10و15م**، مذكرة ماجستير ، إشراف موسى لقبال ، جامعة الجزائر ، 2006.

- صادقي كمال:

194- **الصنـاعة الحرفية بالمغرب الأوسـط في عهـد بني حمـاد (398-547هـ/1007-1152م)**، مذكرة ماجستير، إشراف إسماعيل سامعي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2007.

• عابد يوسف:

195- **الموحدون في بلاد المغرب (515هـ-595هـ/1120م-1199م) دراسة في الحيـــاة الاقتصادية والاجتماعية**، أطروحة دكتوراه ، إشراف عبد العزيز فيلالي،جامعة أ ع إ،2007.

• مغزاوي مصطفى:

196- **دور العـــامل السياسي في انتشـــار المذهب الأشعري في المشرق الإســـلامي و مغـــربه(من منتصف القرن 5هـ/11م إلى بداية القرن 8هـ/14م)** ،مذكرة ماجستير، إشراف خـــالد كبير عـــلال، جـــامعة الجـــزائر، 2008.

• واعظ نويـــرة:

197- **أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية (580هـ-1184م/633هـ-1235م)** ،مذكرة ماجستير، إشراف مبارك بوطارن، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة- الجزائر، 2008.

5- المجلات و الدوريات وأعمال الملتقيات:

• بن شقرون مصطفى:

198- **"دور التجار المسلمين في نشر الإسلام بغرب إفريقيا في العصر الوسيط"** ، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء،مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة،طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،1999،ص:60-62.

• بنعزوز فريدة:

199- **"قراءة في أبحاث تاديوش لفيتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب و بلاد الأندلس "** ،أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء،مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس ،منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،1999،ص:453-464.

• بيرك جـــاك:

200- **"في مدلـــول القبيلة بشمـــال إفريقيا"**الأنتروبولوجيا و التاريخ :حالة المغرب العـــربي،تر:عبـــد الأحد السبتي و عبـــد اللطيف الفلق،ط2،الدار البيضاء، دار توبقال ،2007،ص:114ـــ125.

• تاوشيخت لحسن:

201- **"سجلمـــاسة كمحطة للتواصل الحضـــاري بين ضفتي الصحـــراء "** ، أعمـــال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة،طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،1999،ص:224-238.

• الجنحاني الحبيب:

202- "**الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة عاصمة بني مدرار**"، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية – مجموعة البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكري –، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000، ص: 149-165.

• دهيـــــنة عطاء الله:

203- "**العلاقات التجارية بين المغرب و السودان عبر الصحراء من القرن6إلى القرن8هــ ودور تلمسان في هذا الميدان**"، الأصالة،26(1975)،ص:99-100.

• زبادية عبد القادر:

204- "**ملامح الحركة التعليمية في تومبكتو خلال القرن السادس عشر**"، الأصالة ،53(1978)،9-20.

• زنيــــبر محمد:

205- "**تجارة القوافل في المغرب**"، تجارة القوافل و دورهـــا الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر،بغداد،معهد البحوث و الدراسات العربية،المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1984،ص:161-190.

• سامعي إسماعيل:

206- **الحركة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال صورة الأرض لابن حوقل 4هــ/10م**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،20(2006)،171-188.

• سماعيلي محمدأمين:

207- "**عبد الله بن ياسين و معالم الوحدة الثقافية المغاربية الإفريقية (مواقفه جانبي الصحراء الكبرى)** "، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، طرابلس ،منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،1999،ص:271-274.

• سيسوكو سينيكي مودي:

208- "**الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر**" ، تاريخ إفريقيا العام، منظمة اليونسكو، 1997،ج4، ص:199-221.

• شعباني نور الدين:

209- " **دور ملوك السودان في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة/11و15م**"، الحكمة، 9(2011)، ص: 224-241.

• الشكري محمد:

210-"**تجربة الإســـلام ببـــلاد الســــــودان قبل متم القرن ال 16من الوحدة إلى الوحدة**" ،المذاهب الإسلامية ببـــلاد المغرب من التعـــدد إلى الـــوحدة ،تنسيق: حسن حافظي علوي،الدار البيضاء ،مطابع النجاح الجديدة ،2008.

- شهيـــــر عبد العزيز:

211- **"رسوخ الهوية العربية الإسلامية في السودان الغربي"** ، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، طرابلس ،منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،1999،ص:39-42.

- الشيخلي صباح إبراهيم:

212- **"إنتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء"** ، آفاق الثقافة والتراث ، 38(2002)، ص:19-30.

213- **"النشاطات التجارية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري"**، تجارة القوافل ودوره‍ــا الحض‍ــاري حتى نه‍ــاية القرن التاسع عشر،معهد البحوث و الدراس‍ــات العربية،المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، بغداد، 1404هــ/1984م، ص:29-46.

- الطيبي أحمد توفيق:

214- **"أثر الإسلام الحضـــــاري في غــانة ومــالي في العصر الوسيط (القرن العاشر/القرن الرابع عشر للميلاد)"**، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، طرابلس ،منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،1999،ص:116-124.

- عابد يوسف

215- **" الإتصــالات والهجــرة العربية المغربية إلى بلاد السودان الغربي خــلال عهد الموحدين الأول (541-595هــ/1146-1199م)"** ، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية،13(2012)،ص:419-433.

- عمــارة علاوة:

216- **"ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط"**،مجلة التاريخ العربي،(2002)،ص:67-96.

- عوض الله الشيخ الأمين:

217- **"تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي و آثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي"** ، تجارة القوافل و دوره ــــــــــا الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر،معهد البحوث و الدراسات العربية،المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، بغداد، 1406هــ/1984م، ص:69-106.

- قويدر بشار:

218- **"القوافل التجارية المغاربية (طبيعة التجارة و آثارها)"**، طريق القوافل ،الجزائر ،منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ، 2001،ص:13-19.

- الماحي عبد الرحمن عمر:

219- **"مساهمة قوافل الصحراءفي نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط"**،مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،4(1993)،ص:225-245.

- ولد آل الشيخ. سيدي محمد:

220- **"دور طرق القوافل في ازدهار المدن الموريتانية القديمة"**، طريق القوافـــــل ، الجزائر ، منشورات المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ ،2001، ص:97-98.

- ولد محفوظ عبد الوهاب:

221- **"القبيلة في موريتانيا بين التأصيل التاريخي و التحليل السوسيولوجي"** ، إضافات المجلة العربية لعلم الإجتماع،14 (2011) ،ص:125ـــ150.

- Devisse Jean :

222- **"Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale "** , HISTOIRE GENIERALE DE L'AFRIQUE , UNESCO , 1990, T:3 , P: 397-464.

- Lange Dierk:

223- **"Les Roi de Gao-Sqne et les Almoravides"** , The Journal of African History vol.32, N 2 (1991),p.251-275.

- Levtzion Nehemina:

224- **"Ibn Hawgual , The cheque, and Awdgost"**,The Joournal of African history, vol. 9, N. 2(1968).P:223-233.

- Lewicki Tadeusz:

225- **"Le role du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud"**, HISTOIRE GENIERALE DE L'AFRIQUE , UNESCO,1990, T:3 , P:303-340.

226-**"Les origines de L'Islam dans les tribus berbèrs du sahara occidental -Musa ibn Nusayr et Ubayd allah ibn Alhabhab -"**, studia islamica, 32 (1970) p .203 214 .

227- **" LÈtat nord-africain de Tàhert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin de VIII et au IX e siècle"** Cahiers d'Etudes Africaines vol.2 chaier 8(1962) p:513-535.

228- **" Un État soudanais mèdièval inconnu : le royaume de Zàfun"**, cahiers d'etudes africaines , vol 11, n 44 1971, pp : 501-525.

- Lucas A.J :

229- **"Considérations sur l'ethnique maure et en particulier sur une race ancienne : les Bafours"** , Journal de la Société des Africanistes. 1931, tome 1 fascicule 2. pp. 151-194.

- Malowist Marian:

230- **"Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan occidental au Moyen Age"**,Annales Èconomies, Sociètès, Civilisations,6(1970) p: 1630-1636.

- Marot Laurence Garenne :

231- **"Le commerce médiéval du cuivre : la situation dans la Moyenne Vallée du Sénégal d'après les données archéologiques et historiques"**, Journal des africanistes,T65, fascicule 2 (1995), p: 43-56.

- Meuniè Jacques:

232- **" Citès caravanières de Mauritanie – Tichite et Wualata"** , Journal de la sociètè des Africainistes, T27.fascicule1 (1957)p: 19-35.

- Nicolas Guy:

233- **"L enracinement ethnique de L islam au sud du Sahara Etude compareé"**, Cahiers d études africaines,Vol.18,71 (1978) p :347-377.

الفهـــــــارس

1- فهرس الأعـــلام:

(ي)

2- فهرس الأماكن والبلدان:

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

3- فهرس الشعوب والقبائل:

4- فهرس المحتويات.